أيقونة الفن

سيرة روائية



جورج البهجوري

جورج البهجوري

أيقونة الفن

سيرة روائية

فهرس

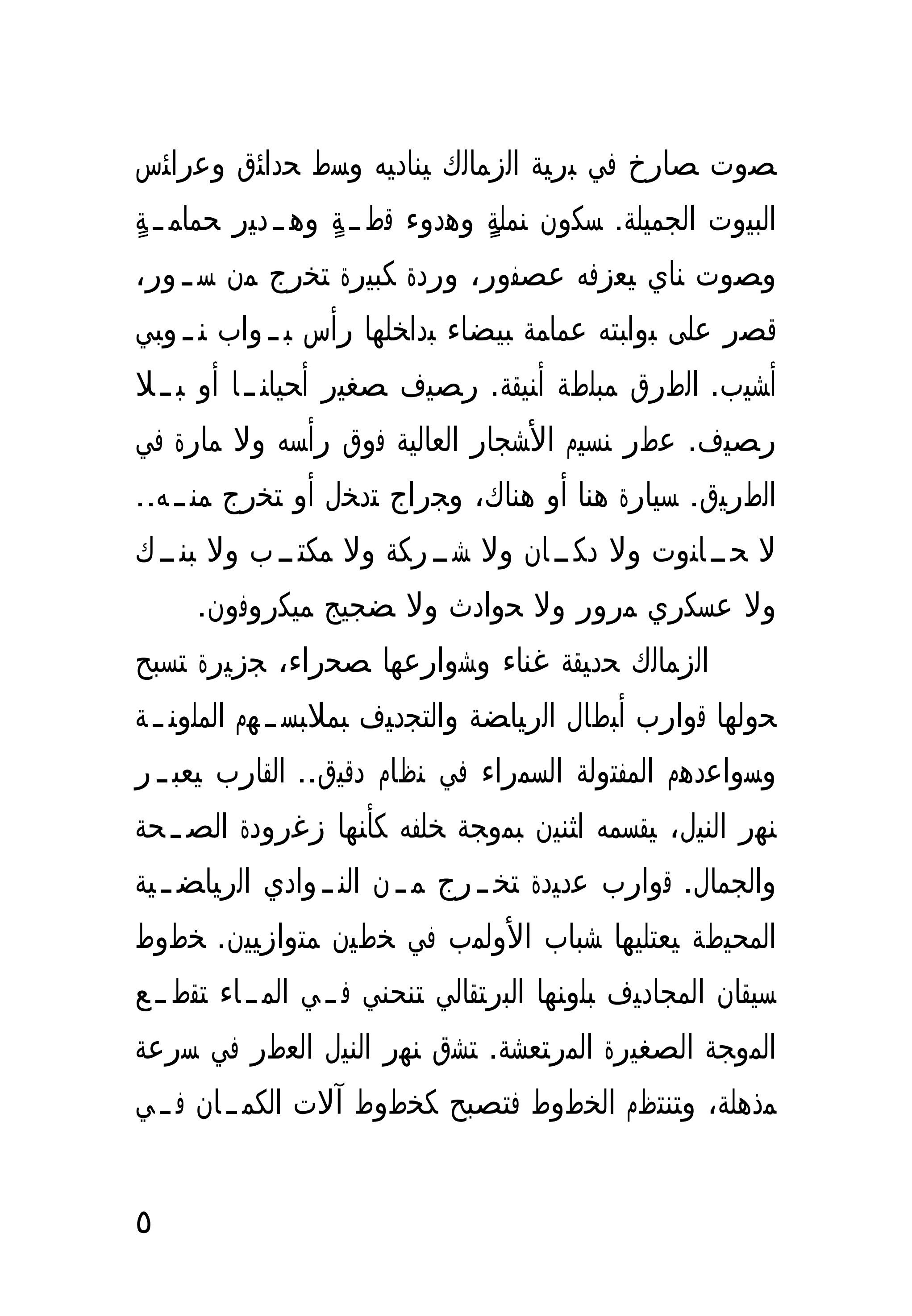
الفصل الأول

فلتس يفتح كف يده اليمنى، يرى خطًا يرسـم أيقونـة العذراء والطفل في أبسط شكل يجمعهما. صعد الخط الـذي يشق الكف يمينا مع استدارة بطن الإبهـام، وانحنـى إلـى الشمال ثم الوسط، مكونًا دائرة، تنعقد معها دائرة صـغيرة، كأنهما، الأم والوليد. ويعود الخط يشق عرض الكف، ويليـه خط آخر، ينحرف قليلا فيبدو كما ثنايا العباءة المقدسة التـي تجمعهما، ثم متجها إلى اليسار، يستدير إلى أسفل مع بطـن الأصابع الأربعة منتهيا بالأصغر البنصر.

وهكذا بدت له أيقونة الكف واضحة هذه المرة.. وهـو يقف أمام بوابة كلية الفنون الجميلة لأول مرة كطالب جديـد في السنة الإعدادية. أمامه خمسة أعوام دراسية ليـتعلم فـن الرسم.. هل تستكمل الأيقونة شكلها حتى تصل إلـى بـؤرة الكمال!

هل تصبح ملونة...؟

يتذكر رحلته الصباحية اليوم، وهو يبدؤها على الأقدام من بولاق تاركًا خلفه بيوتها القديمة المتهالكة وكأنها تنحنـي وتئن.. يعبر كوبري أبو العلا في رحلته الأولى إلى الفـن..



صوت صارخ في برية الزمالك يناديه وسط حدائق وعرائس البيوت الجميلة. سكون نملةٍ وهدوء قطـةٍ وهـدير حمامـةٍ وصوت ناي يعزفه عصفور، وردة كبيرة تخرج من سـور، قصر على بوابته عمامة بيضاء بداخلها رأس بـواب نـوبي أشيب. الطرق مبلطة أنيقة. رصيف صغير أحيانـا أو بـلا رصيف. عطر نسيم الأشجار العالية فوق رأسه ولا مارة في الطريق. سيارة هنا أو هناك، وجراج تدخل أو تخرج منـه.. لا حـانوت ولا دكـان ولا شـركة ولا مكتـب ولا بنـك ولا عسكري مرور ولا حوادث ولا ضجيج ميكروفون.

الزمالك حديقة غناء وشوارعها صحراء، جزيرة تسبح حولها قوارب أبطال الرياضة والتجديف بملابسـهم الملونـة وسواعدهم المفتولة السمراء في نظام دقيق.. القارب يعبـر نهر النيل، يقسمه اثنين بموجة خلفه كأنها زغرودة الصـحة والجمال. قوارب عديدة تخـرج مـن النـوادي الرياضـية المحيطة يعتليها شباب الأولمب في خطين متوازيين. خطوط سيقان المجاديف بلونها البرتقالي تنحني فـي المـاء تقطـع الموجة الصغيرة المرتعشة. تشق نهر النيل العطر في سرعة مذهلة، وتنتظم الخطوط فتصبح كخطوط آلات الكمـان فـي

كونشرتو موسيقى.. بينما تبرق السواعد الفتية تحت حمالات الفانلات الزاهية اللون، من الأزرق إلى الأصفر.

كوبري أبو العلا، بهامته العالية المزركشـة بالحديـد المتقاطع في مثلثات منتظمة، يحرسه وهو يعبره ، تصـافحه من جديد نسمات الهواء المعطر بورد النيل، ويصل إلى نهاية الجسر العتيق. جسر صممه مهندس برج إيفل الباريسي. تطأ أقدامه الشوارع الصغيرة على اليمين إلـى أن يصـل إلـى إسماعيل محمد.. هكذا عرف عنوان كلية الفنون.. تسـتغرقه القصور الصغيرة والفيلات، يتأمل اللافتات النحاسية ويقـرأ الأسماء، من السفارات إلى القنصليات إلى طه حسين وعبود باشا، يلتقي أمام البوابة القديمة للكلية بنسخة منقولة من روما لفينوس، بدون ذراعين، فقط الوجه البيضاوي وحوله دانتيللا خصلات الشعر كالتاج فوق رأسها.. صدرها عار في تناسق مع الكتفين وبداية الذراعين. ينثني الحجر في لمعة ناعمـة. تظهر انحناء البطن قبل أن يلتقي بثنيات وتعـاريج اللفـائف الحجرية، تنساب حتى نهاية الفخذ.. وكأن الجسـد العـاري النبيل لإلهة الجمال يتلفاف بستائر حريرية أنعم من البشـرة

التي – رغم كونها من الحجر – تبدو كالرخام. يراها فلتس في لونها البشري امرأة بيضاء بلون حبة اللوز.

يقف على السور الحديدي رجل عجوز، بملابس كاكية يتدثر بها بحجمه المكرش وثنيات قميصه الفقير، وخلفه تماثيل أخرى متناثرة في كل اتجاه، ومعه حقيبة صفراء مليئة بالأوراق، إنه عم حسنين البواب الذي يمزح دائما مع الطلاب.

فلتس، مراهق طرد من بيت أبيه بعد آخر شجار له مع زوجته، احتد فيه الأب ودفعه في صدره، ودفع الولد صدر أبيه بكوعه مدافعا، لكن الأب ندم ولحق به في الطريق وأعطاه ورقة نقدية من فئة الجنيه، أجر أسبوع من الدروس الخصوصية وقال له بتعبير خافت رقيق:

- أنا قلت الخير اللي حايجيلي من التلميذ ده حيبقى لابني فلتس.

وتعود العبارة الحاسمة التي قالها له ولأخيه حنا:

«أديني علمتكم وربتكم وبقيتوا كبار.. حاولوا تعتمدوا على نفسكم.. سيبوني أربي اخوتكم الصغيرين، عاوز اطمئن ان كل واحد ياخد فرصته في التعليم».

على ناصية الطريق مسح حنا دمعة سقطت على خـد فلتس وتمنى فلتس أن يصرخ من جديد من حنجرته الطفلـة التي أصبحت الآن عجوزا.. يصرخ.. يصرخ.. إلا أن حنـا وعده بالحصول على عمل بواسطة صديق له يعمل بائعا في مكتبة بشارع عماد الدين، وينوي صـاحب المكتبـة، وهـو يهودي، أن يفتح فروعا لبيع كتبه في الفنادق الكبيرة.

ويتذكر رسالة ابن خالته سمعان التـي أرسـلها إليـه باعتباره توءأمه الروحي:

«ابن خالتي الحبيب وتوءمي، هل تذكر عندما كانـت تقول أمي ، خالتك، اك، أنت الخالق الناطق سمعان لما كـان صغير. ها أنا أكتب اك عن قصة حبـي العظيمـة لأولجـا الفاتنة، أجمل نساء أقباط شبرا عندما كنت أذهـب لزيـارة شقيقها جرجس الذي كان يعمل معي في معسكرات الجـيش الإنجليزي، طيار معايا، كنا احنـا الاثنـين زينـة الرجـال بملابسنا الظبابيطي الزرقا.. أول مرة شـفته حسـيت ان ده صديق عمري ولما رحت بيته وشفت أولجا حصللي توهـان وكأني أعرف مستقبلي واتنبأ بيه.. أنا دايما كان عندي قرون استشعار زيك تمام.. ومن حسن الحظ ما كـانوش سـاكنين

بعيد عن شيبان كانوا فردة كعب من شارع الدوران.. كانت المشكلة اللي أنت عارفها لما كانت بتيجي وانت صغير مـع اخواتك جميل وحنا وكنا نسميكم أولاد المرحومة وأمي هـي اللي ربيتكم علشان كده أنا باسميك توءمي..

ما تنساش كمان اني أنا اللي قلت لك انت موهوب في الرسم وسيبتك يوم كامل في أودتي لما كنت عازب في شارع حليم ومعاك ورقه وقلم قعدت ترسم طول النهار وانت لسـه عندك ست سنين وطلعت لنا بلوحة جميلة جدا أنـا فاكرهـا لغاية دلوقتي، نساء وزهور وطيور.

عارف كمان ان مشكلتي لما شفت أجمل امـرأة فـي شبرا أولجا وزرت بيتهم ، أخوها جرجس كان عازمني، ان اسرتهم أعلى مننا في المستوى الاجتمـاعي وإحنـا فقـراء وغلابه.. رزقنا يوم بيوم، أنا واخواتي واخونا الكبير فوزي اللي لسه صول في الجيش الإنجليزي، وبعدين إنت عـارف إن الطيران ده كان أرضي، يعني ما نعرفش أي حاجة عـن الطيران، أهم لبسونا البدلة الكحلي وعليها الخطوط والجيوب والزراير الملونة وبقينا ننظم الموظفين ونعد الصادر والوارد

ومصاريف كل يوم.. لكن بعد شهرين. يطلعونا ونروح ندور على شغلانة جديدة.

يعني خلاصة الكلام إني وإخواتي على قدنا.. كمـان جرجس كده، لكن أبوها زي باشوات زمان، لكن باشا غلبان، وأختها الكبيرة زوزو متجوزة جوازة عال، شخصية مـدير عام في وزارة الصناعة (وطبعا انت سمعت ان اسمه حسـن وهوه مسلم واتجوز زوزو بعد قصة حب عنيفـة جـدا زي قصتي مع أولجا، لكن اختلاف الديانة عمل حكاية كبيرة فـي الوقت ده. عندهم دلوقتي عادل وسمير وهـي طلبـت منـه أسماء مشتركة علشان ما حدش يزعل من عيلتها.. عـارف شخصية حسن ده من أروع الشخصيات وأجملها، وهوه اللي تحمس ووافق على جوازي لما طلبت إيد أولجا.. انت عارف كمان اني لما رجعت عند خالتي أم سليمان لقيت ابنها غـالي غيران مني غيره جامدة أوي ووحيد وغلبان وبيدور علـى عروسه، وانت عارف إن ده ابن خالتي الحبيـب.. أخدتـه معايا لأهل العروسة وأنا باحرضه يشوف اختها الأكبر بسنة علشان كمان يرضوا يجوزوها لي.. عجبته.. سحرته وهـي العكس في الجمال.. قصدي جمال السمار من نـوع تـاني

والشعر الأسود والجسم القد.. خلاص بقينا عريسين وعروستين..

عارف يا فلتس من ساعتها الحب جمعنا احنا الأربعة.. كان متساوي.. السعادة اللي جت لنا كانت بالجوز.. ربنا باركها لنا، زي ما بارك جوازة اختهم الكبيرة زوزو القبطية بحسن المسلم.. ارسم يا ابن المرحومة رحمة اللي كانت زي الملاك.. انت موهوب في الرسم.. أودتي اللي فيها كل عفش العروسة من سرير ودولاب هي اللي كانت الفنون الجميلة بتاعتك.. فوزي اخويا الكبير الصول هوه اللي كان مالي البيت عيال ومنيرة الأم اللي ربتهم.. شقته في الدور الأرضي في شارع حليم هيه اللي اتجوزنا فيها.. حتى أخويا الأصغر فرج عطاله أوده..

يومها قفلت عليك باب أودتي، أولجا كانت مسافرة اسكندرية عند ابوها صاحب دكان الخردوات في محرم بيه، وكان دايما يديلك ملبساية من البرطمان وأنت تضحك وتقول ده الباشا الغلبان. قعدنا كلنا في الصالة الكبيرة وسيبتك ترسم في ركن عند التسريحة على طقطوقة صغيرة من فرش العروسة.

رسمت لوحة مليتها ورد وطيور وناس قاعـدين فـي جنينة كأنهم في حلم. قلتلك ساعتها انت واد فنان.»

أيها الأبيض الناصع تفتح عينيك وكأنك تراني، كيـف أراك وأرسمك وأنت بلا نظارات وبلا حدقتين هل هو الفـن اليوناني.. هل أنت فعلا تمثال وأنا طالب أتعلم رسم التماثيل وأنت أول سؤال لا بد أن أجيب عليه؟

عيناي تدوران حول قطعة النحت الجميلـة لرأسـك.. بدأت بالعينين الفارغتين وكأن بهما يمحو البصر، فترى كـل شيء أو ترى الشيء في الكل.

أرتعش أمامك وطاولتي لوحة خشبية قديمـة شـبكت عليها صفحة كبيرة بيضاء، أعطوني غصن شـجرة يابسـة محترقة بلون الفحم لأرسمك.

أتأملك من جديد، منبهرا وصوتك يصرخ فـي بريـة الزمالك، وخطوط الجبهـة الصـلعاء، خصـلات الشـعر الحلزونية، الشارب الكثيف المنساب في خطوط دائرية كثيفة حول الذقن الكبيرة، والرقبة الضخمة العالية تستند على كتفين مضمورين من التعب والإرهاق.

هل أنت فعلا أمامي يا سقراط وأنا واحد من ثلاثـين طالبا على حلقتين، ينظرون إليك، وأمام كل طالب صـفحة بيضاء مثلي، تميل على مقعد وأجلس أنا أمامك على مقعـد مماثل.

ما بين البنصر والخنصر ساق الشجرة السوداء بالفحم وأنا حائر كيف أضع يدي على الورقة لأرسمه.. سـقراط.. أين أنت.. في أي عصر عشت؟ كيف كانت حياتك؟ صراعك وحبك وفكرك، من أنت أيها الجالس أمامي ولم يبـق منـك سوى رأسك الأصلع ولحيتك الكثيفة، رأس كجـدار القمـر، وأنا لا أحمل سوى عيوني لأراك وأرسمك.

سقراط! أنت تنطق أمامي، تماما كما أحاديثـك حتـى الصباح وسط صحبك من صعاليك الناس أشدهم فقرا وأنبلهم روحا. يدورون حولك يسمعونك. وأنت تضـيق وتضـيف بالكلمة والبسمة والفكرة، كيف يحاكمونك.. لماذا لم تهـرب من تلاميذك؟!

من أعاد لك الحياة في هذا التمثال النصفي أهو فيدياس الإغريقي أم مايكل أنجلو الفلورنسي أم برانكوزي الروماني رغم اختلاف أجيالهم؟.. لن أرسمك اليوم، لا بـد أن أعـود

الليلة لقراءة شيء عنك. سأبحث في مكتبة أخـي وجـاري وزميلي القارئ الدائم عبد المنعم كرار أو مكتبـة صـديقي سمير السبع أو النحات صمويل.

هل أنا موهوب؟ لقد عبرت امتحان المواهب بصعوبة، ترتيبي السادس عشر من ستين ، لم أرسم جيدا، ولم أجـب بمهارة على الأسئلة الثلاثة، عشت لحظات صعبة في انتظار النتيجة. لا أحمل سوى الأيقونة في كفي إنني أراها كل لحظة حتى وأنا نائم: أشعر بها تنبض مع عرق الكف في يدي.

تهادت سحابات الدخان البنفسجية التي يتذكرها مع شلة ابن عمته أبو النجا.. لا زالت المخدرات تملأ رأسه وهو في الطريق إلى اختبار المواهب في كلية الفنون الجميلـة. لقـد رسم الامتحانات الثلاثة المقررة في ثلاثة أيام وقـد تحولـت خطوطه إلى سحابات دخان.. يريد أن يشرح نفسه. أن يعبر عن ذاته أكثر من السؤال الذي يجب أن يعطيه الإجابة.

صالات واسعة واسـتمارات وأوراق وتقريـر طبـي وتقديم أوراق أخرى مع صور فوتوغرافية.. بعـد شـهور الصيف جاء عشرات الطلاب في فناء الكلية يبحثـون عـن أسمائهم في مسرد الأسماء التي قبلتها لجنة الأساتذة لاختيار

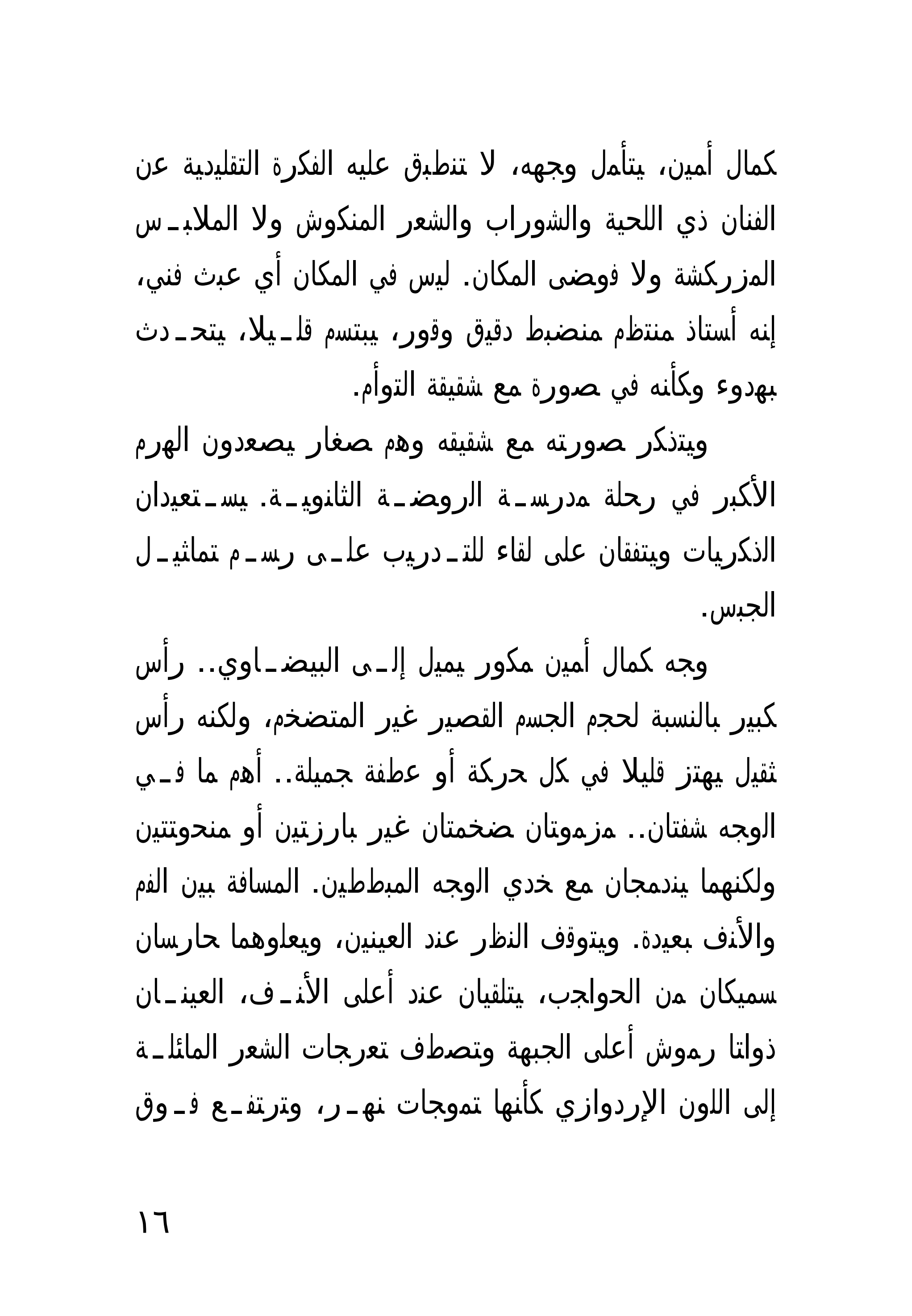
المواهب. لحظات صعبة مرت وهو يبحث عن اسمه حتـى وجده في الترتيب السادس عشر. ويعود يتخبط في أوهامه.. ويسأل من جديد:

هل أنا موهوب؟

يتذكر مساعدة شقيقه الأكبر جميل الذي لا يفارق خياله منذ الطفولة.. الطريق إلى حي المنيل والصعود ثلاثة طوابق إلى شقة بسيطة، يفتح الباب أستاذ قسم الحفر في كلية الفنون كمال أمين. الشقيق جميل يستقبله بالأحضان. أكثر من عشر سنوات لم يلتقيا، إنه زميل فصله في مدرسة الروضة الثانوية القريبة على يسار كوبري الملك الصالح. ذكريـات سـنوات الصبا في الثانية عشرة. لقد عثر على رقم هاتفه من صديق قديم وجاء اليوم إليه في ذلك الصباح من شهر يونيـه قبـل إجازة الصيف وبعد انتهاء موسم الدراسة.

- أقدم لك أخي الأصغر.. يتوهم أنه موهوب ويريد أن يدخل الفنون الجميلة.. أرجوك مساعدته.. إنه يخاف اختبار المواهب.

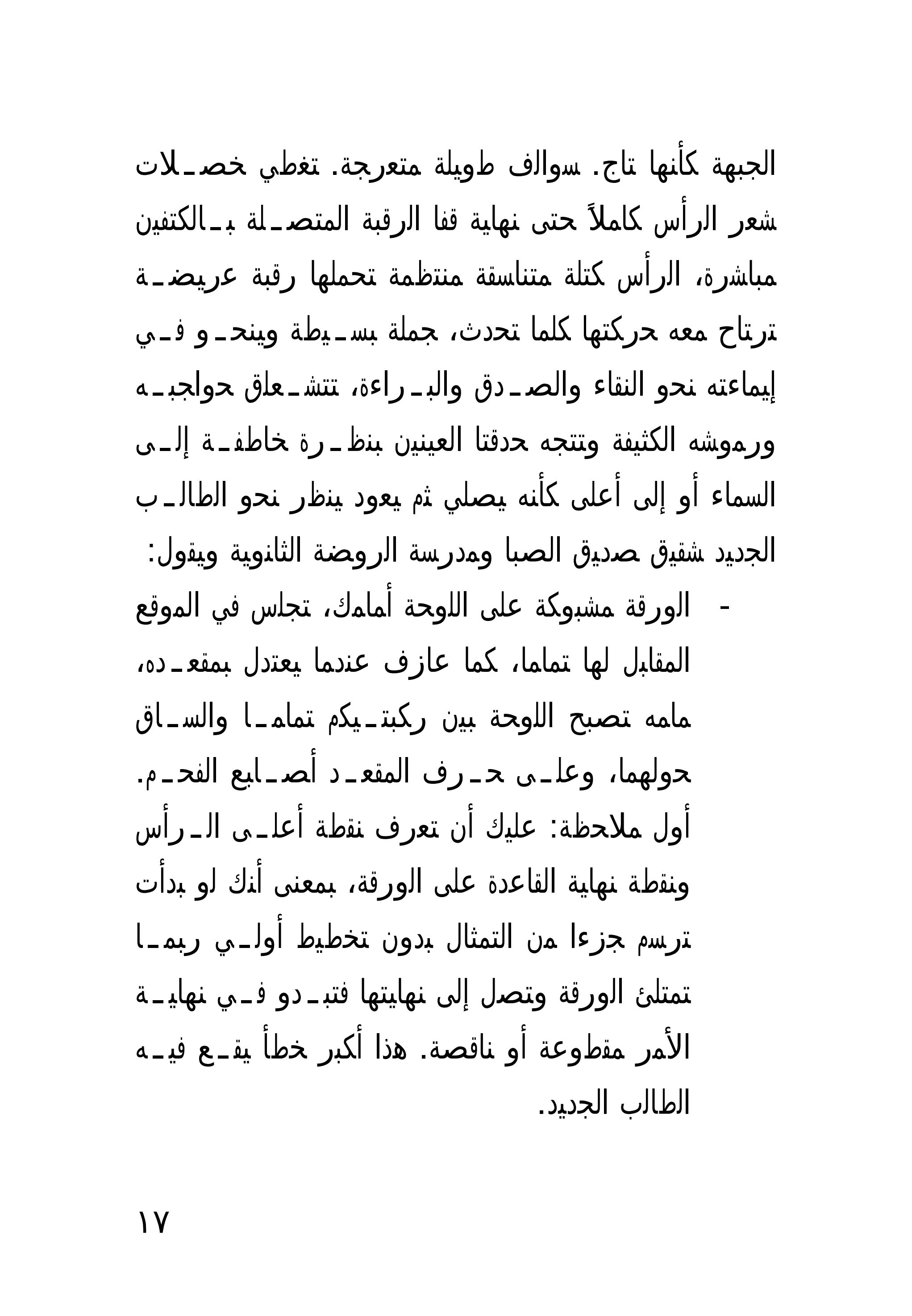
الذي كان في السابعة عشرة من عمره.. لا يستمع إلى الحوار العادي بينهما ولكن عينيه مثبتتان على لوحات الأستاذ



كمال أمين، يتأمل وجهه، لا تنطبق عليه الفكرة التقليدية عن الفنان ذي اللحية والشوراب والشعر المنكوش ولا الملابس المزركشة ولا فوضى المكان. ليس في المكان أي عبث فني، إنه أستاذ منتظم منضبط دقيق وقور، يبتسم قليلا، يتحدث بهدوء وكأنه في صورة مع شقيقة التوأم.

ويتذكر صورته مع شقيقه وهم صغار يصعدون الهرم الأكبر في رحلة مدرسة الروضة الثانوية. يستعيدان الذكريات ويتفقان على لقاء للتدريب على رسم تماثيل الجبس.

وجه كمال أمين مكور يميل إلى البيضاوي.. رأس كبير بالنسبة لحجم الجسم القصير غير المتضخم، ولكنه رأس ثقيل يهتز قليلا في كل حركة أو عطفة جميلة.. أهم ما في الوجه شفتان.. مزموتان ضخمتان غير بارزتين أو منحوتتين ولكنهما يندمجان مع خدي الوجه المبططين. المسافة بين الفم والأنف بعيدة. ويتوقف النظر عند العينين، ويعلوهما حارسان سميكان من الحواجب، يتلقيان عند أعلى الأنف، العينان ذواتا رموش أعلى الجبهة وتصطف تعرجات الشعر المائلة إلى اللون الإردوازي كأنها تموجات نهر، وترتفع فوق



الجبهة كأنها تاج. سوالف طويلة متعرجة. تغطي خصـلات شعر الرأس كاملاً حتى نهاية قفا الرقبة المتصـلة بـالكتفين مباشرة، الرأس كتلة متناسقة منتظمة تحملها رقبة عريضـة ترتاح معه حركتها كلما تحدث، جملة بسـيطة وينحـو فـي إيماءته نحو النقاء والصـدق والبـراءة، تتشـعلق حواجبـه ورموشه الكثيفة وتتجه حدقتا العينين بنظـرة خاطفـة إلـى السماء أو إلى أعلى كأنه يصلي ثم يعود ينظر نحو الطالـب الجديد شقيق صديق الصبا ومدرسة الروضة الثانوية ويقول:

- الورقة مشبوكة على اللوحة أمامك، تجلس في الموقع المقابل لها تماما، كما عازف عندما يعتدل بمقعـده، مامه تصبح اللوحة بين ركبتـيكم تمامـا والسـاق حولهما، وعلـى حـرف المقعـد أصـابع الفحـم. أول ملاحظة: عليك أن تعرف نقطة أعلـى الـرأس ونقطة نهاية القاعدة على الورقة، بمعنى أنك لو بدأت ترسم جزءا من التمثال بدون تخطيط أولـي ربمـا تمتلئ الورقة وتصل إلى نهايتها فتبـدو فـي نهايـة الأمر مقطوعة أو ناقصة. هذا أكبر خطأ يقـع فيـه الطالب الجديد.

الخطوة الثانية هي النسب. تضع نقطة علـى الورقـة ترتبط بها أثناء الرسم.. هنا موقع الأنـف والعينـين والفـم والذقن والرقبة. وتترك المكان الملائم للقاعدة أو الكتف مـع الرقبة.

في كلماته دعاء. لا يحذر بالشكل المخيف ولا ينهـر ولا يعاتب. يتحدث دون أن يفتح فمه، كأنه يهمس في حياء.

في مخزن التماثيل يختار تمثالا لرأس إغريقي ضـخم صاب. كل شيء أبيض بلون الجيـر الـذي لا يـزال فـي أحواض الماء حول الحاج عم عبد السميع صباب القوالـب، هكذا ينادونه، يخرج الرءوس الجيرية من قوالبها بواسـطة عازل من الشمع أو الزيت.. يكسر القالب الخـارج تمامـا، فتتعدد وجوه التماثيل أمامه بعضها معتدل والآخـر مقلـوب أو مستلقٍ على الأرض كأنه وسط التاريخ ما بين الرومـاني والإغريقي.

ويتساءل الطالب المستجد في الفنون كأنه يعـود إلـى رحم الأم من جديد ويسأل من أنتم خارج هذا الرحم؟

هنا يبقى ساعتين من أهم ساعات حياتـه فـي كليـة الفنون.. داخل المخزن كأنه رءوس كبار شخصيات التاريخ،

كأنه هو جنين الفن.. هل يستطيع أن يخرج من هذا المخزن ليكون مولودا جديدا في عالم الفن؟

في مخزن التماثيل قبل أن تنتهي المحاولة الثانية يدخل صبي قهوجي صغير ومعه كوب شاي ساخن يذيب بملعقتـه ما في قاعها ويقدمها للطالب المستجد فلتس ويقول له الصبي الأسمر.. الحاج عبد السميع باعتاك الشاي ده.

وكأنه، وهو منشغل ينقل رأس تمثال بالحجر، أحـس بأزمته في محاولة فهم رسم الفحم فأرسل له واحد شاي.

فلتس يرتشف الشاي، متأملا وجه الصبي الأسمر ابن البواب يتوقف عن رسم التمثال، ينظف أصابعه مـن ذرات الفحم ويخرج من جيبه القلم الرصاص، لنفسه: أريد أن أعبر عما أراه بدلاً من دراسة التمثال. أما أستاذه كمال أمين فلـم يعط للرسم الصغير أي اهتمام، ضحك قليلا بفتور وعاد إلى الدرس الكبير لرسم التمثال.

يفتح كف اليد ليرى من جديد شكلا غير واضح هـذه المرة للأيقونة الأم والطفل. يضع بين خطوطها ساق الفحـم النباتية ذات النتوءات الصغيرة التي بقيت من وقت أن كانت خضراء تنبت على فرعها وسط الحدائق والغابـات. كيـف

احترقت وأصبحت فحما، إنـه يـود أن يرسـم بالأخضـر والبرتقالي والأحمر والبني.. حتى الأسود. يتمنى أن يرسـم بألوان النار قبل الحريق وبعده حتى الهشيم.

هل يستطيع أن ينسج من طرف هذا الغصن الأسـود جميع هذه الدرجات أمام هذا التمثال. أغلب الظن أنه يندفع، يتحمس، يقسو بكف يده ويضغط بعصبية على سـاق الفحـم فتنكسر.. تتهشم. يعاود المحاولة مع فرع شجرة أخرى تسير خطوطه معاكسه، تمتلئ الورقة ببصمات أصـابعه، يحـاول محوها بقطعة قماش وينفخ هواء تنفسه بخار وتراب الفحـم، ويحاول ثانية أن ينقل التمثال إلى الورقة.. يضيع منـه كـل شيء.. يشعر باليأس. إنه ليس موهوبا! رغم رسـالة ابـن خالته سمعان والدوك ابن عمته الحشاش الضاحك. ووساطة الشقيق الأكبر عند أستاذه الأول كمال أمين.

يضع أصابعه المتسخة بتراب الفحم داخل جيبـه فـي حركة لاإرادية كعادته ليعتدل في جلسته ويشمخ في كبريـاء قريته الصعيدية. يجوب المكان الصغير المكـدس بالقوالـب والتماثيل، ويهبط الدرج محترف القوالب الشهير عبد السميع.

نفثات المخدرات تحيطه وتهوم حوله كأشباح تصـرخ فيه.. ارسم، أنت رسام.. تعلم.. في البدء كان الرسـم علـى الأحجار والكهوف.

الطالب فلتس يتأمل عذابه داخل أسرته.. صراخ الأب عبد المسيح عندما دفعه في منزل شبرا خارج البيـت وهـو يصرخ فيه «كبرت أنت وأخوك بتعملولي مشاكل كل يوم مع مراة أبوكم وهي بتوجع دماغي كل يوم وتقول عنك بـاللفظ الواحد.. كلهم كوم والواد فلتس ده كوم»

خيب أمله في دخول الطب. لم يستطع أن يـدفع لـه مصاريف التوجيهية في مدرسة الإيمان بجزيرة بدران نـاداه الناظر السمين من «خامسة دال» وأعطاه شلوتا لا ينساه على سلم الخروج، تدحرج جسد فلتس النحيـل أربـع درجـات حجرية كما قطعة خشب يابسة مقطوعة من شجرة وارفة.

لا ينسى وجهه عندما عض شفتيه وشد أسنانه ولهـث بسباب وشتائم سمع منها كلمه (بلاط) بكسر الباء ولـم يفهـم معناها من حسن الحظ، ولكنه تكعور وتكور كما الجنين فـي بطن أمه.. هذه المرة مرغما وليس باختياره ولا بيده حيلة..

فشل فلتس في دخول الطب بينما نجح زملاؤه عـدلي فريـد ونزيه وشكري عازر ولطفي بسطا (ابن الناظر القاسي).

يتمنى أن يرسم وجه لبيب بسطا.. بـدوائره العديـدة ما بين الحواجب والعينين والبشرة البيضاء الناعمة مع قسوة التعبير فوق الشارب الصغير وكتلة اللحم التي اندمجت داخل رقبته الغليظة حتى اهتزت ربطة عنقـه المقلـدة لباشـوات العصر، في فراشتها الملونة نقطة حمراء لا ينساها، وكأنهـا هي جرحه.

يتذكر فلتس الطالب المستجد في الفنون لمحـات مـن ماضيه الحاضر دائما من كثرة استعادته.. الآن يرسم التمثال الذي لا يعبر عن مأساة حياته. يتمنى أن يرسم بنـت عمتـه الكبيرة نرجس وهي خلف زجاج شجرة الجوافة تهتز. يتمنى أن يرسم وجه أبيه عبد المسيح المكافح مع عشـرة أطفـال يكبرون كل يوم ويطعمهم كل صباح ومساء.

إن الرسم هو الخلاص والشفاء والبلسم لحياته.. لكنـه لا بد أن يمر من خلال رأس سقراط التي قدمها هو بنفسـه على طبق إلى التاريخ فجاءت كما الأطباق الطائرة إلى كلية الفنون بالزمالك.

جالسا أمام الدرس الأول يتذكر: ترن ضحكات الأنس في غرزة حديقة حدائق القبة تحت جذع القلة وتكعيبة العنب، حيث يجلس ابن العمة الدوك الحشاش الظريف أبـو النـوج ويبتسم فلتس ساخرا منه عندما تبخر الخوف مـن القائمقـام الذي دخل الغرزة في كبسة صفع اثنين أفندية والثالث عـدة صفعات رهيبة.

«شوف يا سعادة البيه الواد ده موهوب فـي الرسـم وحيرسمك دلوقتي.. مساء الأنس..» كيف استطاع ابن عمته أن يفرض الابتسامة على وجه الضـابط الغلـيظ فيتلاشـى غضبه ويضيع احمرار الدم في البشرة، وتصبح الـذكريات القريبة شحنة من التعب بعد طول الوقت وهو جـالس أمـام التمثال وكأنه يريد أن يدفعه ليتحرك حتى لو سقط وانكسـر، إنه يريد أن يعطي لأبعاد الشخصية ما يحس بـه هـو فـي أعماقه من صراع لقمة العيش وحرية الرأي، ونزاعـه مـع الأب وزوجته، وصفقه الباب الذي دفعه خلفه وهـو يخـرج لآخر مرة فلم يغلق ولكنه ارتطم في انفجار صغير وعاد إلى وضعه المفتوح متخاذلا هو الآخر، ووجه أبيه الـذي يحبـه

نحيل نحيل كما لم يره من قبل، وتخيله مرسوما. لو استطاع أن يتعلم الرسم فيزيد من استطالته!

تحولت الهواجس الحزينة لخلافه مع الأسرة وثورتـه للبحث عن كلية يحبها ومساعدة شقيقة جميل ورحلته إلى بيته الأستاذ كمال أمين.. تحولت إلى عرق غزير ينسكب علـى جبهته فنسي لون أصابعه السوداء المغموسة في الفحم الأسود وهو يزيح العرق من على جبهته فتتحول بشرة وجهه كلهـا إلى شخصيات ما قبل الميلاد كأنه ممسوخ وممسوح بصـماد الحلة.. إلا أن عينيه المحدقتين في الورقـة جعلتـاه يفطـن ويهدأ.

يعود يفتح كف يده فلا يرى الأيقونة، لقد ذاب تـراب الفحم وخرج من بين الأصابع واختلط مع العرق.. وشـيء بداخلة يدفعه. لا بد من الخروج من كل هذا.. أكمل اللوحة.. وليكن سقراط زنجيا إفريقيا أسود ولكن به سمات الإنسان في أعلى درجات نبله. المهـم هـو العاطفـة ولـيس تسـجيل المرئيات. المهم هو الحب وليس العلم بالشيء.. هـذا هـو الفن.. لقد أحب صاحب هذا التمثال عندما عاد ليقـرأ عنـه وسأل عنه صديقه الطالب الفيلسوف.

أيها الناصع بجبهتـك المتكـورة، وأنفـك المكعـب، وخصلات شاربك الكثيف تلتف حلقاته حول فمك المزمت في ثقة في حلقات تداخلت مع دوائر اللحية الصغيرة كمـا فـي وجوه القديسين. أتخيلك بسراويلك البيضاء رافعـا ذراعيـك وأنت تحدثهم عن أهل سبرطة، تحكي الحقيقة فيخـرج مـن تلاميذك أفلاطون ليصبح حامل رايتك ويكتب ما قلتـه لأول مرة.

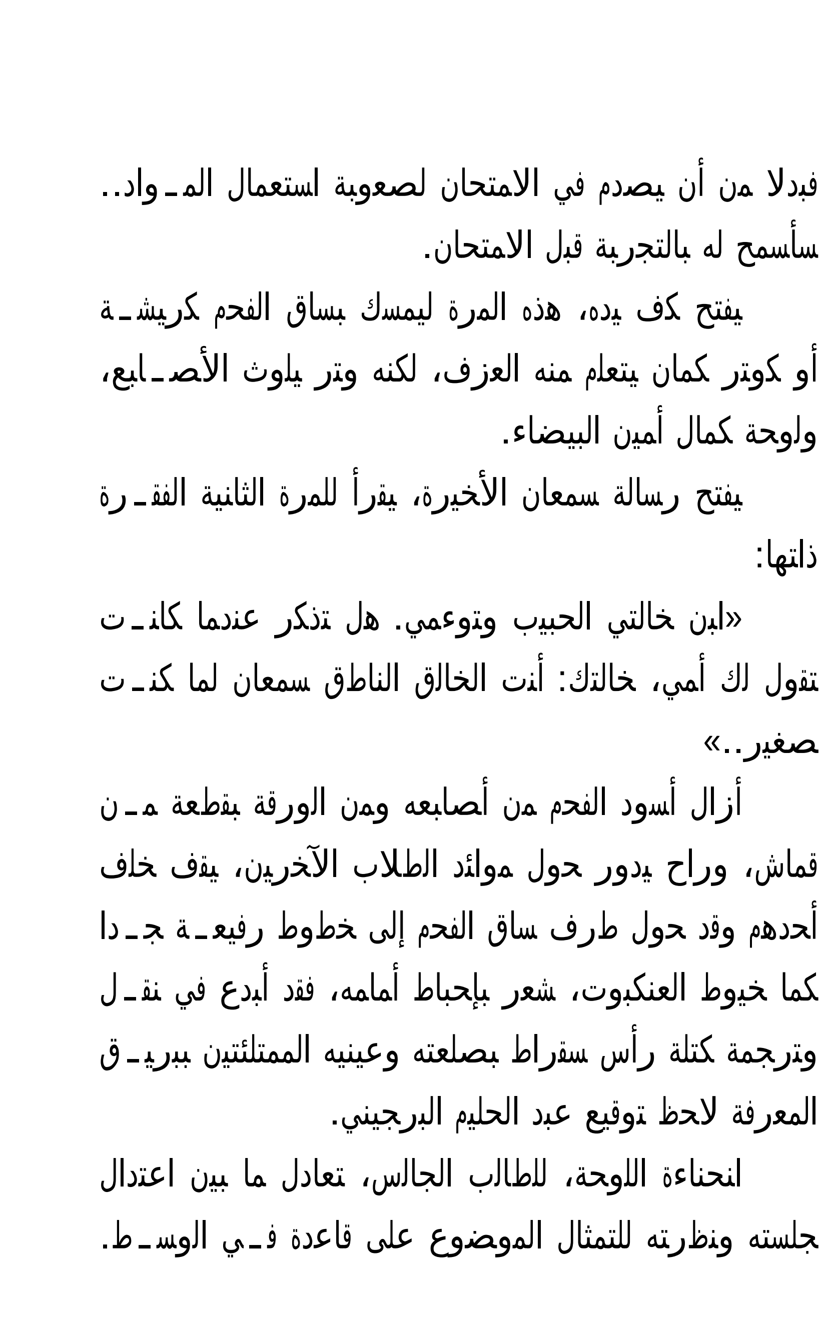
فلتس لم ير شقيقه الأكبر جميل منذ سنوات هجرته إلى أمريكا لم يره كثيرا في طفولته، وكان يعجب به وهـو فـي منوف بينما جميل يعيش في بيت إسحق في حـدائق القبـة بالقاهرة الذي يجمع نقود الفكة في طبق كنيسة منشية الصدر كل يوم أحد، ورقة الجنية التي كانت تلمع في الطبق أكثر من العملات النحاسية والفضية وهي تحمل اسم سيدة الخير التي تسكن في أول قصر على ناصية شارع الملك وهـي والـدة سابا حبشي باشا (الذي لم يحصل على الباشوية بعد).

جميل يعطف على فلتس الشاب الذي أنهـى الدراسـة الثانوية بصعوبة بسبب ولعه بالشخبطة.. شخبطة سـيقولون عنها بعد نصف قرن إنها فن تجريدي، لم يفهمه في الأسـرة

سوى ابن عمته الصيدلي الذي لم يتم دراسة الصيدلة فأصبح موزعا لعينات الأدوية على عيادات الأطباء، يوزعها على فقراء الحي وأصدقاء الغرزة. وهو الذي قال له ذات مساء في إحدى ندوات الغرزة عند أبو الدهب تاجر المخدرات «ارسم ياواد.. إنت فنان». على طريقة اذهب أنت فارس. أما الشخصية الأخرى الهامة في الأسرة فهي من الجانب الآخر من ناحية الأم التي فقدها وهو رضيع، سمعان ابن خالته، الموظف البسيط في هيئة البريد.

المكان رطب، معبق برائحة طين الجبس الأبيض، رائحة أسمنت العمارات وجير الجدران. وسط زحام الأعمال النحتية المنقولة والمكررة بدون انتظام يجلس فلتس وكله شوق وبعض الخوف من التجربة. الرجل المفتول العضلات يضرب الحجر بينما يساعده عم حسن النوبي في فك القوالب وإخراج النسخة الطازجة من رأس كاراكالله وسقراط وفينوس.

يتذكر نصيحة كمال أمين لشقيقه جميل: أهم مادة في اختبار المواهب هي رسم تمثال جبس بإصبع الفحم، لذلك



فبدلا من أن يصدم في الامتحان لصعوبة استعمال المـواد.. سأسمح له بالتجربة قبل الامتحان.

يفتح كف يده، هذه المرة ليمسك بساق الفحم كريشـة أو كوتر كمان يتعلم منه العزف، لكنه وتر يلوث الأصـابع، ولوحة كمال أمين البيضاء.

يفتح رسالة سمعان الأخيرة، يقرأ للمرة الثانية الفقـرة ذاتها:

«ابن خالتي الحبيب وتوءمي. هل تذكر عندما كانـت تقول لك أمي، خالتك: أنت الخالق الناطق سمعان لما كنـت صغير..»

أزال أسود الفحم من أصابعه ومن الورقة بقطعة مـن قماش، وراح يدور حول موائد الطلاب الآخرين، يقف خلف أحدهم وقد حول طرف ساق الفحم إلى خطوط رفيعـة جـدا كما خيوط العنكبوت، شعر بإحباط أمامه، فقد أبدع في نقـل وترجمة كتلة رأس سقراط بصلعته وعينيه الممتلئتين ببريـق المعرفة لاحظ توقيع عبد الحليم البرجيني.

انحناءة اللوحة، للطالب الجالس، تعادل ما بين اعتدال جلسته ونظرته للتمثال الموضوع على قاعدة فـي الوسـط.

والطالب الذي يريد أن يرسم واقفا، تعتـدل اللوحـة علـى عمودين من الخشب طولهما متران تقريبا.

يقف خلف حامل الرسم طالب رفيـع رقيـق، برقبـة طويلة ورأس صغير لها أنف طويل مدبب وشـارب دقيـق، والفم يستند على غليون صغير يدخن قليلا ثم يرمي بخطوط سريعة على الورقة ملامح سقراط دون اكتـراث بالقواعـد الأكاديمية.. يمسح بيده بعض الخطوط فتتحول إلى ظـلال.. ثم يرمي خطوطًا أجمل بطرف ساق الفحم الرفيعة ثم يوقـع في أسفل الصفحة حسني عطية.

موهوب لا شك.. رغم أنه لم يكمل الرسم.. لم يعد في الأيام التالية إلى المرسم، فقد جلس في فنـاء الكليـة طيلـة الصباح يدخن ويشرب الشاي ويتحدث عـن فـن المسـرح وعميده يوسف وهبي ويفكر في تكوين فرقة مسـرحية مـع الطالب صاحب الصوت الجهوري رضا الكريمي. بجـواره طالب آخر يشبهه في ملامح الوجـه ذات الأنـف المـدبب والشارب الرقيق إلا أن الرأس مبطط قليلا وتسريحة شـعره مختلفة حيث يترك عرقًا من شعره أمام الجبهـة، ويختلـف جسمه عن الآخر. يعـرف فلـتس بعـد ذلـك أن جميـل

عبد المعطي الطالب النابه الذي يجلس في المقعد المجاور هو ابن عمته يحمل غالبا حقيبة ألوان خشبية أنيقة تلمـع بلـون النحاس الأحمر. لوحته بالفحم لسقراط بها دقة وعناية كأنـه أحد أساتذة الرسم، تناسق الظلال وبروز الجبهة والصلعة، ثم دقة خصلات الشعر واللحية.

في محاولة التعارف بين فلتس وعبد المعطي ضـحك قليلا وقال لفلتس: أنا محترف الرسم من سنوات طويلة أنـا صديق هدايات.. ملك الألوان المائية الأرمني هل تعرفـه.. إننا نرسم سويا منذ زمن طويل ولكني اختلفت معه، قلت له: لابد أن أعود إلى الدراسة الأكاديمية. لذلك أنا هنا معك.

ويختلف رءوف عبد المجيد في فهمه لرأس سـقراط، يضع السلويت بعصبية شديدة بمعنى تحديد الخط الذي يجمع الكتلة كلها ثم يضع درجتين من الفاتح والغامق بينهما فتبقـى رأس سقراط كأنها في غروب أو نهاية ضوء بلا تفاصيل.

يفتح كف يده من جديد لا يرى الأيقونة فلقـد كسـتها وغطتها حبات تراب الفحم والذرات السوداء. وانتشرت قطع الفروع القصيرة الصغيرة حوله في كل مكان. وهرس بقدمه مصادفة إحداها، أصبح المكان مزدحما بلطـع الفحـم. فـي

الأرض وعلى الجدار وفي جيبه وكف يده وعلى أهم شـيء وهو ورقة الرسم.

ويهبط الدرج محترف المخزن عم عبد السميع فيـراه على هذه الحال فيعطيه ورقة جديـدة مـن أحـد الأرفـف المتوارية.. ويبدأ فلتس من جديد. يأتي كمال أمين هادئا فـي دقة موعده يقول له لا بأس. عليك بالعودة غـدا.. الدراسـة ناقصة.. وأعاد ملاحظته.. لا تنس أن تعبر عن خامة الجبس الأبيض.. لا تكثر من الظلال الغامقة لأنها تصبح قريبة من وجه أفريقي أسود بدلا من رأس سقراط اليونانية.

اليوم يرسم تمثالاً نصفيا لرأس سقراط يسـأل نفسـه: لماذا لا يعطوننا موضوعا من تاريخ مصر بدلا من الإغريق والبطالسة والرومان! أين رأس أوزوريـس أو تمثـال رأس الملكة في رامسيوم طيبة وبروفيل إخنـاتون فـي المتحـف المصري، أو رأس بطليموس الثالث أو تمثال سـنب القـزم الجالس بجوار زوجته المحبـة ومعهمـا ولـدهما وبنتهمـا العاريان، أين رأس نفرتيتي في تل العمارنة وأمحتب الجالس وحتشبسوت بسحر عينيها، ونظراتها الثاقبة الأبدية. أين رأس رمسيس الثاني في أبو سمبل.

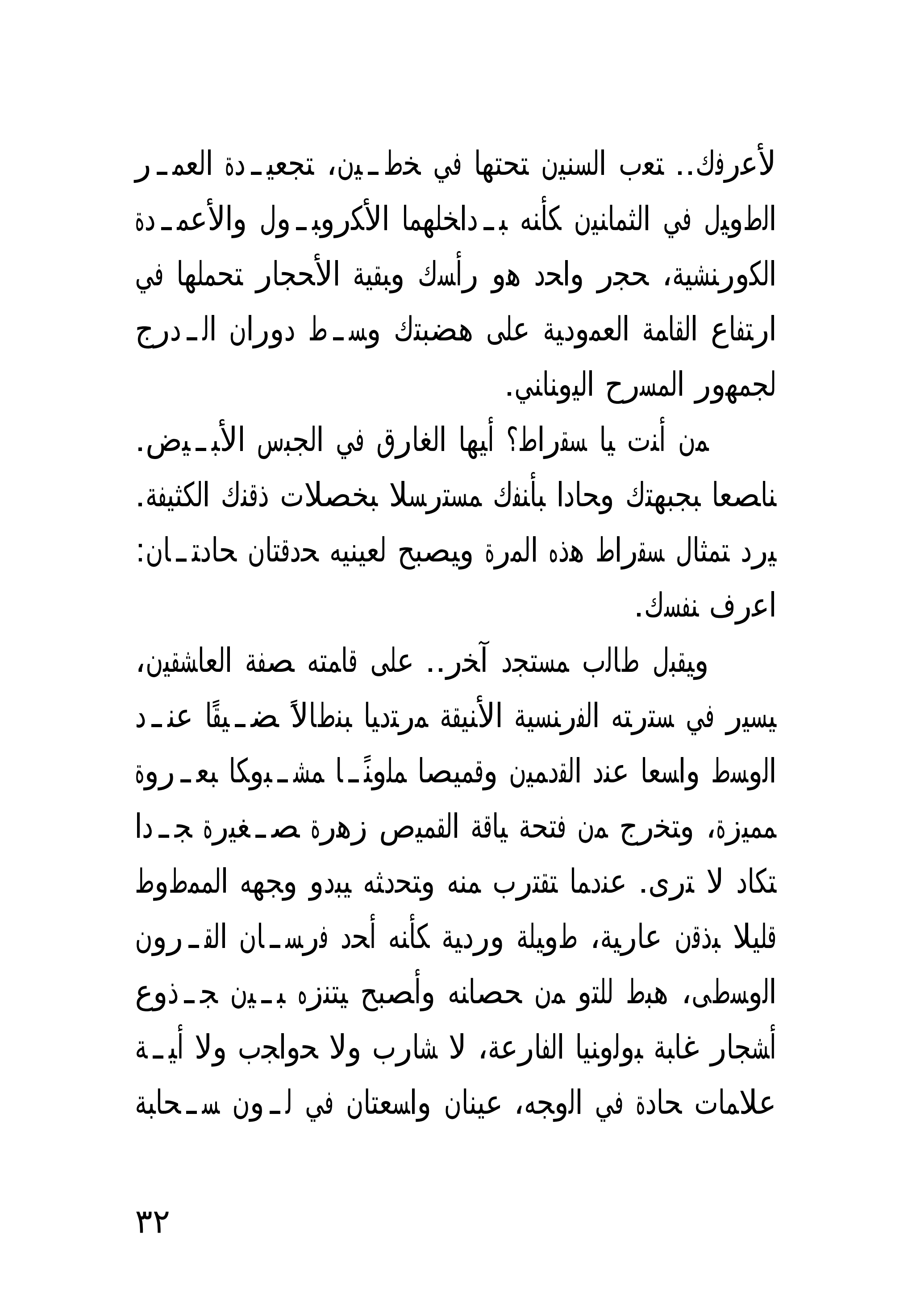
الطالب فلتس يريد أن يرسم العيون ذات النظرة الثاقبة وهذا غير موجود في التماثيل الإغريقية التي يرسمها، تراوده الفكرة، لكن أحد زملائه الجدد، ماجد بشارة، يقول: أنت لسه في مرحلة التحصيل.. المهم أن تنقل على الورقة مثلنا.

يجلس فلتس أمام تمثال إلهة الجمال فينـوس منبهـرا، كيف يضمها وهي بلا ذراعين.

يلتقي في اليوم التالي بزميل جديد يقول له: لا يهم على الإطلاق هذا الموضوع الذي يشغلك. غير مطلوب منك هذا. أنت تنقل الموضوع أمامك على الورقة كأي طالب يريـد أن يتعلم الرسم. غير مطلوب منك أن تفكر أو تدلي برأيك أثناء الرسم حتى الإحساس أو الشعور فهو مؤجل حتـى تنتهـي سنوات الدراسة بالكلية.

كيف أرسمك وأنت محكوم عليك بالموت سـما؟ إنـي أرتبك، أضع أصابعي الملوثة بالفحم في جيب بنطالي فيصبح كما هباب الفرن.. يختلط الأمر في رأسي ويصبح مثل جيبي الذي أمسح فيه أصابعي.

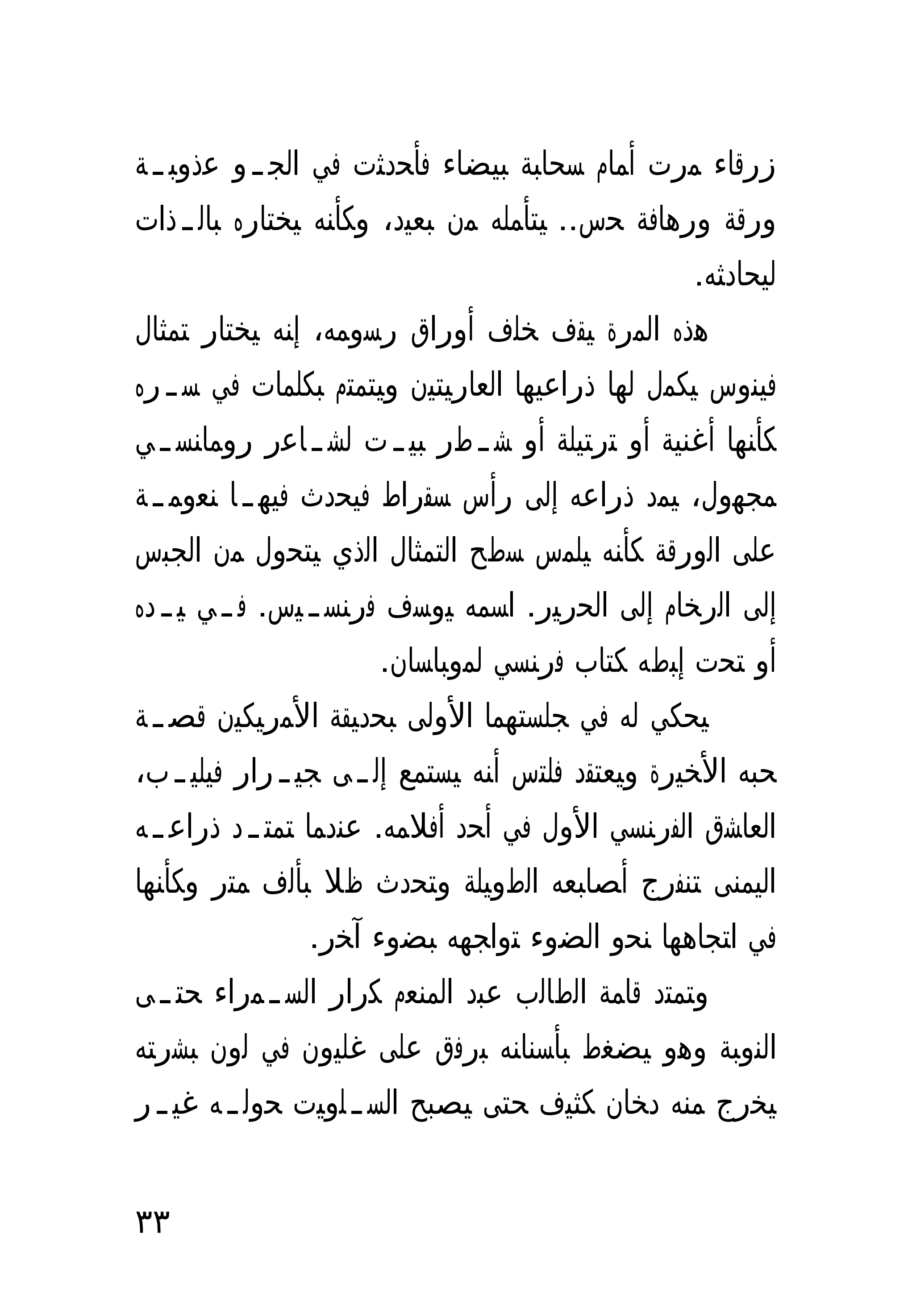
لماذا تبدو عيناك بلا حدقتين كأنك تـرى كـل شـيء أو أي شيء أو لا شئ. ترى وترفض أن ترى. أين نظرتـك



لأعرفك.. تعب السنين تحتها في خطـين، تجعيـدة العمـر الطويل في الثمانين كأنه بـداخلهما الأكروبـول والأعمـدة الكورنشية، حجر واحد هو رأسك وبقية الأحجار تحملها في ارتفاع القامة العمودية على هضبتك وسـط دوران الـدرج لجمهور المسرح اليوناني.

من أنت يا سقراط؟ أيها الغارق في الجبس الأبـيض. ناصعا بجبهتك وحادا بأنفك مسترسلا بخصلات ذقنك الكثيفة. يرد تمثال سقراط هذه المرة ويصبح لعينيه حدقتان حادتـان: اعرف نفسك.

ويقبل طالب مستجد آخر.. على قامته صفة العاشقين، يسير في سترته الفرنسية الأنيقة مرتديا بنطالاً ضـيقًا عنـد الوسط واسعا عند القدمين وقميصا ملونًـا مشـبوكا بعـروة مميزة، وتخرج من فتحة ياقة القميص زهرة صـغيرة جـدا تكاد لا ترى. عندما تقترب منه وتحدثه يبدو وجهه الممطوط قليلا بذقن عارية، طويلة وردية كأنه أحد فرسـان القـرون الوسطى، هبط للتو من حصانه وأصبح يتنزه بـين جـذوع أشجار غابة بولونيا الفارعة، لا شارب ولا حواجب ولا أيـة علامات حادة في الوجه، عينان واسعتان في لـون سـحابة



زرقاء مرت أمام سحابة بيضاء فأحدثت في الجـو عذوبـة ورقة ورهافة حس.. يتأمله من بعيد، وكأنه يختاره بالـذات ليحادثه.

هذه المرة يقف خلف أوراق رسومه، إنه يختار تمثال فينوس يكمل لها ذراعيها العاريتين ويتمتم بكلمات في سـره كأنها أغنية أو ترتيلة أو شـطر بيـت لشـاعر رومانسـي مجهول، يمد ذراعه إلى رأس سقراط فيحدث فيهـا نعومـة على الورقة كأنه يلمس سطح التمثال الذي يتحول من الجبس إلى الرخام إلى الحرير. اسمه يوسف فرنسـيس. فـي يـده أو تحت إبطه كتاب فرنسي لموباسان.

يحكي له في جلستهما الأولى بحديقة الأمريكين قصـة حبه الأخيرة ويعتقد فلتس أنه يستمع إلـى جيـرار فيليـب، العاشق الفرنسي الأول في أحد أفلامه. عندما تمتـد ذراعـه اليمنى تنفرج أصابعه الطويلة وتحدث ظلا بألف متر وكأنها في اتجاهها نحو الضوء تواجهه بضوء آخر.

وتمتد قامة الطالب عبد المنعم كرار السـمراء حتـى النوبة وهو يضغط بأسنانه برفق على غليون في لون بشرته يخرج منه دخان كثيف حتى يصبح السـماويت حولـه غيـر

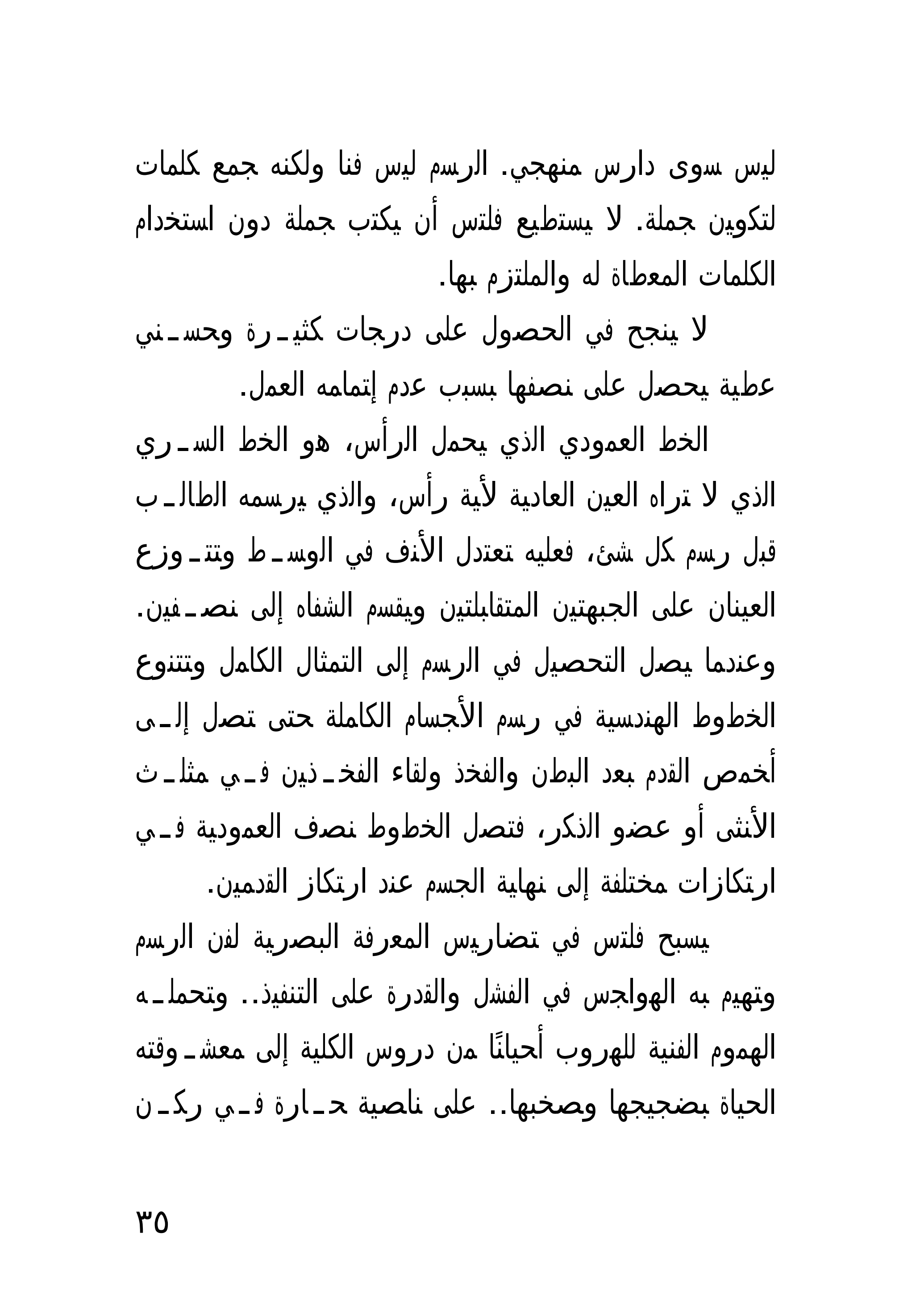
محدد. يضع نظرية في الرسم وهو يسجل ستراط على الورقة بقلم فحم معوج.

يذكر مقولة لبيكاسو: «ارسم ما تعرفه ولا ترسم ما تراه». ومقولة لهربرت ريد الناقد: «الفن البصري يعتمد على العقل قبل العين» فيندهش الجميع ويضحك النشار عبد الرحمن.

ويجلس ملخصا ملامح التمثال طالب له ارتكازة معينة في خطوته يضغط بقدميه على الأرض ويجلس بنفس الطريقة أمام التمثال، يحدده بخط رفيع دون ظلال، اسمه عبد الوهاب الجريدلي.

ويصبح الطالب الثائر ذو الشعر الأشعث المنكوش ونصف خطوته الشهيرة، بسبب بطء في نمو إحدى ساقيه منذ الطفولة، رساما للظلال في حركات رأسيه وخطوط تشق الورقة من أعلى إلى أسفل: مصطفى أحمد.

إلا أن فلتس يتلعثم، يهتز، يتقوقع. ينعزل لا يستطيع أن يشرح نفسه، ثمة هواجس كثيرة تدور في رأسه وأخرى خارجها موجودة في رأس التمثال ذاته، يريد أن يفتح قلبه مع الرسم ولكن نظام الدراسة له قوانين وقواعد. فطالب الفن


ليس سوى دارس منهجي. الرسم ليس فنا ولكنه جمع كلمات لتكوين جملة. لا يستطيع فلتس أن يكتب جملة دون استخدام الكلمات المعطاة له والملتزم بها.

لا ينجح في الحصول على درجات كثيـرة وحسـني عطية يحصل على نصفها بسبب عدم إتمامه العمل.

الخط العمودي الذي يحمل الرأس، هو الخط السـري الذي لا تراه العين العادية لأية رأس، والذي يرسمه الطالـب قبل رسم كل شئ، فعليه تعتدل الأنف في الوسـط وتتـوزع العينان على الجبهتين المتقابلتين ويقسم الشفاه إلى نصـفين. وعندما يصل التحصيل في الرسم إلى التمثال الكامل وتتنوع الخطوط الهندسية في رسم الأجسام الكاملة حتى تصل إلـى أخمص القدم بعد البطن والفخذ ولقاء الفخـذين فـي مثلـث الأنثى أو عضو الذكر، فتصل الخطوط نصف العمودية فـي ارتكازات مختلفة إلى نهاية الجسم عند ارتكاز القدمين.

يسبح فلتس في تضاريس المعرفة البصرية لفن الرسم وتهيم به الهواجس في الفشل والقدرة على التنفيذ.. وتحملـه الهموم الفنية للهروب أحيانًا من دروس الكلية إلى معشـوقته الحياة بضجيجها وصخبها.. على ناصية حـارة فـي ركـن

مقهى يرسم الحركة الخاطفة من النادل الذي تسـبقه حركـة صينية القهوة مع كوب الماء، إلى قدمي صبي يجري خلـف طوق في فناء الكلية.

كلية الفنون كما يراها فلتس لأول مرة، مبـان ثلاثـة أحدها حجرات أرضية للنحت ومبنى خشبي بطابق واحد، له ممر وشرفة طويلة خلف منزل الدكتور طه حسين، قالوا إنه مخصص لمدرجات التشريح ومراسم الحفر والقسـم الحـر الذي يبدأ نظامه هذا العام فقط.. أما المبنى الرئيسـي ففيـه الإدارة وغرفة العميد والمكتبة وقاعات العمارة في الطـابق الأرضي، أما الثاني والثالث فهما لطلبة القسم النظامي للرسم بالفحم للسنة الإعدادية وللأربعة سـنوات التاليـة فـي فـن التصوير الزيتي، وثمة مبان على أرض تقع علـى الشـارع ذاته مختصرة من حديقة الباشا عبود.

تبقى مساحات الفناء واسعة تمتلئ بالطلبـة والمقاعـد والموديلات والفراشين والأساتذة، أما مخزن التماثيل. المكان الذي شهد بداية تجربته فهو في بدروم تحت درج صغير.

تتردد بداخله كلمات رسالته لجميل في بنسلفانيا:

«أخي العزيز، قررت أن أكتب لك من تحت شجرة الجوافة، مكاني المفضل منذ طفولتنا في حديقة العمة بحدائق القبة، عندما كنا نتذوقها ونأكل بذرها الأحمر اللذيذ الطعم، وهي الشجرة العالية التي تظل الشرفة المسائية خلف البيت. نرجس تدخل، تحمل القلتين، تضعهما على رف من الخشب المبلول دائما ما بين مفترق الساقين الكبيرتين كأنهما فرعا الدلتا (وهي دعابتي القديمة) في إحدى أمسيات الغروب قبل حلول الظلام. وراعوث بقدها الجميل المكتنز عند الوسط، عالي الصدر عريض الكتفين، والعم عطا ا   في تكويمته في الركن المفضل له.

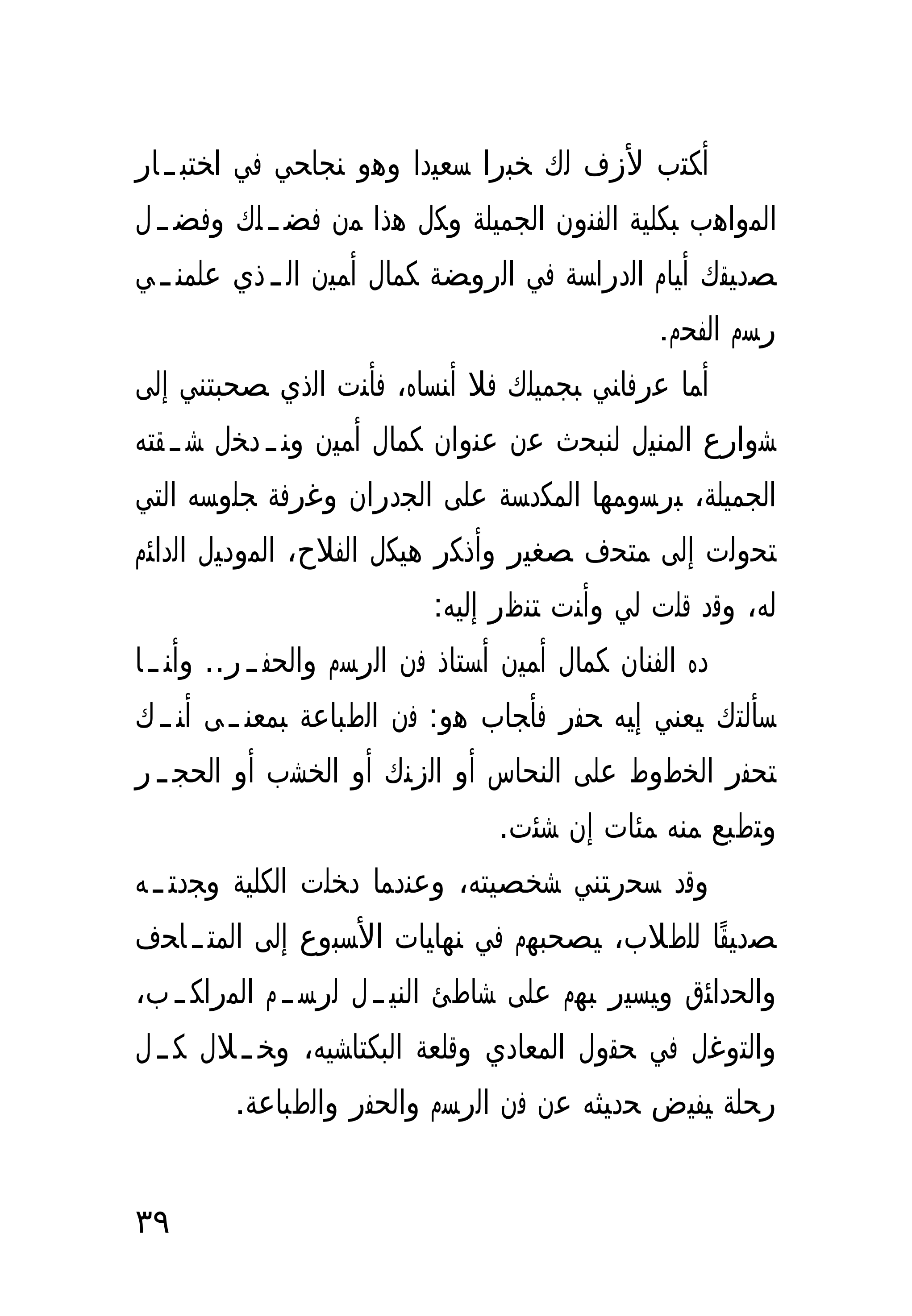
أخي جميل، بعيد أنت عن الوطن، أردت أن أسعدك بدخولي كلية الفنون وثقتي الآن تزداد مع الفن والموهبة التي تنبأ بها سمعان ابن خالتنا منذ سنوات بعيدة. رسالتي لك من تحت شجرة الجوافة مجرد وضع نقاط على حروف أنت كتبتها للعائلة.

كنت تشكو من فكرة الأخ الأكبر المسئول دائما عن إخوته الصغار ولكنك قمت بالواجب خير قيام، نحن العشرة، تذكر الوالد حين كان يوزع علينا عندما كبرنا أقلاما حمراء

لنصحح معه كراسات التلاميذ، وكانت أفضلنا هي إيدث بمهارتها وذكائها وإدراكها السريع في اللغة الإنجليزية. وقد أخطأت أنا على ما أذكر في التصحيح بالخطأ فأصبح في كراسة التلميذ تصحيحان مرتين بالأحمر.

وابن العمة صديق الطفولة سعد، زميل غرفة أيام المذاكرة، وزوجته الطبيبة لوريس (لوسي) التي تزوجها عن طريق صورة مع الخاطبة التي تتولى ما بين كنائس شبرا وكنائس حدائق القبة.. ومعهما الآن الطفلان إيهاب وسامح وهي حامل في انتظار مولود ربما ذكر ليكون اسمه سامح فقد اكتشفوا جهازا لمعرفة نوع الجنين ولكن الكنيسة تقول إنها مباركة الرب وهبوط الملاك على لوريس.

بدأ أزرق السماء يميل إلى البنفسج وظهر القمر الذي أكتب الآن على نوره رغم اللمبة الكبيرة التي تضئ الآن في سقف الشرفة. ويسقط الليل كخيوط شفافة تغلف الجميع، كستائر ونسائج ونسائم أكثر عذوبة مع عطر الجوافة ولا زلت كما في طفولتنا أنتظر سقوط إحدى حباتها حتى ولو على رأسي.



أكتب لأزف لك خبرا سعيدا وهو نجاحي في اختبار المواهب بكلية الفنون الجميلة وكل هذا من فضلك وفضل صديقك أيام الدراسة في الروضة كمال أمين الذي علمني رسم الفحم.

أما عرفاني بجميلك فلا أنساه، فأنت الذي صحبتني إلى شوارع المنيل لنبحث عن عنوان كمال أمين وندخل شقته الجميلة، برسومها المكدسة على الجدران وغرفة جلوسه التي تحولت إلى متحف صغير وأذكر هيكل الفلاح، الموديل الدائم له، وقد قلت لي وأنت تنظر إليه:

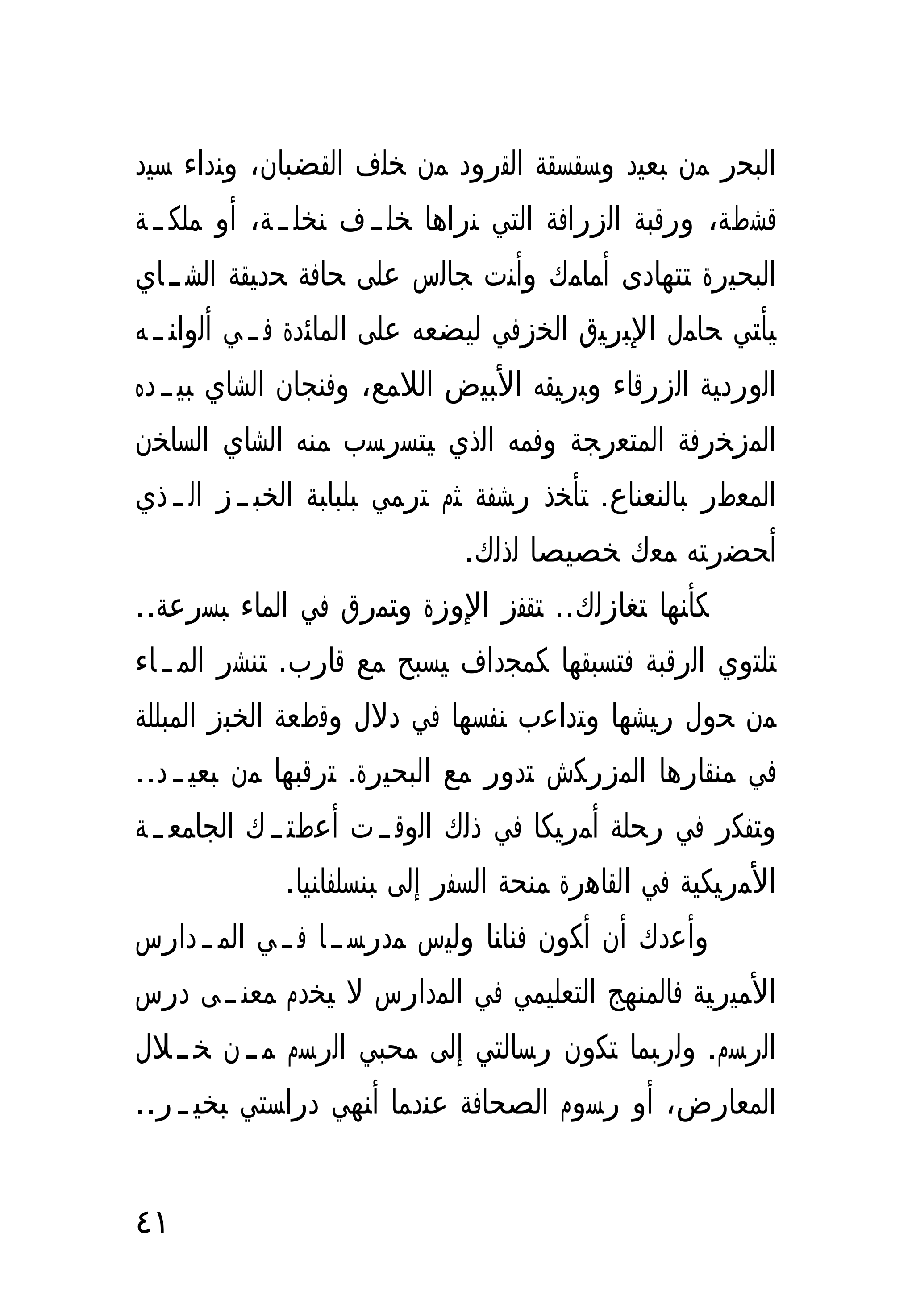
ده الفنان كمال أمين أستاذ فن الرسم والحفر.. وأنا سألتك يعني إيه حفر فأجاب هو: فن الطباعة بمعنى أنك تحفر الخطوط على النحاس أو الزنك أو الخشب أو الحجر وتطبع منه مئات إن شئت.

وقد سحرتني شخصيته، وعندما دخلت الكلية وجدته صديقًا للطلاب، يصحبهم في نهايات الأسبوع إلى المتاحف والحدائق ويسير بهم على شاطئ النيل لرسم المراكب، والتوغل في حقول المعادي وقلعة البكتاشيه، وخلال كل رحلة يفيض حديثه عن فن الرسم والحفر والطباعة.

لقد أخرجتني من أزمة عنق الزجاجة في نهاية الدراسة الثانوية وقلت لي.. كمال أمين هو اللي حياخدك كلية الفنون الجميلة وبلاش كلية الطب اللي وجعت قلبك بيها وأصـبحت تتحسر على نفسك بسبب زملائك الذين سبقوك بتفوق إليهـا أمثال عدلي فريد وشـكري عـازر ولطفـي بسـطا ورزق عبد المسيح وممتاز توفيف ونزيه رزق.

حتى شقيقتنا الحبيبة جورجيت التي حاولت الاحتجـاج على عريس نموذجي جاءت به خالاتي بحسن نية: (أم فوزي وأم سليمان) أرسلت إليها بطريقتك السحرية البسيطة، تلميذك الفارس العملاق منير توفيق الطيار بسترته المزينة بنياشـين حمراء وخضراء وزرقاء..

متى تعود ولو في زيارة قصيرة لنذهب سـويا إلـى جزيرة الشاي الجميلة بحديقة حيوان الجيزة ونرمي – كمـا كنت تفعل – لباب الخبز إلى الإوزة التي تسـير كعـروس بهامتها العالية تتفاخر علـى بقيـة الـبط والإوز الصـغير، والعصافير في الخمائل المجاورة تحاورها وتـدور حولهـا أحيانا كأنها تعرفها وتتقرب إليها.. تموج وسط الماء العـذب الذي يتدفق من مجرى قريب، نسمع خرير الماء ونباح كلاب


البحر من بعيد وسقسقة القرود من خلف القضبان، ونداء سيد قشطة، ورقبة الزرافة التي نراها خلف نخلة، أو ملكة البحيرة تتهادى أمامك وأنت جالس على حافة حديقة الشاي يأتي حامل الإبريق الخزفي ليضعه على المائدة في ألوانه الوردية الزرقاء وبريقه الأبيض اللامع، وفنجان الشاي بيده المزخرفة المتعرجة وفمه الذي يتسرسب منه الشاي الساخن المعطر بالنعناع. تأخذ رشفة ثم ترمي بلبابة الخبز الذي أحضرته معك خصيصا لذلك.

كأنها تغازلك.. تقفز الإوزة وتمرق في الماء بسرعة.. تلتوي الرقبة فتسبقها كمجداف يسبح مع قارب. تنشر الماء من حول ريشها وتداعب نفسها في دلال وقطعة الخبز المبللة في منقارها المزركش تدور مع البحيرة. ترقبها من بعيد.. وتفكر في رحلة أمريكا في ذلك الوقت أعطتك الجامعة الأمريكية في القاهرة منحة السفر إلى بنسلفانيا.

وأعدك أن أكون فنانا وليس مدرسا في المدارس الأميرية فالمنهج التعليمي في المدارس لا يخدم معنى درس الرسم. ولربما تكون رسالتي إلى محبي الرسم من خلال المعارض، أو رسوم الصحافة عندما أنهي دراستي بخير..

مشكلتي الأولى الآن هي درس الفحم.. لا أفهم لماذا يدرسون لنا هذه المادة.. أفضل القلم الرصاص أو الحبـر أو أصـابع الطباشير..

أخي العزيز

المهم أني رأيت من جديد الأيقونة في كف اليد.. التي تعني لي الكثير.. أيقونة الفن.. وتشعرني بـأني موهـوب. فشكرا لظهورها في كفي من جديد وشكرا لك».

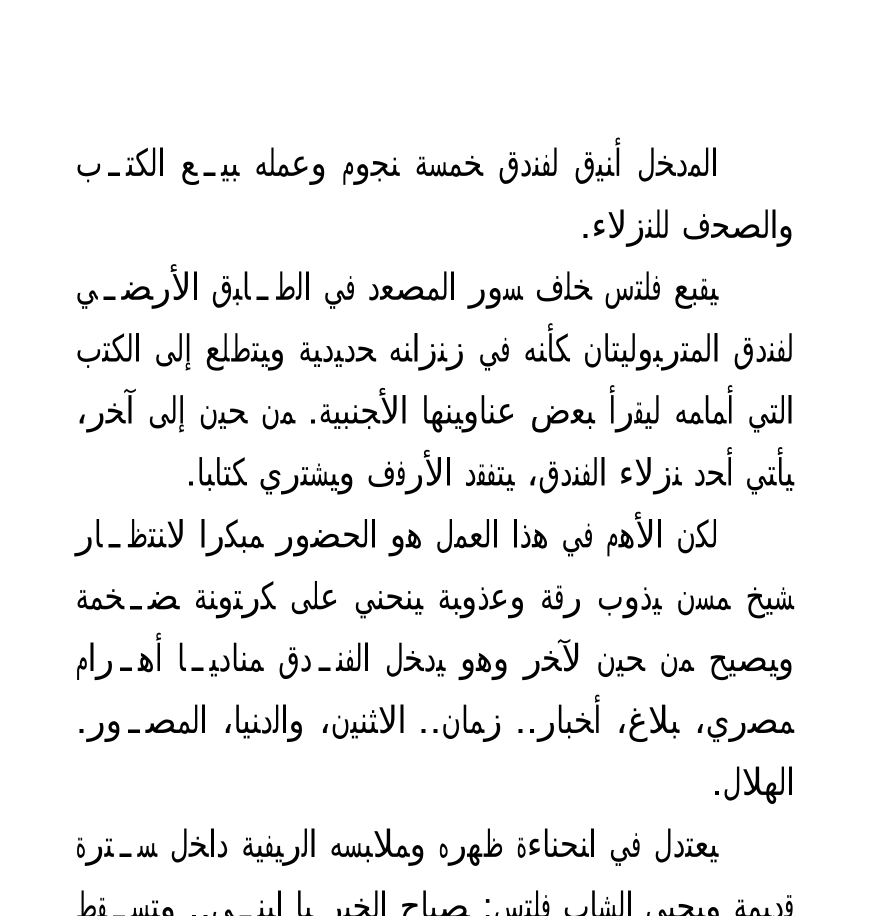
فلتس

شاليه العدس – الزمالك

بعد أسابيع من الانتظار يأخذ حنا أخاه فلتس من يـده إلى تاجر الكتب اليهودي في عماد الدين، اسـتقباله وكأنـه كشف هيئة.. نادى مساعده اليهودي الآخر واسمه «روبـي» فأخذهما ومعهما الصديق الثالث إلى مكتبه وحدد لهما شروط ومواعيد العمل وأعطاهم أسماء وعناوين الفنـادق الثلاثـة. شبرد وسميراميس والمتروبوليتان.. ثماني ساعات كل يـوم ما عدا الأحد.

قرر حنا وفلتس أن يدرس كل منهما أثناء وقت الفراغ في انتظار الزبائن.. أن يهيئ حنا نفسه للجامعة الأمريكيـة بعد نهاية الدراسة الثانوية وأن يهيئ فلتس نفسـه للاعتمـاد على نفسه كما نصحه أبوه بعد دخوله كلية الفنون الجميلة.

الثامنة صباحا يقفز الدرج الأنيق المغطـى بالسـجاد الإيراني الوثير وحوله من الجانبين زخـارف بـلاط مـن الخزف الغرناطي المزركش. يدخل البهو الفخم، يصافح من بعيد رئيس الاستقبال الأقرع.. يمرق بسرعة وكأنه يخشى أن يرى أحدهم رقعة حذائه أو بنطاله أو ثقب الجـورب داخـل الحذاء.



المدخل أنيق لفندق خمسة نجوم وعمله بيـع الكتـب والصحف للنزلاء.

يقبع فلتس خلف سور المصعد في الطـابق الأرضـي لفندق المتربوليتان كأنه في زنزانه حديدية ويتطلع إلى الكتب التي أمامه ليقرأ بعض عناوينها الأجنبية. من حين إلى آخر، يأتي أحد نزلاء الفندق، يتفقد الأرفف ويشتري كتابا.

لكن الأهم في هذا العمل هو الحضور مبكرا لانتظـار شيخ مسن يذوب رقة وعذوبة ينحني على كرتونة ضـخمة ويصيح من حين لآخر وهو يدخل الفنـدق مناديـا أهـرام مصري، بلاغ، أخبار.. زمان.. الاثنين، والدنيا، المصـور. الهلال.

يعتدل في انحناءة ظهره وملابسه الريفية داخل سـترة قديمة ويحيي الشاب فلتس: صباح الخير يا ابنـي.. وتسـقط منه، قبل أن يرد فلتس، نقطه عرق يمسحها بجلبابه.

- صباح الخير يا عم مدبولي، يسـحب مـن الملـف الضخم الكثير من الصحف ويقول.

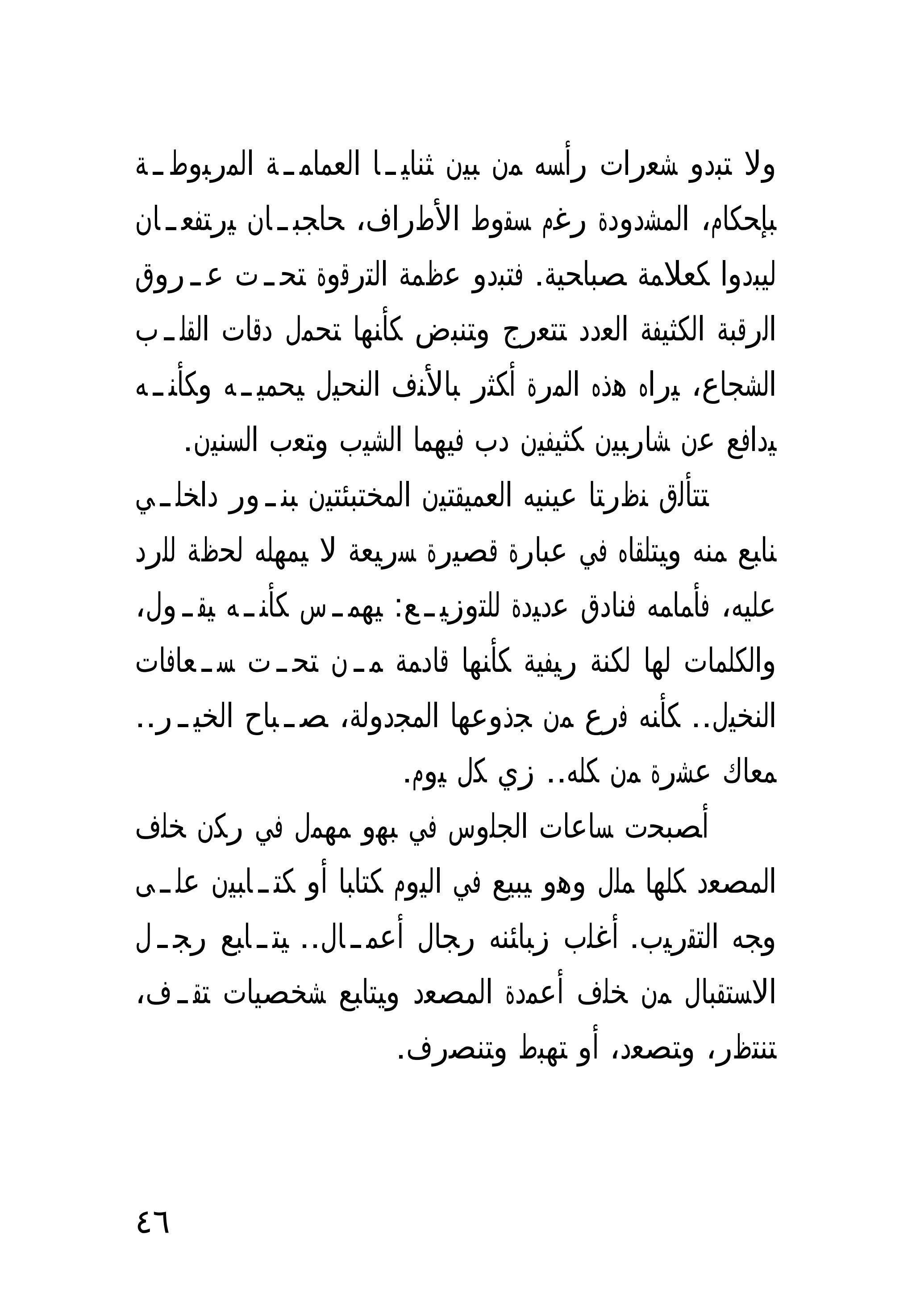
- معاك عشرة أهرام وعشرة مصري وخمسة الاثنـين والدنيا وعشـرة جورنـال دي إجيبـت وجازيـت.

وينصرف.

عندما يتأخر فلتس عن الثامنة صباحا يجد الصحف في انتظاره على دكة قديمة يستعملها أحيانا للجلوس خلف سـور قضبان المصعد وعليها أحيانا بعض القروش ثمن ما بيـع.. في المساء يمر عم مدبولي يأخـذ المرتجـع مـن الجرائـد والمجلات ويقبض ثمن ما بيع بعد حساب النسبة ومـا إلـى ذلك. في بعض الأحيان يرسل ابنه الصغير محمد ليقوم بذات المهمة.

في نهاية الشهر يأتي روبي ويفـتح فلـتس الخزانـة ليحاسبه.. روبي يطلب في نهاية كل شـهر مراجعـة عـدد الكتب الموجودة على الأرفف ويتأكد من أن عـددها يوافـق العدد الباقي بعد البيع.

يرى كل يوم عم مدبولي العجوز مـن خلـف ثنايـا الملابس والمعطف والعمامة الملفوفة الساقط طرفهـا حـول أذنيه وفوق جبهته وعلى خديه. تبرز عظمة الوجنة، ويرتفع حاجباه قليلاً فتشتد الخطوط فوقها علـى جمجمـة الـرأس،



ولا تبدو شعرات رأسه من بين ثنايا العمامة المربوطة بإحكام، المشدودة رغم سقوط الأطراف، حاجبان يرتفعان ليبدوا كعلامة صباحية. فتبدو عظمة الترقوة تحت عروق الرقبة الكثيفة العدد تتعرج وتنبض كأنها تحمل دقات القلب الشجاع، يراه هذه المرة أكثر بالأنف النحيل يحميه وكأنه يدافع عن شاربين كثيفين دب فيهما الشيب وتعب السنين.

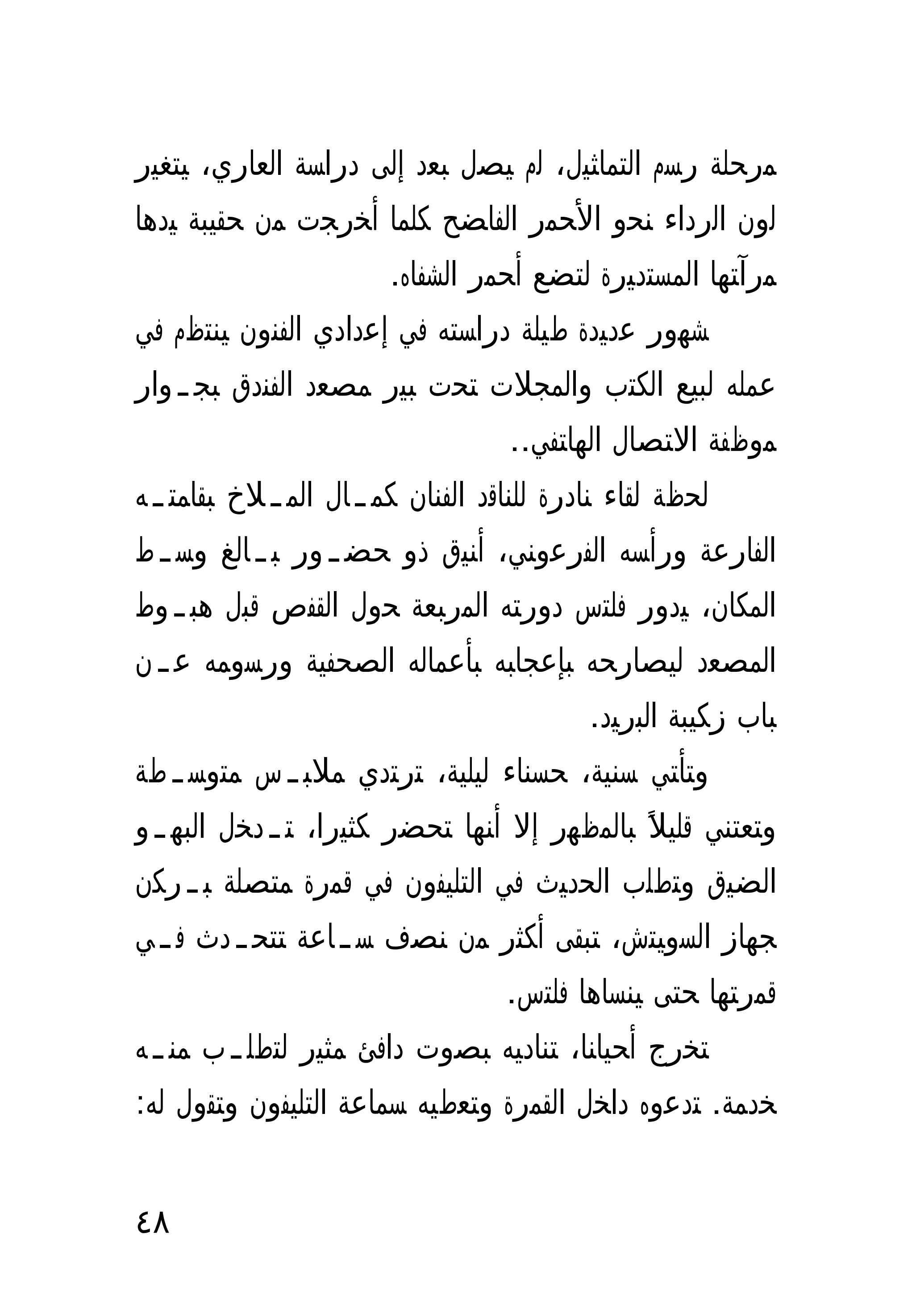
تتألق نظرتا عينيه العميقتين المختبئتين بنور داخلي نابع منه ويتلقاه في عبارة قصيرة سريعة لا يمهله لحظة للرد عليه، فأمامه فنادق عديدة للتوزيع: يهمس كأنه يقول، والكلمات لها لكنة ريفية كأنها قادمة من تحت سعافات النخيل.. كأنه فرع من جذوعها المجدولة، صباح الخير.. معاك عشرة من كله.. زي كل يوم.

أصبحت ساعات الجلوس في بهو مهمل في ركن خلف المصعد كلها ملل وهو يبيع في اليوم كتابا أو كتابين على وجه التقريب. أغلب زبائنه رجال أعمال.. يتابع رجل الاستقبال من خلف أعمدة المصعد ويتابع شخصيات تقف، تنتظر، وتصعد، أو تهبط وتنصرف.

يتسلى بالرسم. يرسم الرسوم التوضيحية الموجودة في الكتب ويحورها على طريقته الخاصة وتبقى أمامه سيدة جالسة في الركن المقابل في مربع صغير مع خطوط التلفون، والسيدة الجالسة ساقا على ساق أو ساقا على فخذ أحيانا، ترد على مكالمات الغرف وتوصل الغرفة بالغرفة والغرفة بالاستقبال أو المطعم أو أي طلب خارجي.

هكذا يلتقي كل يوم ظهرا مع مدام ماريا اليونانية الأصل موظفة التلفون. يجلس ثماني ساعات تحت ساقيها، فقد كان موقع التلفون مرتفعا درجة من الخشب، وتبقى قدماه فوق البلاط البارد شتاء والدافئ صيفا تدور بينهما حوارات صغيرة رقيقة، تخاطب طفلتها في البيت أغلب الوقت وزوجها أحيانا ولا تلتفت إلى فكرة إثارته بسيقانها نصف العارية.

يدق الجرس، تنحني مدام ماريا قليلا إلى الأمام لتقوم بالرد بلغاتها العديدة من الإنجليزية إلى الفرنسية إلى اليونانية والإيطالية. كل لحظة تتحرك فيها مع الجرس ينزلق قماش صوف الرداء أو القطن أو الساتان فيتأمل تفاصيل الجزء الذي يتعرى أمامه، يحاول رسمها بصعوبة لأنه لا يزال في



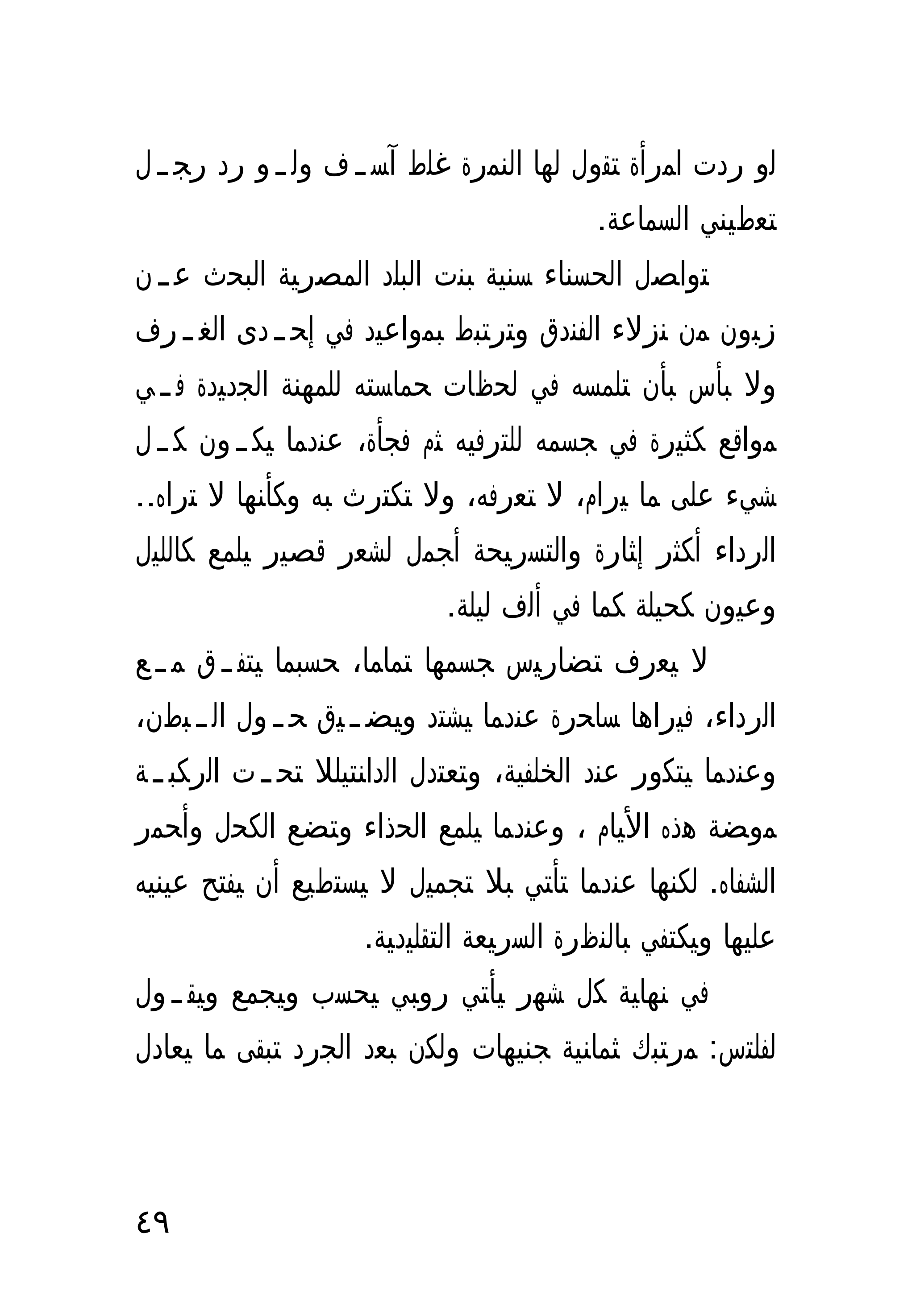
مرحلة رسم التماثيل، لم يصل بعد إلى دراسة العاري، يتغير لون الرداء نحو الأحمر الفاضح كلما أخرجت من حقيبة يدها مرآتها المستديرة لتضع أحمر الشفاه.

شهور عديدة طيلة دراسته في إعدادي الفنون ينتظم في عمله لبيع الكتب والمجلات تحت بير مصعد الفندق بجـوار موظفة الاتصال الهاتفي..

لحظة لقاء نادرة للناقد الفنان كمـال المـلاخ بقامتـه الفارعة ورأسه الفرعوني، أنيق ذو حضـور بـالغ وسـط المكان، يدور فلتس دورته المربعة حول القفص قبل هبـوط المصعد ليصارحه بإعجابه بأعماله الصحفية ورسومه عـن باب زكيبة البريد.

وتأتي سنية، حسناء ليلية، ترتدي ملابـس متوسـطة وتعتني قليلاً بالمظهر إلا أنها تحضر كثيرا، تـدخل البهـو الضيق وتطلب الحديث في التليفون في قمرة متصلة بـركن جهاز السويتش، تبقى أكثر من نصف سـاعة تتحـدث فـي قمرتها حتى ينساها فلتس.

تخرج أحيانا، تناديه بصوت دافئ مثير لتطلـب منـه خدمة. تدعوه داخل القمرة وتعطيه سماعة التليفون وتقول له:



لو ردت امرأة تقول لها النمرة غلط آسف ولو رد رجل تعطيني السماعة.

تواصل الحسناء سنية بنت البلد المصرية البحث عن زبون من نزلاء الفندق وترتبط بمواعيد في إحدى الغرف ولا بأس بأن تلمسه في لحظات حماسته للمهنة الجديدة في مواقع كثيرة في جسمه للترفيه ثم فجأة، عندما يكون كل شيء على ما يرام، لا تعرفه، ولا تكترث به وكأنها لا تراه.. الرداء أكثر إثارة والتسريحة أجمل لشعر قصير يلمع كالليل وعيون كحيلة كما في ألف ليلة.

لا يعرف تضاريس جسمها تماما، حسبما يتفق مع الرداء، فيراها ساحرة عندما يشتد ويضيق حول البطن، وعندما يتكور عند الخلفية، وتعتدل الدانتيللا تحت الركبة موضة هذه الأيام ، وعندما يلمع الحذاء وتضع الكحل وأحمر الشفاه. لكنها عندما تأتي بلا تجميل لا يستطيع أن يفتح عينيه عليها ويكتفي بالنظرة السريعة التقليدية.

في نهاية كل شهر يأتي روبي يحسب ويجمع ويقول لفلتس: مرتبك ثمانية جنيهات ولكن بعد الجرد تبقى ما يعادل

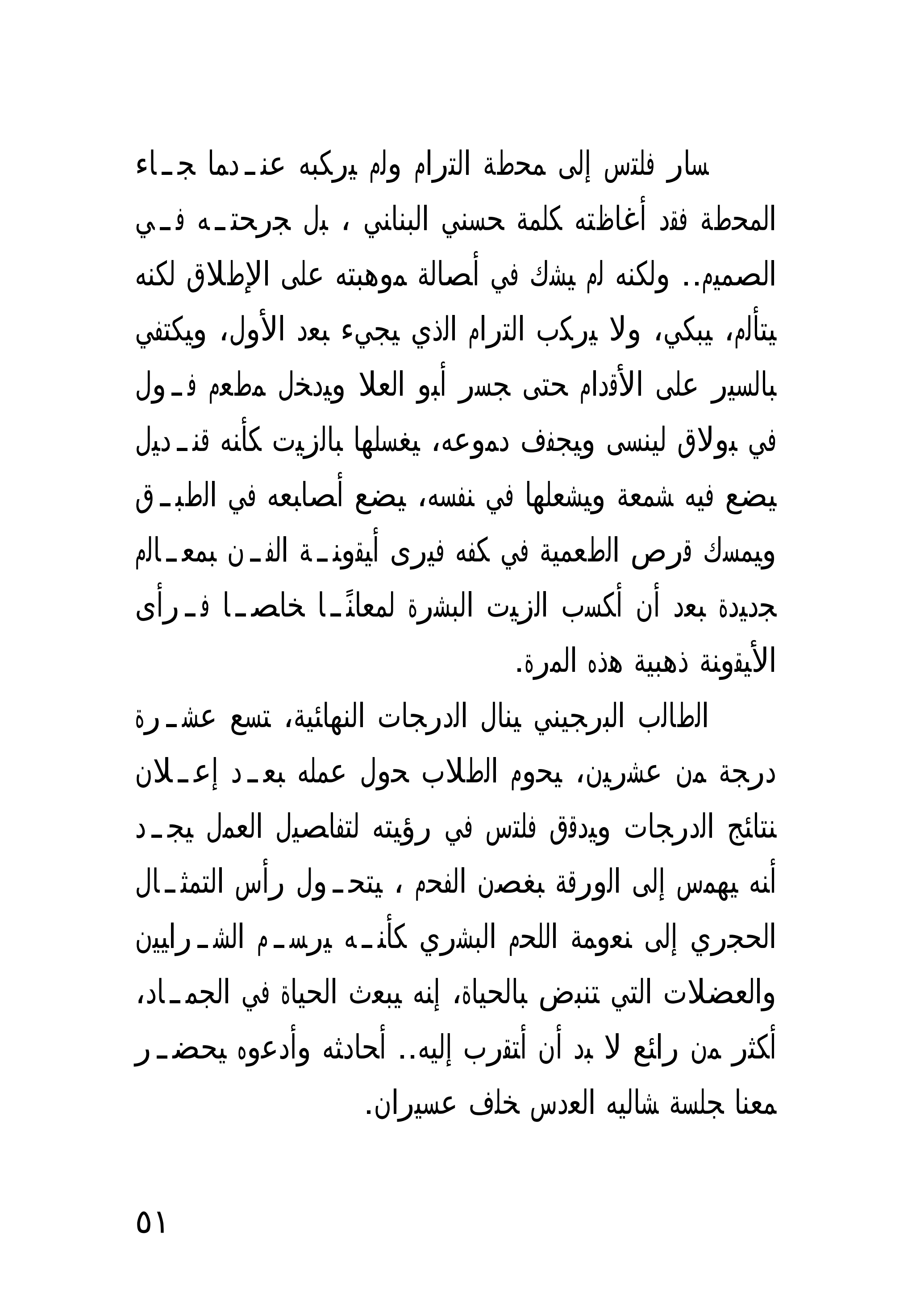
ستة جنيهات ونصف ناقصة نخصمها من مرتبك فيبقى لـك جنيه ونصف.

***

يسأل الطالب فلتس زميل دفعته فؤاد عزيـز: لمـاذا يعلموننا درس الفحم؟ فيرد ساخرا ورافضا: لأنها تعاليم فنون جميلة روما وبـاريس. كمـا أن درجـات الظـل والنـور لا يستطيع الطالب أن يعرفها سوى بتراب الفحم وهو الدرس الذي يسبق استعمال بالتة الألوان الزيتية.

يفشل فلتس في دروس الفحم، ينقبض صـدره ويفقـد الثقة في نفسه، يأتي أستاذه حسني البناني ومعه درجات رسم التمثال بالفحم في السنة الأولى، ينال جميل عبـد المعطـي النمرة النهائية وكذلك عبد الحليم البرجيني أما هو فيحصـل على ست فقط من عشرين.

انغلق زوره وجف لعابه ولم يستطع أن يجد صـوته. سأل أستاذه بغيظ لماذا أعطيتني هذه النمرة؟ لم يبال الأسـتاذ ولكن رد صدفة بطريقته التي بـين المـزح والجـد قـائلا: أعمل لك إيه؟.. الرسم ده موهبة.



سار فلتس إلى محطة الترام ولم يركبه عنـدما جـاء المحطة فقد أغاظته كلمة حسني البناني ، بل جرحتـه فـي الصميم.. ولكنه لم يشك في أصالة موهبته على الإطلاق لكنه يتألم، يبكي، ولا يركب الترام الذي يجيء بعد الأول، ويكتفي بالسير على الأقدام حتى جسر أبو العلا ويدخل مطعم فـول في بولاق لينسى ويجفف دموعه، يغسلها بالزيت كأنه قنـديل يضع فيه شمعة ويشعلها في نفسه، يضع أصابعه في الطبـق ويمسك قرص الطعمية في كفه فيرى أيقونـة الفـن بمعـالم جديدة بعد أن أكسب الزيت البشرة لمعانًـا خاصـا فـرأى الأيقونة ذهبية هذه المرة.

الطالب البرجيني ينال الدرجات النهائية، تسع عشـرة درجة من عشرين، يحوم الطلاب حول عمله بعـد إعـلان نتائج الدرجات ويدقق فلتس في رؤيته لتفاصيل العمل يجـد أنه يهمس إلى الورقة بغصن الفحم ، يتحـول رأس التمثـال الحجري إلى نعومة اللحم البشري كأنـه يرسـم الشـرايين والعضلات التي تنبض بالحياة، إنه يبعث الحياة في الجمـاد، أكثر من رائع لا بد أن أتقرب إليه.. أحادثه وأدعوه يحضـر معنا جلسة شاليه العدس خاف عسيران.

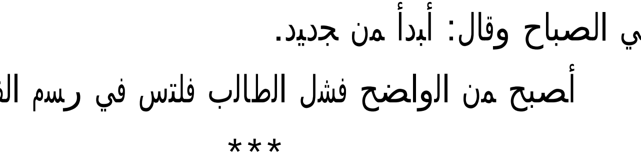
في تلك الظهيرة استعرض ألعابا أكروباتية في الخـط ومعمارية فن الظلال، التف زملاء دفعته حولـه يسـتمتعون بطريقته وسحرها، يرسم جالسة، ويرسـم جالسـا، ويرسـم نائمة، ويرسم نائما في سهولة وظلال قليلة. وتـأتي سـهام السمراء لتشترك في الحديث، يستمتع فلتس بصحبته وحديثه عن رسم الفحم ، الدرس الذي لا يعيه ولا يفهمه فلتس.

الطريق في شوارع الزمالك إلى محطة الترام طويـل طويل، وفلتس يجرر قديمه كما سلحفاة عجوز أنهكها العمـر وهو في زهرة الشباب، وكلمات أستاذه العابرة بـلا عمـق، تدخل العفار إلى عقله وتوقف نبض الدم في قلبه، وأشـجار الزهور الحمراء تسقط على رأسه عند محطة الترام، وبنطاله يتساقط قليلا قليلا. عرقه يتصبب كما طفـل يتبـول داخـل سرواله.

دموع فلتس أغزر من عرقه والترام القادم يزأر لأول مرة، وصعود الدرج إلـى المقعـد صـعب، إلا أن جـرس الأسلاك وجريان القاطرة جعله يهدأ.

عندما عاد إلى غرفته المثلثة في حدائق القبة. كأنهـا فضلة من رسم مهندس معماري، ليس لها جدار رابع، ضحك

في أعماقه وقال لنفسه كيف أصل إلى الدرجات العالية وينقصني جدار، عندما نام أغلق عينيه بوسادته، ثم استيقظ في الصباح وقال: أبدأ من جديد.



أصبح من الواضح فشل الطالب فلتس في رسم الفحم.

***

فناء كلية الفنون الجميلة تراب ورمل وطين وحجارة وجبس وعطر ياسمين قادم مع ريح خفيفة من وراء السور قصر الباشا المجاور. فناء كبير يسع الطلاب الألف الذين يقفون حول نقطة يخطب فيها أحدهم عن أذناب الاستعمار وحريق القاهرة وفساد القصر الملكي. يعلو الهتاف من أجل الحرية والديمقراطية والاستقلال والجلاء. تتجمع الأصوات مع القلوب مع الأجساد وتصبح كأنها متاريس وأذرع فئوس وبنادق مغروسة في أرض الفناء. ويهتف معهم فلتس بصوت مبحوح.

الرسام الفرنسي بيير مارتان، الوحيد الباقي من طقم التدريس الأجنبي، يسير أمام طلبته وهو يتحدث بكلمات متكسرة بما يشبه اللغة العربية، يختلط لونا الذهب والفضة في لحيته الصغيرة وشاربه المفتول. كهل طيب يذوب رقة

ودماثة وحبا للفن والفنانين، يعشقه تلاميذه النابهون مثل شهده وندا والجزار وسعد الجرجاوي. لوحاته تكملة لفناني الحركة التأثيرية في باريس، يعرضها أكثر من مرة في قاعة وسـط البلد خلف هانو قصر النيل اسمها الأتيلية الذي أنشأه محمـد ناجي.

يهتف الجريدلي وسعيد عارف وسـامي ومصـطفى وميشيل بقطر... ويتجمـع حـولهم الطـلاب مـن جميـع الفصول.. ويخرج الطالب صبحي قليني من مخزن الطـين للنحت حاملا في يديه قطعا من الطين بلون الطمي ليقذف به من حوله فيلتصق بجدران الكلية وتنتابه حالة من العصـبية وهو يهتف ويلقي بقطع الطين حتى تنفد جميعهـا ويصـبح شكلها على الحائط والزجاج مضحكا للغاية فيجـري خلفـه صديق الطلبة ضابط إيقاع الكلية «لطيف نسـيم» ليحتضـنه ويأمره بالكف عن هذا العبث.

أثناء عبورهم اليومي كوبري أبو العلا ومثلثات الحديد فوق الرءوس يهمس الجريدلي في أذن فلتس بأخبار خلايـا شيوعية سرية. وأنه أحد المنتظمين فيها ويطلب مـن رءوف وبقطر وفلتس الكتمان.

إلا أن الطالب رءوف يقفز حوله ضاحكا فوق سـور الجسر الأثري ويقبله في شفتيه مازحا فيضـحك الجميـع.. يدخلون أحد المطاعم الصغيرة التي تقلي الطعمية والباذنجان وتصبح وجبة شهية، ويتزاوج حديث السياسة وحديث الفـن. يفكر فلتس في نمو إدراكه حول هذه العلاقة.. هل يسـتطيع أن يجعل للرسم دورا سياسيا؟

يتوقف الجميع أمام الدرس الأخيـر (وجـه جازيـة) الموديل، هذا الوجه الأسمر ذو الحواجـب الثقيلـة الحـادة والعيون ذات الحدقة السوداء الناتئة والأنـف المفـرط فـي كتلته، وبروز الخدين، والشفاة الواضحة فوق أسنان بيضـاء لفتاة في العشرين، والرقبة الصغيرة البسيطة، يسـتند علـى كتفيها رداء بسيط عند بداية كل ذراع عار. الصـدر ناهـد والثديان لهما دوران خاص وبروز أخضر.

اقترح رءوف عمل ندوة بعنوان: إلى أيـن؟ لمناقشـة أعمال الخمسة عشر طالبا بعد انتهاء اليوم الدراسي.

رحب الجميع بالبقاء وأخرجوا لوحاتهم وثبتوها علـى اللوحات الخشبية بالدبابيس فوق سطوح المرسم مع شـمس

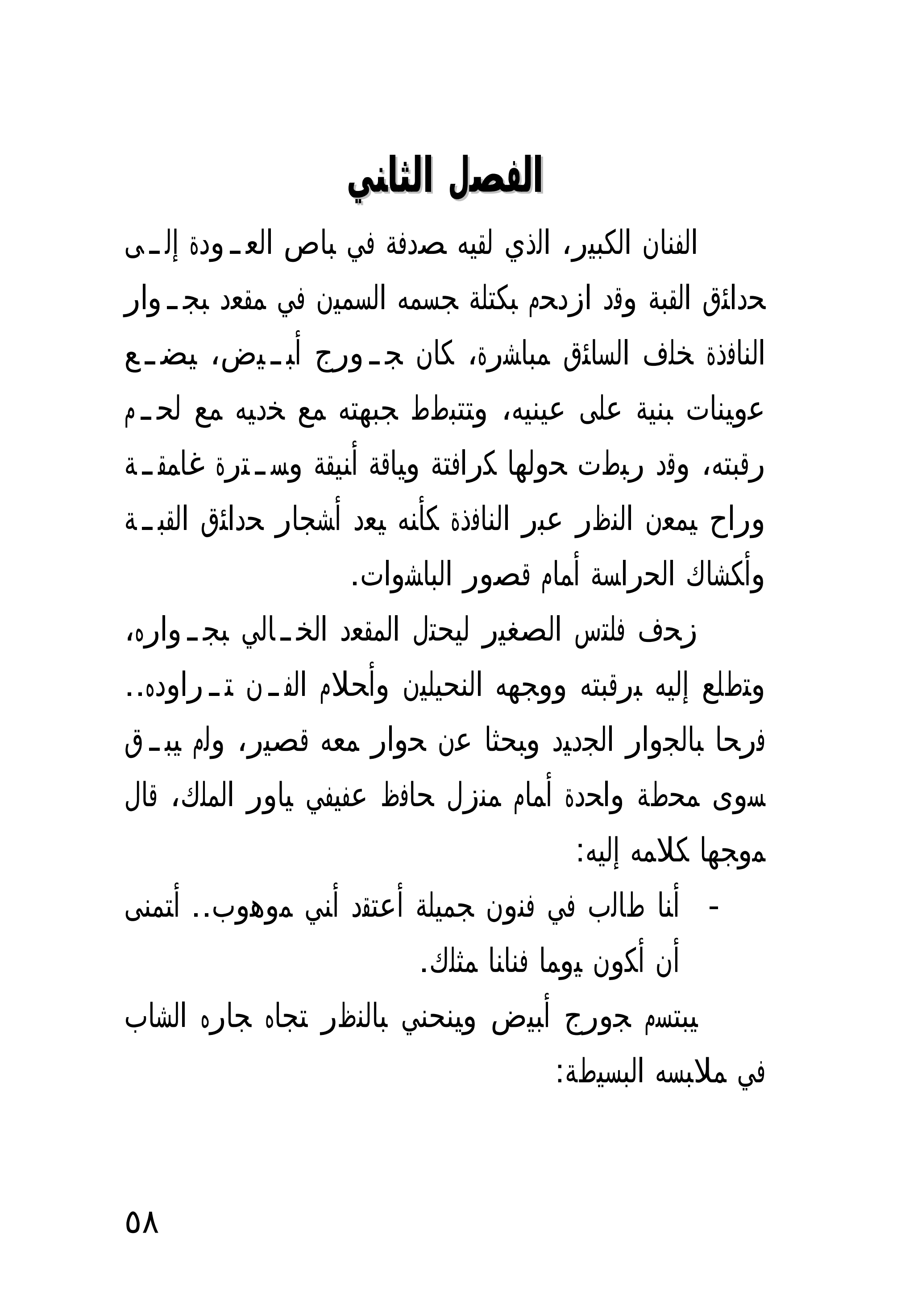
مشرقة لبعد ظهر هادئ حيث رحل طلاب الأقسام والسنوات الأخرى.

يقف رءوف وسط اللوحات محللا وناقدا ومعلقا بالمقارنة وبالإيضاح وبوضع النقاط على الحروف.. يضيف في حديثه إننا لا بد أن نفهم طريق دراستنا في الرسم. ما معنى هذا الوجه المرسوم؟ يرتبط بأية مدرسة واتجاه في أساليب الفن القديمة والحديثة، إلى أي مدى يفيدنا العمل لتكملة الطريق نحو الأفضل.

يتفتح عقل فلتس من خلال زميله النابه رءوف عبد المجيد وتدور حوارات ممتعة أحدثت رضا في النفس لأنها تخرج من ذاتها، وقال بالتحديد لا يجب أن ندرس بغباء ولكن بوعي يتبع مفهوما خاصا، أي الأعمال عبر فعلا عن مأساة الفتاة جازية التي جلست أسبوعا كاملا في وضع واحد؟

تنتهي دروس الفحم بالسنة الأولى الإعدادية للفنون الجميلة بالزمالك. يعود فلتس الطالب الشاب في العشرين إلى

القسم الذي اختاره وهو التصوير الزيتي بسبب حبـه للفنـان الذي لا يعرفه بعد، حسين بيكار.



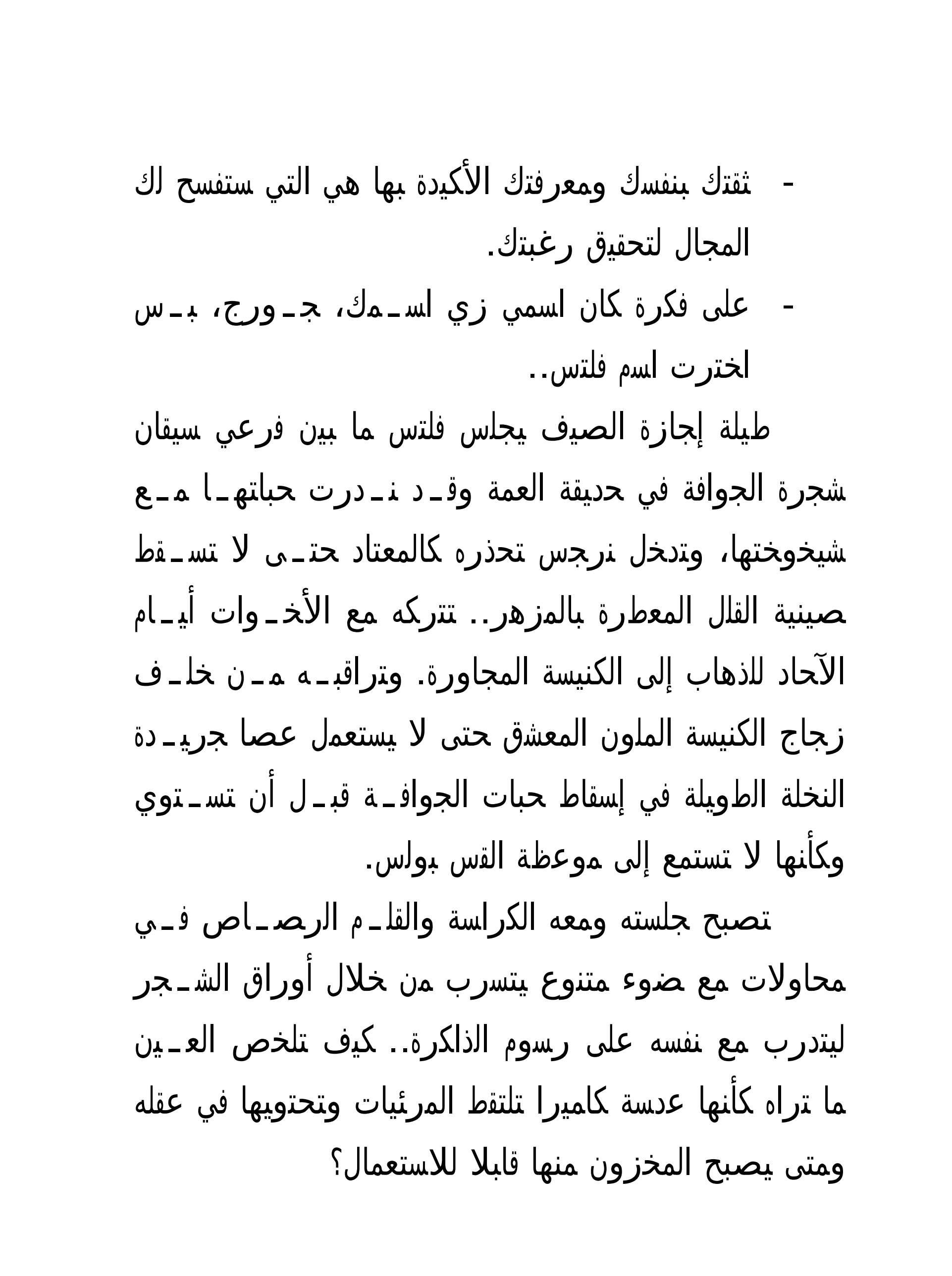
الفصل الثاني

الفنان الكبير، الذي لقيه صدفة في باص العـودة إلـى حدائق القبة وقد ازدحم بكتلة جسمه السمين في مقعد بجـوار النافذة خلف السائق مباشرة، كان جـورج أبـيض، يضـع عوينات بنية على عينيه، وتتبطط جبهته مع خديه مع لحـم رقبته، وقد ربطت حولها كرافتة وياقة أنيقة وسـترة غامقـة وراح يمعن النظر عبر النافذة كأنه يعد أشجار حدائق القبـة وأكشاك الحراسة أمام قصور الباشوات.

زحف فلتس الصغير ليحتل المقعد الخـالي بجـواره، وتطلع إليه برقبته ووجهه النحيلين وأحلام الفـن تـراوده.. فرحا بالجوار الجديد وبحثا عن حوار معه قصير، ولم يبـق سوى محطة واحدة أمام منزل حافظ عفيفي ياور الملك، قال موجها كلامه إليه:

- أنا طالب في فنون جميلة أعتقد أني موهوب.. أتمنى أن أكون يوما فنانا مثلك.

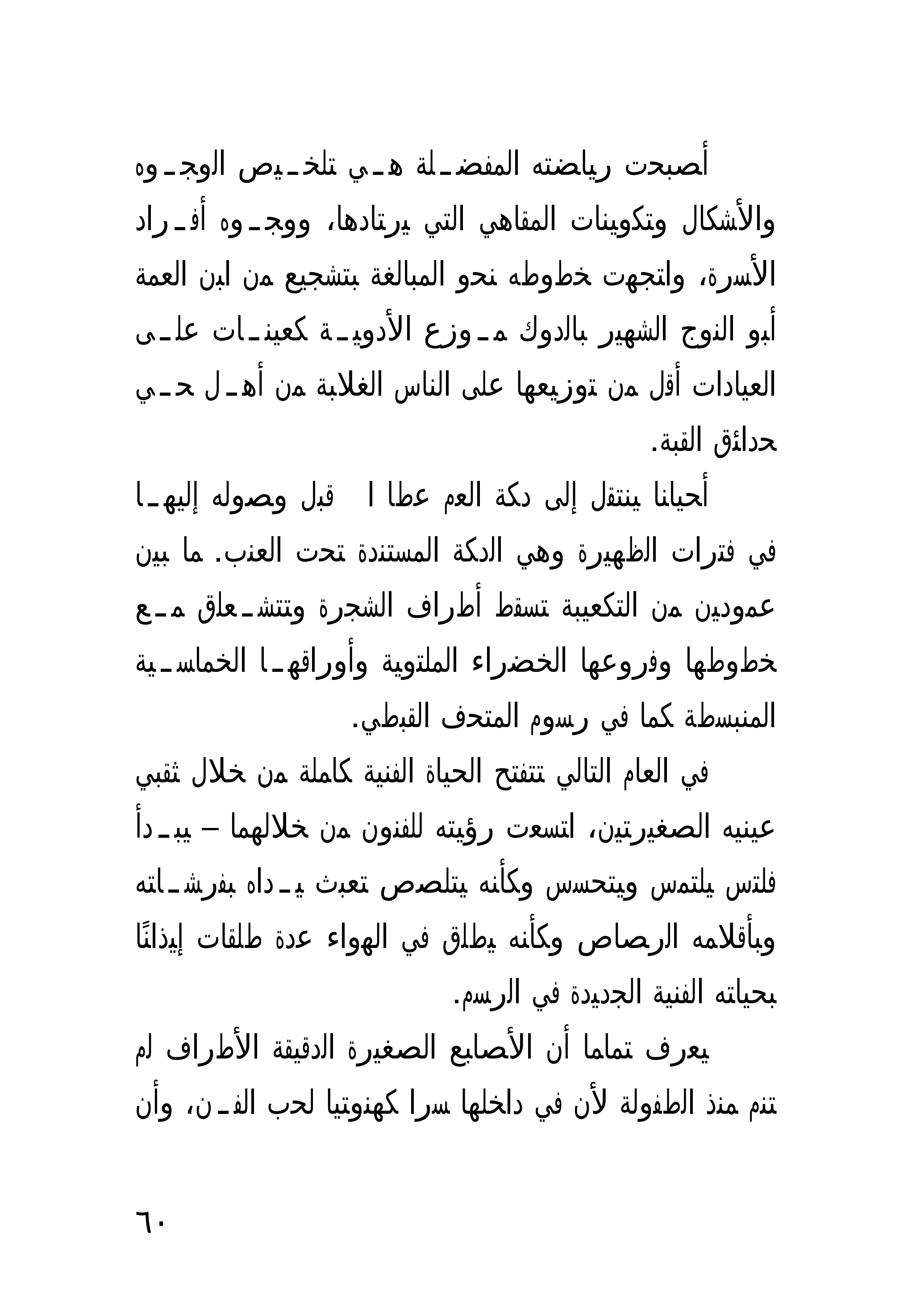
يبتسم جورج أبيض وينحني بالنظر تجاه جاره الشاب في ملابسه البسيطة:



- ثقتك بنفسك ومعرفتك الأكيدة بها هي التي ستفسح لك المجال لتحقيق رغبتك.
- على فكرة كان اسمي زي اسمك، جورج، بس اخترت اسم فلتس..

طيلة إجازة الصيف يجلس فلتس ما بين فرعي سيقان شجرة الجوافة في حديقة العمة وقد ندرت حباتها مع شيخوختها، وتدخل نرجس تحذره كالمعتاد حتى لا تسقط صينية القلل المعطرة بالمزهر.. تتركه مع الأخوات أيام الآحاد للذهاب إلى الكنيسة المجاورة. وتراقبه من خلف زجاج الكنيسة الملون المعشق حتى لا يستعمل عصا جريدة النخلة الطويلة في إسقاط حبات الجوافة قبل أن تستوي وكأنها لا تستمع إلى موعظة القس بولس.

تصبح جلسته ومعه الكراسة والقلم الرصاص في محاولات مع ضوء متنوع يتسرب من خلال أوراق الشجر ليتدرب مع نفسه على رسوم الذاكرة.. كيف تلخص العين ما تراه كأنها عدسة كاميرا تلتقط المرئيات وتحتويها في عقله ومتى يصبح المخزون منها قابلا للاستعمال؟



أصبحت رياضته المفضـلة هـي تلخـيص الوجـوه والأشكال وتكوينات المقاهي التي يرتادها، ووجـوه أفـراد الأسرة، واتجهت خطوطه نحو المبالغة بتشجيع من ابن العمة أبو النوج الشهير بالدوك مـوزع الأدويـة كعينـات علـى العيادات أقل من توزيعها على الناس الغلابة من أهـل حـي حدائق القبة.

أحيانا ينتقل إلى دكة العم عطا ا قبل وصوله إليهـا في فترات الظهيرة وهي الدكة المستندة تحت العنب. ما بين عمودين من التكعيبة تسقط أطراف الشجرة وتتشـعلق مـع خطوطها وفروعها الخضراء الملتوية وأوراقهـا الخماسـية المنبسطة كما في رسوم المتحف القبطي.

في العام التالي تتفتح الحياة الفنية كاملة من خلال ثقبي عينيه الصغيرتين، اتسعت رؤيته للفنون من خلالهما – يبـدأ فلتس يلتمس ويتحسس وكأنه يتلصص تعبث يـداه بفرشـاته وبأقلامه الرصاص وكأنه يطلق في الهواء عدة طلقات إيذانًا بحياته الفنية الجديدة في الرسم.

يعرف تماما أن الأصابع الصغيرة الدقيقة الأطراف لم تنم منذ الطفولة لأن في داخلها سرا كهنوتيا لحب الفـن، وأن

لغة جديدة تتكلمها هذه الأصابع، يعرف بلاغتها ورنين الجمال بداخلها. يفتح الكف فتعزف الموسيقى لحنا صغيرا، عندما تتحور خطوط الكف في انحناءاتها وتعرجاتها ودورانها فتلتف الرقبة عند بطن الأصبع البنصر، وتمر الخطوط الأخرى شبه دائرية في أقواس جديدة تحدد رأس العذراء. منحنية إلى وجه الطفل ودائرتي الإشعاع حول الرأسين في لون أصفر ذهبي متوهج. كأنها علبة من الموسيقى الصغيرة من تلك التي تهدى في أعياد الميلاد تفتحها فترتل ترتيلة وتعزف مقطوعة موسيقية قصيرة.

صديقه بكير يعزف العود ويحفظ عدة ألحان قديمة يدندن بها في الفصل ويسكن في المطرية، يصحبه إلى بيته ويعزف له. ويجن جنون فلتس لآلة العود وسحرها، فيقدم له صديقه عودا آخر ينوي بيعه ويتطوع لتدريبه على مبادئ العزف. لا تسعه فرحة الحياة، فعندما احتضن العود عائدا إلى منزله عاش في وهم جميل بأنه موسيقار أيضا بالإضافة إلى كونه رساما.

في ذات المساء جلس على حافة سريره البسيط الذي يشبه سرير المستشفيات، متكئا في جلسته، فاغرا فاه في وله

وإعجاب والعود يجلس أمامه على الكرسي الوحيد في الغرفة المثلثة الأضلاع وليس لها منافذ سوى الباب والبلكونة.

تذكر دروس الطبيعة الصامتة وهي مادة رسم الأشياء اليومية التي تعيش مع الإنسان فأخرج كراسته واستل قلمـه الرصاص الذي حد طرفه بالموسـى وراح يمـلأ كراسـته بخطوط رصاصية تعبيرا عمـا فـي فـؤاده الوليـد لحـب الموسيقى مع الرسم.

إلا أن الريح العاتية تقصف البـاب وكأنهـا تقصـف الرقاب، وتزيح من أمامها الباب وشراعة النافذة المطلة على البلكون ويندس الشيطان في داخل إنسان طيب هـو شـقيقه حنا، الذي يصرف عليه ويطعمه من مرتبـه الصـغير فـي شركة تأمين. اللصوص حوله على كل مكتب ينهلـون مـن تزوير تقديرات اللجنة المشرفة علـى حـوادث السـيارات فيطلب أصحابها تعويضات باهظة على أن تقسم عليهم. أمـا حنا فهو يرفض متعبدا بكلمات المسيح في الإنجيل رافضـا ودافعا بيديه فضة السماسرة والفريسيين: بيتي بيت الصـلاة يدعي وأنتم جعلتموه بيتا للصوص.

متعبا مرهقا يدخل مع ريح المساء مكدودا مهموما فهم يتهمونه بأقبح التهم ويصفونه وصفا مخزيـا. خـائن لهـم وخباص وضعيف وليس رجلاً لأنه يرفض الرشوة.

في حالته يفاجأ بالمنظر البسيط لفلتس الصغير يرسـم معبودته الصغيرة المستديرة في خطوط حازونية كأنها خلفية حسناء، والغصن والعنق والأوتار تدور في خطوطها الأفقية كأنها خطوط الشفق وراء غروب الشمس، التي بـدت هـذا المساء تبكي الحادثة الأليمة الوحيدة التي تقع في هذا المساء بين شقيقين تربطهما أواصر الحب المتفاني، بـدون مثيـل ينقلان كل ما يعرفانه منذ طفولتهما من كلمات الكنيسة.

وتدور بينهما حوارات قصيرة تبدأ بعلامات الاستفهام، ثم تنحصر في النفي والرفض والاتهام مـن طـرف حنـا، وفلتس الرومانسي الذي دخل عالم الفن لا يستطيع أن يشرح له هذا السحر الذي بدأ يرتبط به، وعثوره على منفذ يـؤدي إلى طريق متفرع جديد هو الموسيقى.

أما حنا فهو لا يعرف بريق الضوء الذي يشـع فـي أيقونة الكف لدى شقيقه الصغير فلتس والذي يشعر فـي ذات الوقت بهروب الأيقونة ولعثمة الخطوط في الكف، وقد فقدت

رتابة وانتظام الأقواس والدوائر، فامحت الملامـح والخـط الوحيد المختزل للعذراء في السلويت مع الطفل.

ولم تمهله اللحظات المتوترة التالية فـإذا بكـف حنـا الغليظ يرتطم بوجه فلتس وكأنها لحظة سقوط دانة كبيرة في موقع حربي مهم، فالضربة جاءت فجأة ومعها عبارات قذف وشتائم كريهة لم يسمعها طيلة طفولته من شقيقه، ورغم أنـه يتذكر لحظات تبوله في سرداب حوش البيـت الـذي كـان يعيشان فيه مع الأسرة في بلدة منوف عندما تضطر الظروف أحدهما أن يجلس القرفصاء لقضاء حاجته وإفراز مهملاتـه الهضمية في هذا السرداب المظلم بدون لمبة جـاز وبـدون نحنحة كعادة أهل الريف.

يتذكر فلتس في هذه اللحظة تلك المـرة فـي منـوف عندما أحس بشبح شقيقه يأتي فجـأة دون أن يـراه، يرفـع جلابيته ويرسل ماءه كما عربات الرش فيغرق وجهه تمامـا وهو يصرخ ويختفي وهو يعتذر.

هذه المرة.. حتى الاعتذار لم يأت فقد أصبح صـاحب حق وإن كان فلتس حاول أن يعيد كفه إلى وضعها الأول كما كان رضيعا، يضم أصابعه في لكمة مواجهة للكمة الأولـى،

إلا أن عدد لكمات الأخ الأكبر يزداد حول الفـك الأسـفل، وعلى واجهة الفم مما أحدث له على التو ألما شـديدا أسـفل الأنف وفي مقدمة الفم.. ولم يفصل بينهما سوى زوجة العـم يوسف التي تعيش في أبعد غرفة مع زوجها. تخـرج مـن غرفتها أثناء انتظار عودة زوجها لتفرق بينهمـا وتحتضـن فلتس في حنان.

ويعود العود إلى صاحبه في اليوم التالي مـع الحـزن والأسى والأسف ويصبح فلتس لا يحمل سوى رسوم العـود فقط. كل ذلك يحدث من أجل عودة الثلاثة جنيهات والنصف إلى صاحبها حنا.

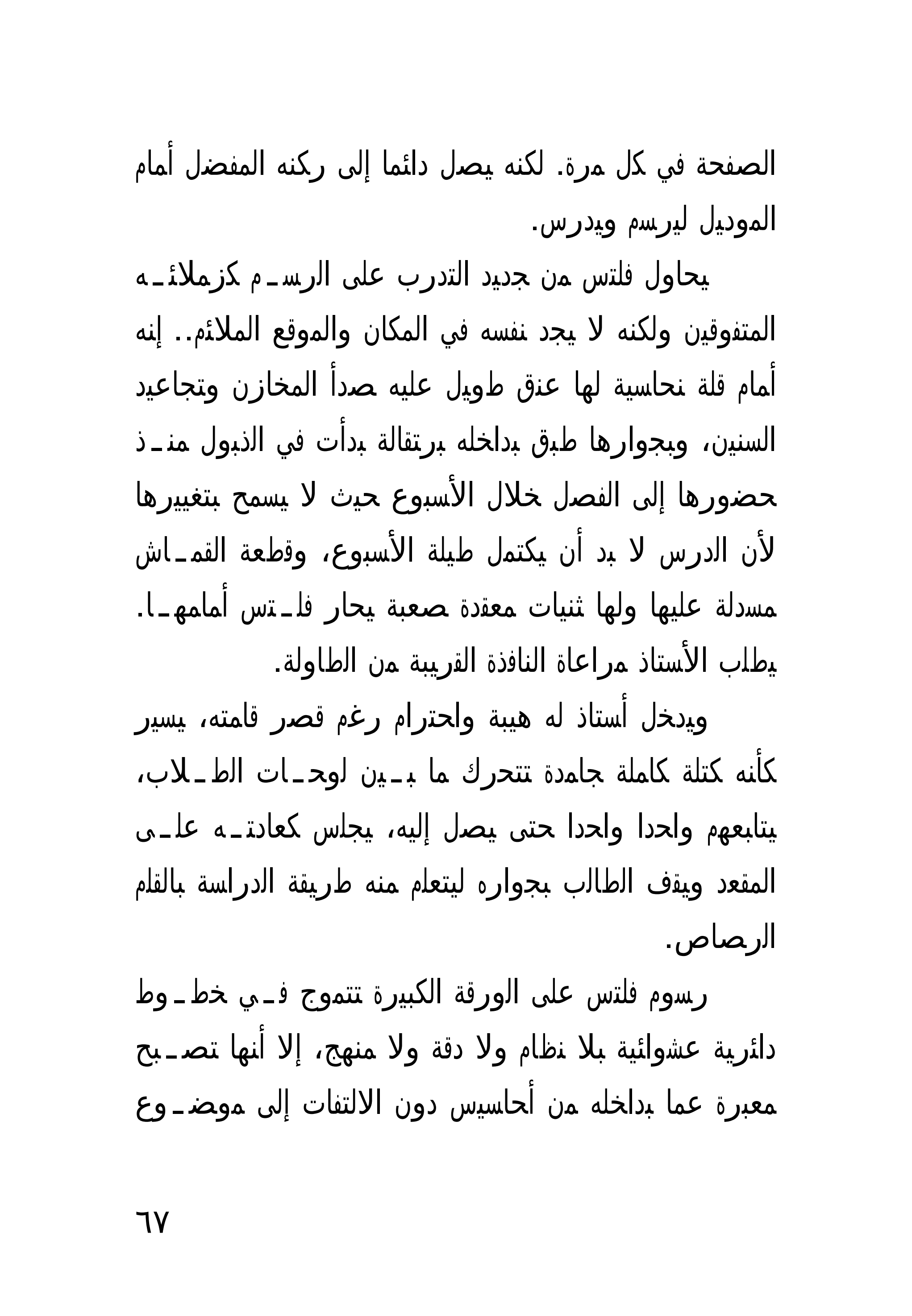
تبقى الحادثة علامة مؤسفة في فك أسنان فلتس، فهـو يذهب بعد أسابيع إلى باسيلي طبيب الأسنان الـذي يعالجـه بالمجان بسبب صداقته لابن عمته ناجي. يقول له الطبيـب: لا بد أن نخلع السنة الأمامية لقد مات العصب بسبب ضربة. ويخلع فلتس سنته الأمامية ويصبح شكله مضحكا أمام زملائه الطلاب في الكلية.



حدائق الزمالك ساكنة في الظهيرة ما عدا شاليه العدس خلف إحدى الفيلات، حيث يتجمع الطـلاب بعـد لحظـات خروجهم من المراسم. لحظات انتعاش للقلب وشهية مفتوحة وشعور كل واحد منهم بأنه يكتشف نفسه كل يوم وكأن هناك برعما من نبات جميل يرويه بالماء، زيتونة علـى غصـنها الأخضر، تعرق من التعب، فيسيل زيتهـا ويكسـبه صـحة وعنفوانًا.

الطالب فلتس يرسم فيليب الطالب في قسم النحت على مجلة الحائط في فناء الكلية، تجتذب اللوحة جمهورا كبيـرا من الطلاب، والأساتذة يتندرون بطريقة الرسم الجديدة: لقـد عكس وجه سقراط على فيليـب، وأصـبح وجـه المقارنـة مضحكًا لأنه رسمه كما المهرج الكثيف اللحية، أقرع الرأس، أما العينان والأنف فقد تشابكتا مع خدود الوجه وتاهت ولـم يظهر من وجهه سوى الصلعة واللحية وما بينها من خطوط.

هكذا يحتويه فناء الكلية قبل وبعد الصعود إلى المراسم محاطا بعشرات الوجوه يتأملها ويسجلها على الورق ويهديها إليهم، وأصبحت كراسته ممزقة تماما من الوسط بسبب نزع



الصفحة في كل مرة. لكنه يصل دائما إلى ركنه المفضل أمام الموديل ليرسم ويدرس.

يحاول فلتس من جديد التدرب على الرسـم كزملائـه المتفوقين ولكنه لا يجد نفسه في المكان والموقع الملائم.. إنه أمام قلة نحاسية لها عنق طويل عليه صدأ المخازن وتجاعيد السنين، وبجوارها طبق بداخله برتقالة بدأت في الذبول منـذ حضورها إلى الفصل خلال الأسبوع حيث لا يسمح بتغييرها لأن الدرس لا بد أن يكتمل طيلة الأسبوع، وقطعة القمـاش مسدلة عليها ولها ثنيات معقدة صعبة يحار فلـتس أمامهـا. يطلب الأستاذ مراعاة النافذة القريبة من الطاولة.

ويدخل أستاذ له هيبة واحترام رغم قصر قامته، يسير كأنه كتلة كاملة جامدة تتحرك ما بـين لوحـات الطـلاب، يتابعهم واحدا واحدا حتى يصل إليه، يجلس كعادتـه علـى المقعد ويقف الطالب بجواره ليتعلم منه طريقة الدراسة بالقلم الرصاص.

رسوم فلتس على الورقة الكبيرة تتموج فـي خطـوط دائرية عشوائية بلا نظام ولا دقة ولا منهج، إلا أنها تصـبح معبرة عما بداخله من أحاسيس دون الالتفات إلى موضـوع

الطبيعة الصامتة الذي لا يفهمه. فهو لا يدرس القلة النحاسية ببطنها المستدير وعنقها الطويل ومنقارها الذي يصب منـه الماء، ومن الناحية الأخرى الذراع التي يمكن الإمساك بهـا، ولكنه يتموج بمشاعره عبر الورقة البيضـاء فـي أمـواج ودوامات حياته الخاصة التي تسيطر على نفسه منذ طفولته. كأنها صراخه وهو رضيع على صـدر أمـه، ثـم تتـراكم الخطوط في تعبير مأساوي عندما يتذكر وفاتها فـي عمـر الزهور وقد تركته مع إخوته في ضياع. ماتت قبل أن يعرف لبن الثدي.

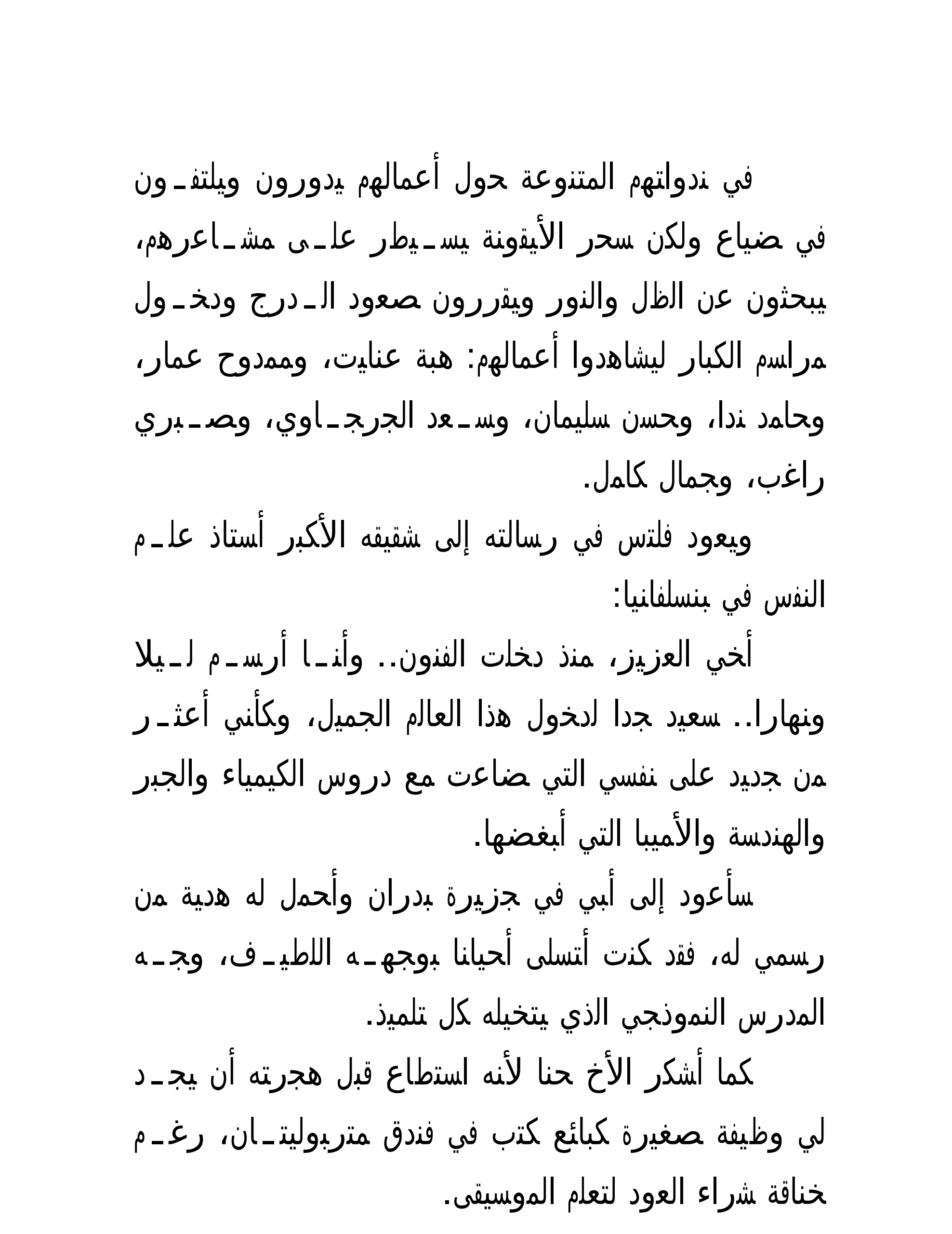
إلا أن الأستاذ القدير ذا الشـعر الرمـادي القصـير والرأس الكامل الدوران في ملامح الأنف المربعة والعينـين الفرعونيتين والبشرة السمراء واللحية مع الشـارب وكأنـه يمسك باللحية رمز الحكمة وتصبح لها باروكة طويلة كما في كهنة آمون يقول له:

- العب يا بني بالقلم.. العب يا بني بالقلم. فقد استطاع الأستاذ أن يميز وسط الخطـوط الهمجيـة أشـكال الطبيعة الصامتة بما فيها القلـة النحاسـية والطبـق والبرتقالة.. حتى ثنيات القماش الصعبة بدت أكثـر

وضوحا كأن اللوحة كاملة تهب عليها رياح رملية كالخماسين.

تعلقت الكلمة والنصيحة من الأستاذ بعقل وقلب فلتس واعتبر حكاية اللعب هذه بمثابة الحرية التي يبحث عنها فهو يرفض أن يكون طالبا مسجونا في منهج أو تعاليم أولية ولا يريد أن يكون عمله المدرسي نسخة طبق الأصل من زملائه على الجهتين حوله فيصبح الماهر هو المتفوق. وأصبح يتابع أستاذه في كل مكان كأنه يسير على آثار أقدامه.

اليوم يحمل كراسة بدون هوامش وبدون أسطر يرسم فيها ما يشاء على طريقة الحسين فوزي وكلمته العب يا بني بالقلم.. يسهر في مقهى خلف الأوبرا في الشوارع الخلفية والأزقة والحواري، يجلس الساعات مع كوب الشاي الذي لا يحمل في جيبه سوى ثمنه.. يرسم كل ما فيه من شيوخ إلى شباب إلى بوابي العمارات المجاورة وسط البلد بعماماتهم الملتفة في خطوط دائرية تلتقطها أصابعه والقلم الرصاص وسط الأصابع والسيجارة الجديدة التي يبدأ في تدخينها بعد جلسات ابن عمته أبو النوج الشهير بالدوك.



في ندواتهم المتنوعة حول أعمالهم يدورون ويلتفون في ضياع ولكن سحر الأيقونة يسيطر على مشاعرهم، يبحثون عن الظل والنور ويقررون صعود الدرج ودخول مراسم الكبار ليشاهدوا أعمالهم: هبة عنايت، وممدوح عمار، وحامد ندا، وحسن سليمان، وسعد الجرجاوي، وصبري راغب، وجمال كامل.

ويعود فلتس في رسالته إلى شقيقه الأكبر أستاذ علم النفس في بنسلفانيا:

أخي العزيز، منذ دخلت الفنون.. وأنا أرسم ليلا ونهارا.. سعيد جدا لدخول هذا العالم الجميل، وكأنني أعثر من جديد على نفسي التي ضاعت مع دروس الكيمياء والجبر والهندسة والأميبا التي أبغضها.

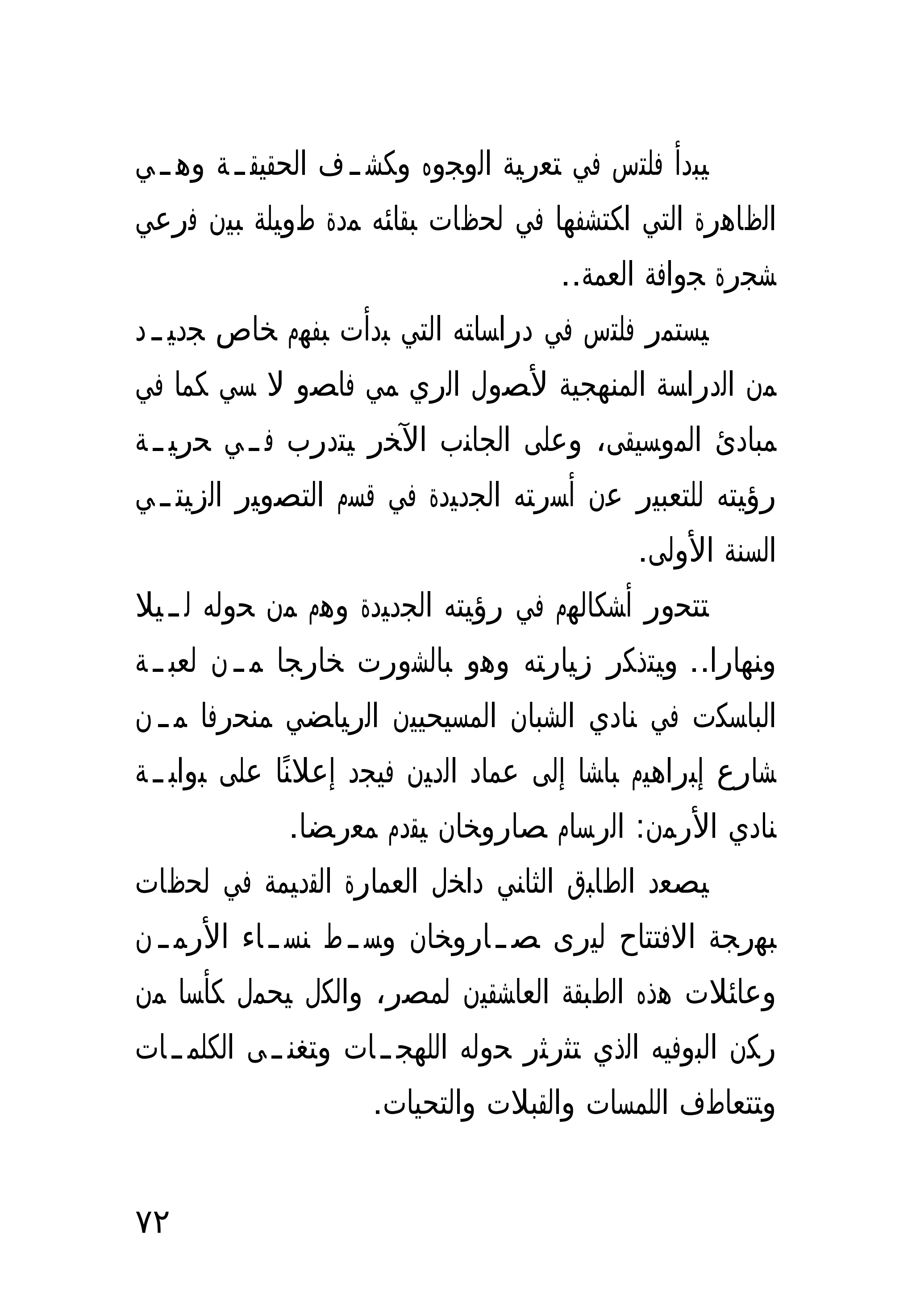
سأعود إلى أبي في جزيرة بدران وأحمل له هدية من رسمي له، فقد كنت أتسلى أحيانا بوجهه اللطيف، وجه المدرس النموذجي الذي يتخيله كل تلميذ.

كما أشكر الأخ حنا لأنه استطاع قبل هجرته أن يجد لي وظيفة صغيرة كبائع كتب في فندق متربوليتان، رغم خناقة شراء العود لتعلم الموسيقى.

يقتنع فلتس بأسلوبه الجديد في تحوير فن البورتريه.

لذلك اختار ثلاث شخصيات تلهمه إحساس السـخرية الأولى: زميله عدلي فهيم، وزميلة جديدة اسـمها إخـلاص، وسعد حسنين.

الأول بحركة سيره وجسمه الكروي الصغير ورأسـه الكبير المستدير وشاربه الكثيف حول كرة أخـرى صـغيرة كالبلية للأنف وجبهة عريضة وعيون غائرة تحت حواجـب كثيفة لا ذقن ولا رقبة ولا كتفين، والثانية تضحك دائما فـلا يبقى من وجهها سوى أسنان ناصعة تبرق وتلمع مع لعـاب الشفتين الممتلئين بلون الورد، والوجه بيضاوي تماما والأنف غير موجود والذقن أيضا بعد الأسـنان، عينـان واسـعتان كرسوم الكارتون قبل عرض فيلم هوليود في سينما متـرو. والثالث يدهشه بحواجبه الكثيفة كأنها سحاب أسود أو مظلة، يلتقيان ويزداد لقاؤهما كلما ضحك، والأنف نقطتـا خياشـيم للتنفس فقط، وابتسامة عريضة وسط بشرة خضراء مـرورا بشفرة الحلاقة الدائمة.

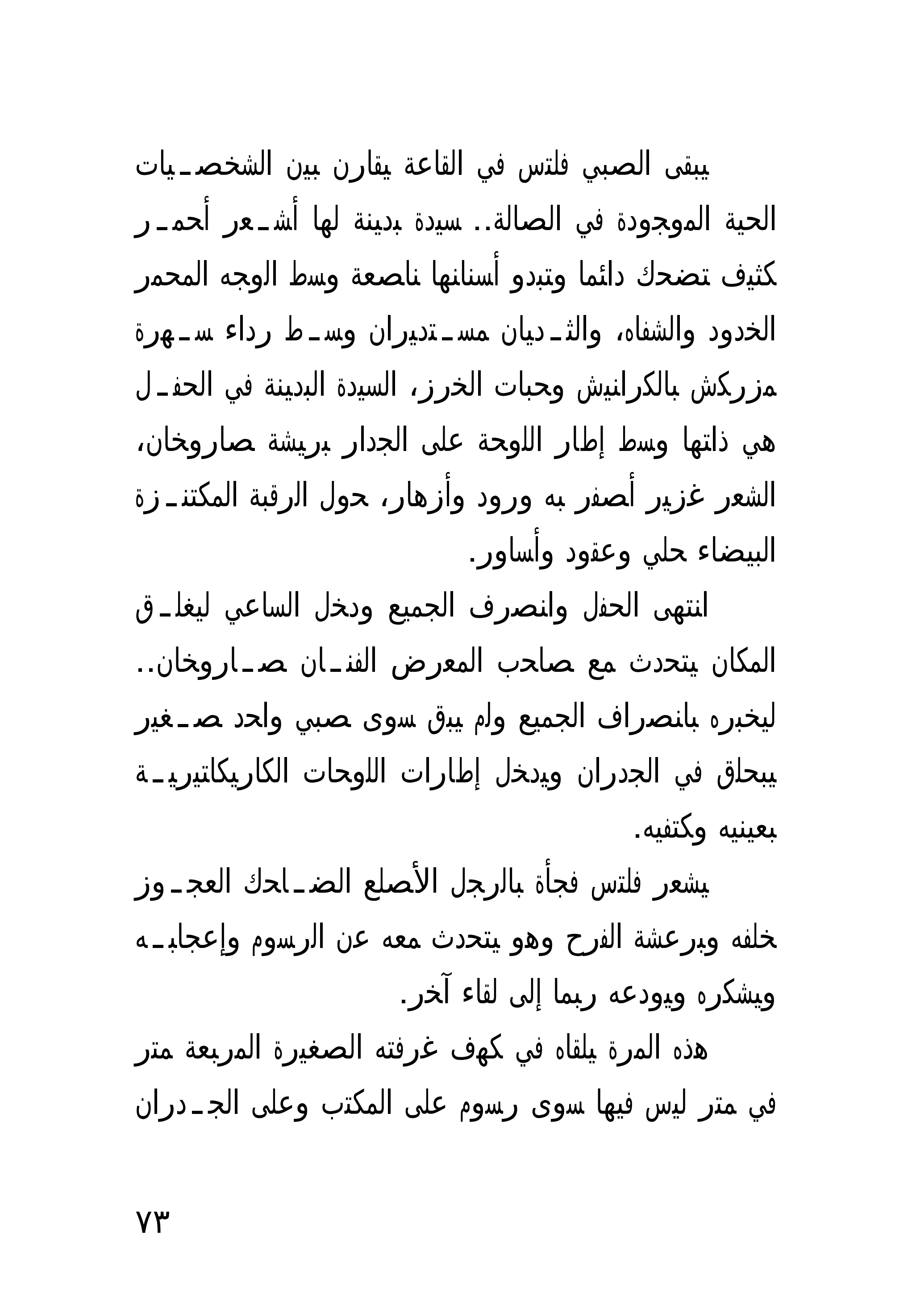


يبدأ فلتس في تعرية الوجوه وكشف الحقيقة وهي الظاهرة التي اكتشفها في لحظات بقائه مدة طويلة بين فرعي شجرة جوافة العمة..

يستمر فلتس في دراساته التي بدأت بفهم خاص جديد من الدراسة المنهجية لأصول الري مي فاصو لا سي كما في مبادئ الموسيقى، وعلى الجانب الآخر يتدرب في حرية رؤيته للتعبير عن أسرته الجديدة في قسم التصوير الزيتي السنة الأولى.

تتحور أشكالهم في رؤيته الجديدة وهم من حوله ليلا ونهارا.. ويتذكر زيارته وهو بالشورت خارجا من لعبة الباسكت في نادي الشبان المسيحيين الرياضي منحرفا من شارع إبراهيم باشا إلى عماد الدين فيجد إعلانًا على بوابة نادي الأرمن: الرسام صاروخان يقدم معرضا.

يصعد الطابق الثاني داخل العمارة القديمة في لحظات بهرجة الافتتاح ليرى صاروخان وسط نساء الأرمن وعائلات هذه الطبقة العاشقين لمصر، والكل يحمل كأسا من ركن البوفيه الذي تثرثر حوله اللهجات وتغنى الكلمات وتتعاطف اللمسات والقبلات والتحيات.

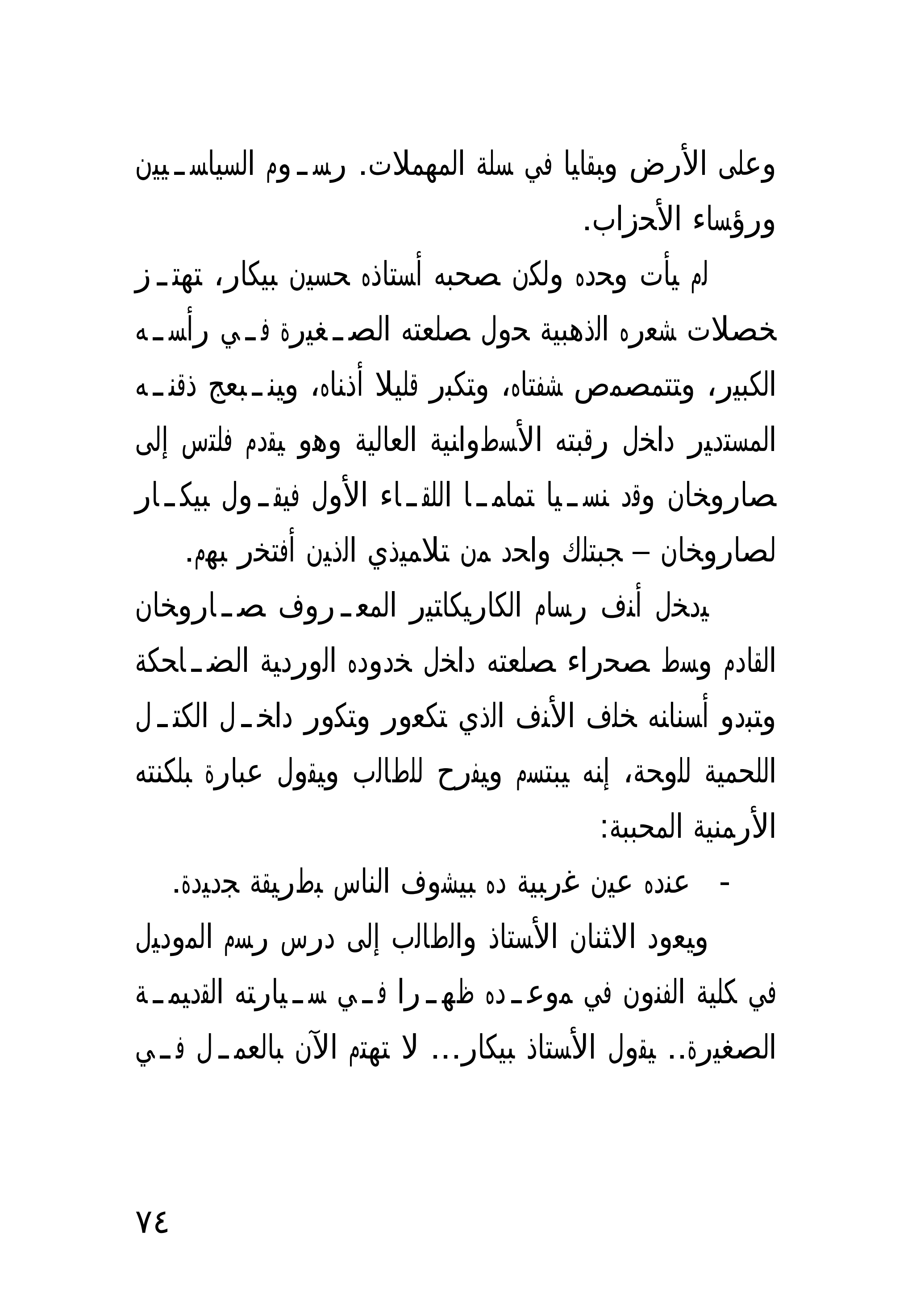


يبقى الصبي فلتس في القاعة يقارن بين الشخصـيات الحية الموجودة في الصالة.. سيدة بدينة لها أشـعر أحمـر كثيف تضحك دائما وتبدو أسنانها ناصعة وسط الوجه المحمر الخدود والشفاه، والثـديان مسـتديران وسـط رداء سـهرة مزركش بالكرانيش وحبات الخرز، السيدة البدينة في الحفـل هي ذاتها وسط إطار اللوحة على الجدار بريشة صاروخان، الشعر غزير أصفر به ورود وأزهار، حول الرقبة المكتنـزة البيضاء حلي وعقود وأساور.

انتهى الحفل وانصرف الجميع ودخل الساعي ليغلـق المكان يتحدث مع صاحب المعرض الفنـان صـاروخان.. ليخبره بانصراف الجميع ولم يبق سوى صبي واحد صـغير يبحلق في الجدران ويدخل إطارات اللوحات الكاريكاتيريـة بعينيه وكتفيه.

يشعر فلتس فجأة بالرجل الأصلع الضـاحك العجـوز خلفه وبرعشة الفرح وهو يتحدث معه عن الرسوم وإعجابـه ويشكره ويودعه ربما إلى لقاء آخر.

هذه المرة يلقاه في كهف غرفته الصغيرة المربعة متر في متر ليس فيها سوى رسوم على المكتب وعلى الجـدران

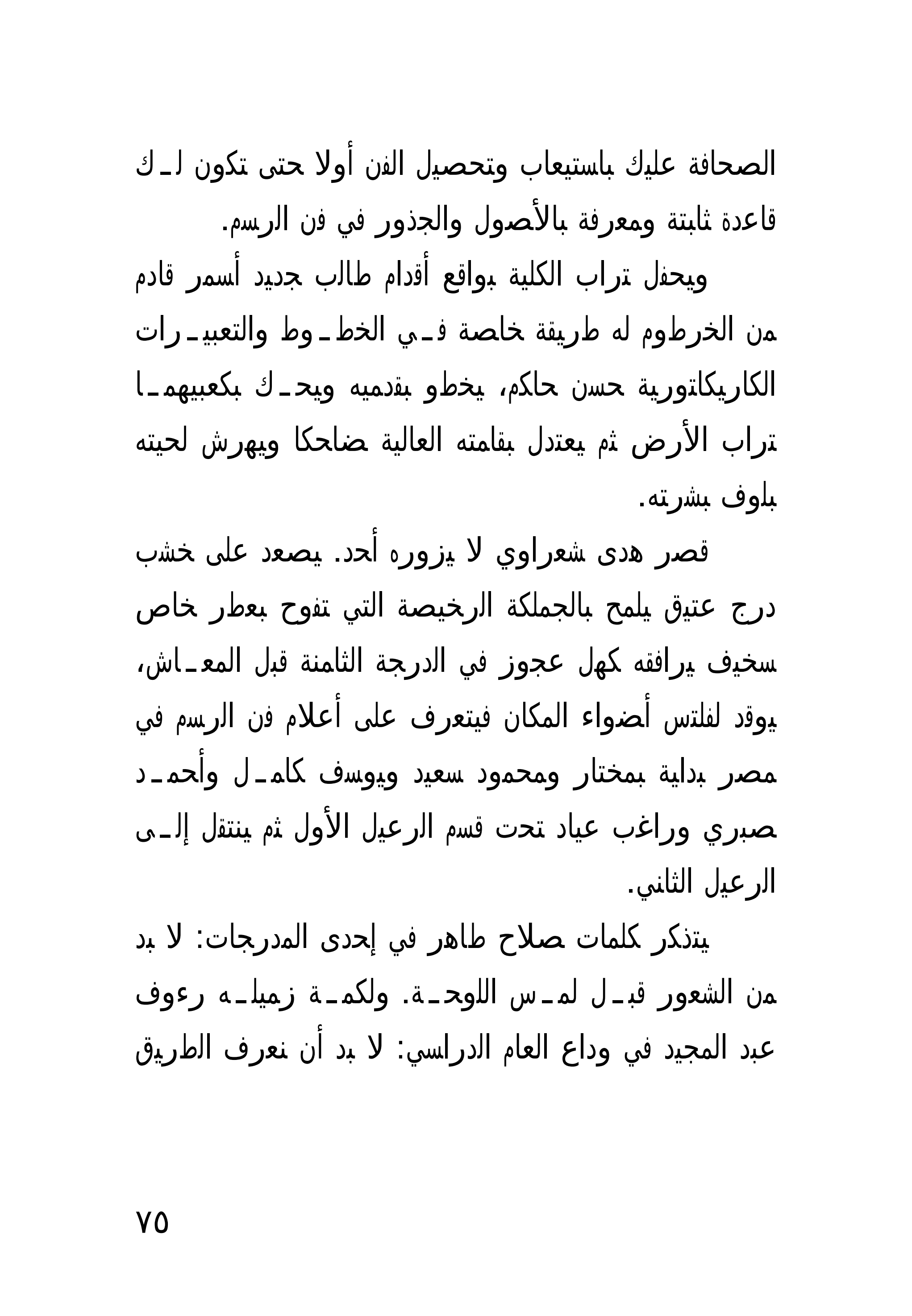

وعلى الأرض وبقايا في سلة المهملات. رسـوم السياسـيين ورؤساء الأحزاب.

لم يأت وحده ولكن صحبه أستاذه حسين بيكار، تهتـز خصلات شعره الذهبية حول صلعته الصـغيرة فـي رأسـه الكبير، وتتمصمص شفتاه، وتكبر قليلا أذناه، وينـبعج ذقنـه المستدير داخل رقبته الأسطوانية العالية وهو يقدم فلتس إلى صاروخان وقد نسـيا تمامـا اللقـاء الأول فيقـول بيكـار لصاروخان – جبتلك واحد من تلاميذي الذين أفتخر بهم.

يدخل أنف رسام الكاريكاتير المعـروف صـاروخان القادم وسط صحراء صلعته داخل خدوده الوردية الضـاحكة وتبدو أسنانه خلف الأنف الذي تكعور وتكور داخـل الكتـل اللحمية للوحة، إنه يبتسم ويفرح للطالب ويقول عبارة بلكنته الأرمنية المحببة:

- عنده عين غريبة ده بيشوف الناس بطريقة جديدة.

ويعود الاثنان الأستاذ والطالب إلى درس رسم الموديل في كلية الفنون في موعـده ظهـرا فـي سـيارته القديمـة الصغيرة.. يقول الأستاذ بيكار... لا تهتم الآن بالعمـل فـي



الصحافة عليك باستيعاب وتحصيل الفن أولا حتى تكون لـك قاعدة ثابتة ومعرفة بالأصول والجذور في فن الرسم.

ويحفل تراب الكلية بواقع أقدام طالب جديد أسمر قادم من الخرطوم له طريقة خاصة فـي الخطـوط والتعبيـرات الكاريكاتورية حسن حاكم، يخطو بقدميه ويحـك بكعبيهمـا تراب الأرض ثم يعتدل بقامته العالية ضاحكا ويهرش لحيته بلوف بشرته.

قصر هدى شعراوي لا يزوره أحد. يصعد على خشب درج عتيق يلمح بالجملكة الرخيصة التي تفوح بعطر خاص سخيف يرافقه كهل عجوز في الدرجة الثامنة قبل المعـاش، يوقد لفلتس أضواء المكان فيتعرف على أعلام فن الرسم في مصر بداية بمختار ومحمود سعيد ويوسف كامـل وأحمـد صبري وراغب عياد تحت قسم الرعيل الأول ثم ينتقل إلـى الرعيل الثاني.

يتذكر كلمات صلاح طاهر في إحدى المدرجات: لا بد من الشعور قبـل لمـس اللوحـة. ولكمـة زميلـه رءوف عبد المجيد في وداع العام الدراسي: لا بد أن نعرف الطريق

السليم بدلا من المنهجية المملة التي تجعلنا في نهاية التخرج ننتظر التعيين الوزاري في الريف أو الصعيد أو القاهرة.

كلمته الأخيرة.. لا بد أن تدخل عالم الفن مـن أوسـع أبوابه. هذا عهد وقسم، ويأتي الطالب شـادي عبـد السـلام حاملا رسوما عديدة لسيناريو فيلم فرعوني جديد يشترك في العهد والقسم ويقلب صفحات أوراقه زملاؤه فـي إعجـاب وانبهار.

توسعت عملية البناء في الكلية أثناء الإجازة الصـيفية فدخل الطلاب إلى مبان جديدة تتسع لعدد كبير من الطـلاب. يختفي رءوف عبد المجيد من قسم التصوير الزيتي بعد اليوم الأول، وهو صاحب الوعود عن أحلام الفن واتجاهاته بعـد الندوة الشهيرة قبل الإجازة، هذه المرة يحمل أدواته ويقـول لقد اختلفت مع نفسي، لا بد أن أدرس الأشياء التي نستعملها في حياتنا اليومية أو يومنا الحيـاتي.. سـأذهب إلـى قسـم الزخرفة.

يفرح فلتس لأنه سيبدأ الرسم بالألوان الزيتية. لن يرسم الفحم بالتماثيل أو التماثيل البيضاء بالفحم الأسود.

أصبح يعي إمكانيته في الرسم لقد قسمها إلـى ثلاثـة عناصر: الدراسة للوجه بالزيت. الرسم في المقهى والسـوق والمولد، وثالثا التدريب علـى رسـوم الـذاكرة الضـاحكة للشخصيات.

أطلقوا على فلتس لقب «الولد الرسام» بعد سهرته في منزل السفير النمساوي في المعادي: ذات يوم ناداه الطالـب المتفوق نبيل الرملي بعد رسمه للطلاب فـي فنـاء الكليـة، وأخبره أنه عرض على أحد الأصـدقاء الدبلوماسـيين فـي وزارة الخارجية فكرة رسم شخصيات حفلة ساهرة في بيـت السفير كنوع من احتفالية السهرة... ما رأيـك.. هـذا هـو العنوان وعليك أن تكون هناك في بداية الثامنة مساء ومعـك أوراقك وأقلامك الفلوماستر الملونة.

فوجئ فلتس بالجو الأنيق في الفيلا رقم ٨ شارع ٥٠، وبسيدات المجتمع الأجنبي في ملابس السهرة الأنيقة وأصبح بضربة قلم يخطف الملامح، ويثير زوبعة من الضحك فـي كل ركن من أركان المائدة المليئة بمـا لـذ وطـاب، كأنـه صعلوك ألف ليلة الذي دخل القصر الكبير.

لم يرسم في حياته مثلما فعل هـذه الليلـة.. السـيدة المضيفة تشبك في جدران الصالون كل رسم يرسـمه حتـى أصبحت قطيفة الجدار متحفا مؤقتا لرسومه.. شرب وأكـل وتفرج ورسم وتلقف كثيرا من القبلات والأحضـان حتـى استيقظ من حلمه في نهاية السهرة على لحظـة الانصـراف فضاع منه كل شئ، كيف يعود إلى غرفته المثلثة في حدائق القبة بعد منتصف الليل.

يقول فلتس في رسالته إلى شقيقة جميل في بنسلفانيا:

«وأصبحت وحيدا في مدخل القصر ولدا صغيرا يتيما بعد حفل أبهجه أكثر من أي شيء، وتطلعت خلـف القصـر فرأيت الظلام يغلف البيوت والحدائق، والسماء... زرقاء جدا ونجومها بيضاء، وأنا أحلم بالنوم في سريري الصغير فـي الغرفة المثلثة».

صاحت صاحبة القصر وفي يدها ورقـة مـن فئـة الخمسة جنيهات. التقطت الورقة المالية وأنا ألهـث بكلمـة لا شكر على واجب وصرخت هي لآخر سـائق فـي آخـر سيارة وهي تقول: يا أسطى شارل.. خد الولد معاك.. وعدت أنام في سريري الصغير وورقة الخمسـة جنيهـات تحـت

وسادتي. وكلماتها الإنجليزية (تيك ذا بوي وز يو) تتردد في أذني.

فلتس في العشرين، شاب ضئيل الحجـم وعضـلاته نشطة أكثر من اللازم وعقله يستنير يوما بعـد يـوم وقلبـه يحتضن العالم كله من ركن صغير على الخريطة في جزيرة الزمالك، كثير العبث بالكاوتش المطاطي ما بين فخذيه، تشتد عصبيته وهو يمسك القلم وتهدأ الحالة بعـد نهايـة الرسـم والتوقيع بفخر أحيانا وبتواضع أحيانا أكثر.

ينطلق فلتس في رسم تعبير المأساة على وجه نعيمـة بنت خالة عطيات الموديل الأول في الكلية.. إنها لا تزال في سنوات شباب.. تحمل طفلتها الرضيعة وثديها المترهل قليلا يبدو في حلمته السمراء بين شفتي الرضيعة الصغرى كإحدى أيقونات عصر النهضة، تندثر الأقمشة السوداء الكالحة حول الوجهين وتبدو عظمة الترقـوة الناعمـة للمـرأة الموديـل وإحساس دافق بالعطاء وهي ترضع الوليدة من لبنها.

الأصابع تحمل الجسد الملائكي الأسمر بملابسه القليلة البائسة. لا تفرح ولكنها تحمل حزن البشرة تحـت وجنتيهـا

وتحت عظمه الجبهة حيث تغور العينان، ويصبح للشكل العام معنى الأمومة.

نهره أستاذه قائلا: رسوم الصحافة أفسدت رســمك.. إنك تنحو إلى المبالغة الرخيصة والدرامية المفتعلة. أطلـب منك أن تؤدي المنهج الرسمي أمامك، ولا ترسم سوى الخط المحدد تماما للشكل العام لجسد الموديل، ثم تعـود لمعالجـة الظلال من خلال الخط المتدرج الفاتح إلى الغامق ثم التلوين يأتي بعد ذلك.

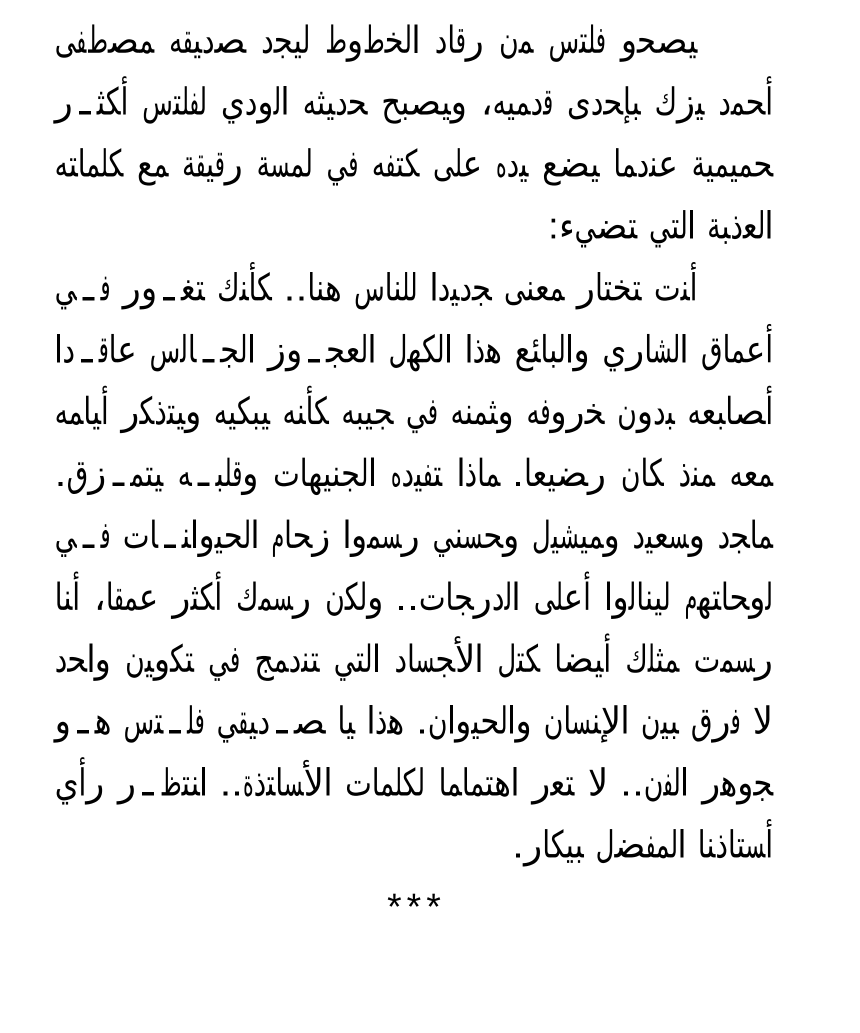
إلا أن مصطفى أحمد المجاور لفلتس صديقه صـاحب الفكر والقراءات العديدة الذي ينظر إليه الطـلاب بـاحترام وحب شديدين لثقافته العالية، يقول لفلتس بعد خروج الأستاذ:

هذا خط له خصوصية تعجبني أرجـوك يـا فلـتس لا تضف شيئا إلى هذا الرسم، إنه عمل فني متكامل وعليـك أن تبدأ بلوحة جديدة وبحريتك الكاملـة دون الالتفـات إلـى اعتراض الأستاذ.

في سوق إمبابة رسم طلاب الدفعة موضوعا عن سوق الثلاثاء بإمبابة.. الريف يحضر المدينة سيرا على الأقدام من جمل إلى حمل ومن حمارة إلى بقرة، يحمل الجميـع خيـر

الأرض لبيعه فـي السـوق. روث البهـائم يمـلأ الأرض، وأخضر البرسيم يزينه، والسجادة طبيعية ضغطت عليها أقدام الناس من الباعة والمشترين.. وفي الأركان نصـبة الشـاي بالنعناع وساندوتشات الباذنجان المحمر في الزيت وتغمـيس قطع الخبز الكبيرة في الجبنة القديمة، ووجه حمـار يطـل، وذيل جاموسة بطرف الهواء في عطفة ريح، وقرن الكـبش يمسكه صاحبه، وعنزة الفلاح تصيح كأنها تحتج على عملية البيع والشراء. أصوات نداءات كثيرة مختلطة فلا يسمح لهـا وتصبح في مجموعها صيحة حياة كاملة ليوم السوق.

فلتس يختار شخصيات معينة منحها العـرق وجوهـا فرحة باليوم، وأشعة الشمس تكسو المكان، وورق الرسم يلمع تحتها، تتحرك الريشة في نزاع وعصبية، فتصبح الرسـوم عجالات، وتضيع كتل وأحجام الحيوانات وسـط مسـاحات الورق وتتوقف عند وجه كهل جلس في عناء بعد صفقة بيع، الخطوط الجسيمة التعبير وخيوط النسيج في جلبابه البنفسجي تختلط بخطوط الألم وتكتسي الشـرايين بالبشـرة السـمراء الممسوحة بتراب الحقل وتخرج من جسده قطـرات عـرق

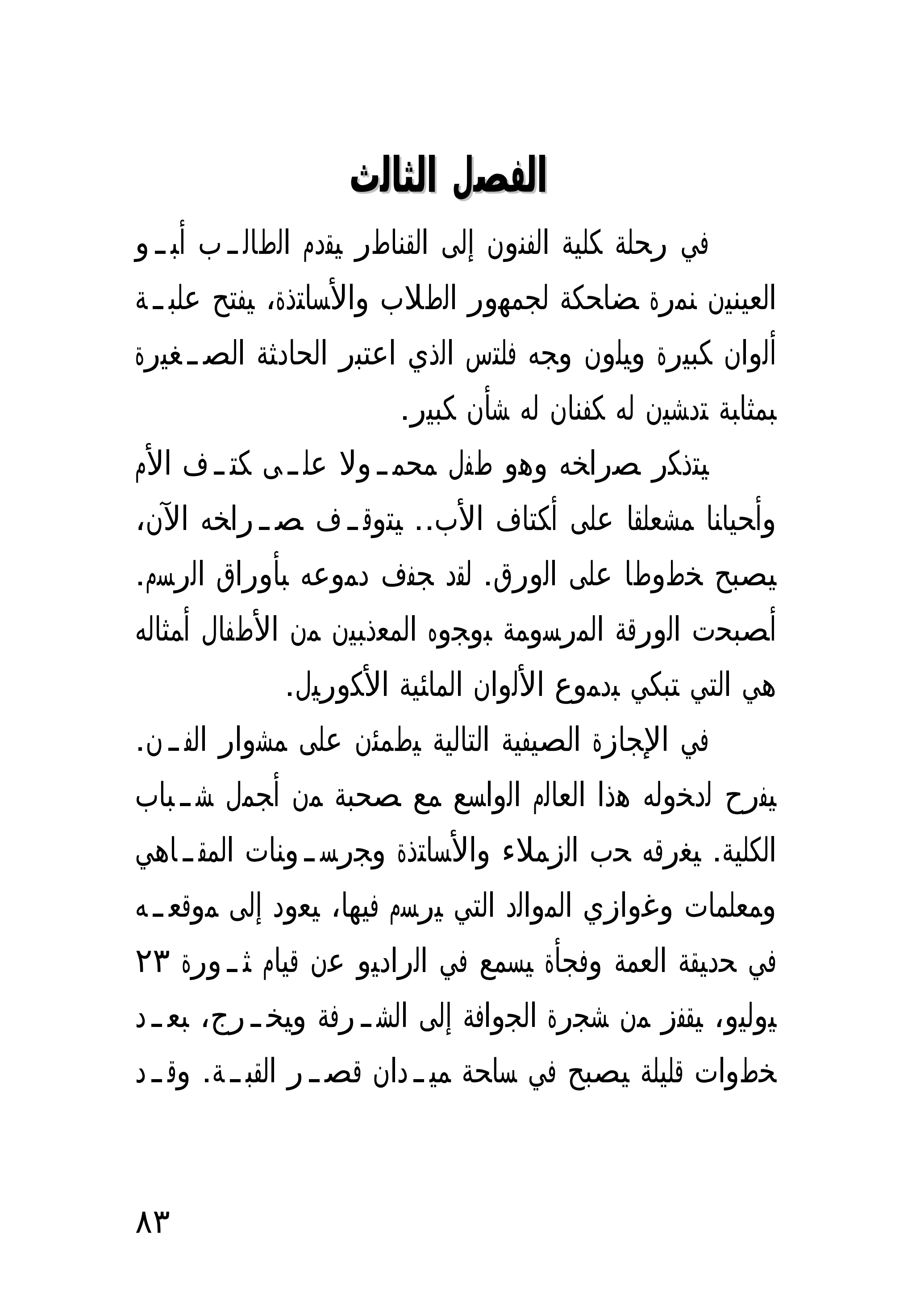


غزير يمسحه بيد متربة فيختلط الاثنان فتتلون البشرة بلون التراب والطين.

يصحو فلتس من رقاد الخطوط ليجد صديقه مصطفى أحمد يزك بإحدى قدميه، ويصبح حديثه الودي لفلتس أكثر حميمية عندما يضع يده على كتفه في لمسة رقيقة مع كلماته العذبة التي تضيء:

أنت تختار معنى جديدا للناس هنا.. كأنك تغور في أعماق الشاري والبائع هذا الكهل العجوز الجالس عاقدا أصابعه بدون خروفه وثمنه في جيبه كأنه يبكيه ويتذكر أيامه معه منذ كان رضيعا. ماذا تفيده الجنيهات وقلبه يتمزق. ماجد وسعيد وميشيل وحسني رسموا زحام الحيوانات في لوحاتهم لينالوا أعلى الدرجات.. ولكن رسمك أكثر عمقا، أنا رسمت مثلك أيضا كتل الأجساد التي تندمج في تكوين واحد لا فرق بين الإنسان والحيوان. هذا يا صديقي فلتس هو جوهر الفن.. لا تعر اهتماما لكلمات الأساتذة.. انتظر رأي أستاذنا المفضل بيكار.

***



الفصل الثالث

في رحلة كلية الفنون إلى القناطر يقدم الطالـب أبـو العينين نمرة ضاحكة لجمهور الطلاب والأساتذة، يفتح علبـة ألوان كبيرة ويلون وجه فلتس الذي اعتبر الحادثة الصـغيرة بمثابة تدشين له كفنان له شأن كبير.

يتذكر صراخه وهو طفل محمـولا علـى كتـف الأم وأحيانا مشعلقا على أكتاف الأب.. يتوقـف صـراخه الآن، يصبح خطوطا على الورق. لقد جفف دموعه بأوراق الرسم. أصبحت الورقة المرسومة بوجوه المعذبين من الأطفال أمثاله هي التي تبكي بدموع الألوان المائية الأكوريل.

في الإجازة الصيفية التالية يطمئن على مشوار الفـن. يفرح لدخوله هذا العالم الواسع مع صحبة من أجمل شـباب الكلية. يغرقه حب الزملاء والأساتذة وجرسـونات المقـاهي ومعلمات وغوازي الموالد التي يرسم فيها، يعود إلى موقعـه في حديقة العمة وفجأة يسمع في الراديو عن قيام ثـورة ٢٣ يوليو، يقفز من شجرة الجوافة إلى الشـرفة ويخـرج، بعـد خطوات قليلة يصبح في ساحة ميـدان قصـر القبـة. وقـد

أحيطت بالدبابات المسلحة. يتأمل ويفكر ويفرح . لقـد جـاء الفرج بعد مظاهرات الجامعات ضد الحكومة والقصر.

يعود يختار من بين مجموعة الضباط الأحرار الـذين قاموا بالثورة على الصفحات الأولى وجها أكثر قربـا إلـى نفسه كأنه يعرف خفاياه بقرون استشعار. إنه البكباشي جمال عبد الناصر. تستهويه وجوه البغدادي وصلاح وجمال سـالم والشافعي، يتدرب على تلخيص هذه الوجوه الجديدة للثـوار بذات طريقة الرسم في تلخيص وجوه زمـلاء الدفعـة مـن الطلبة في الكلية.

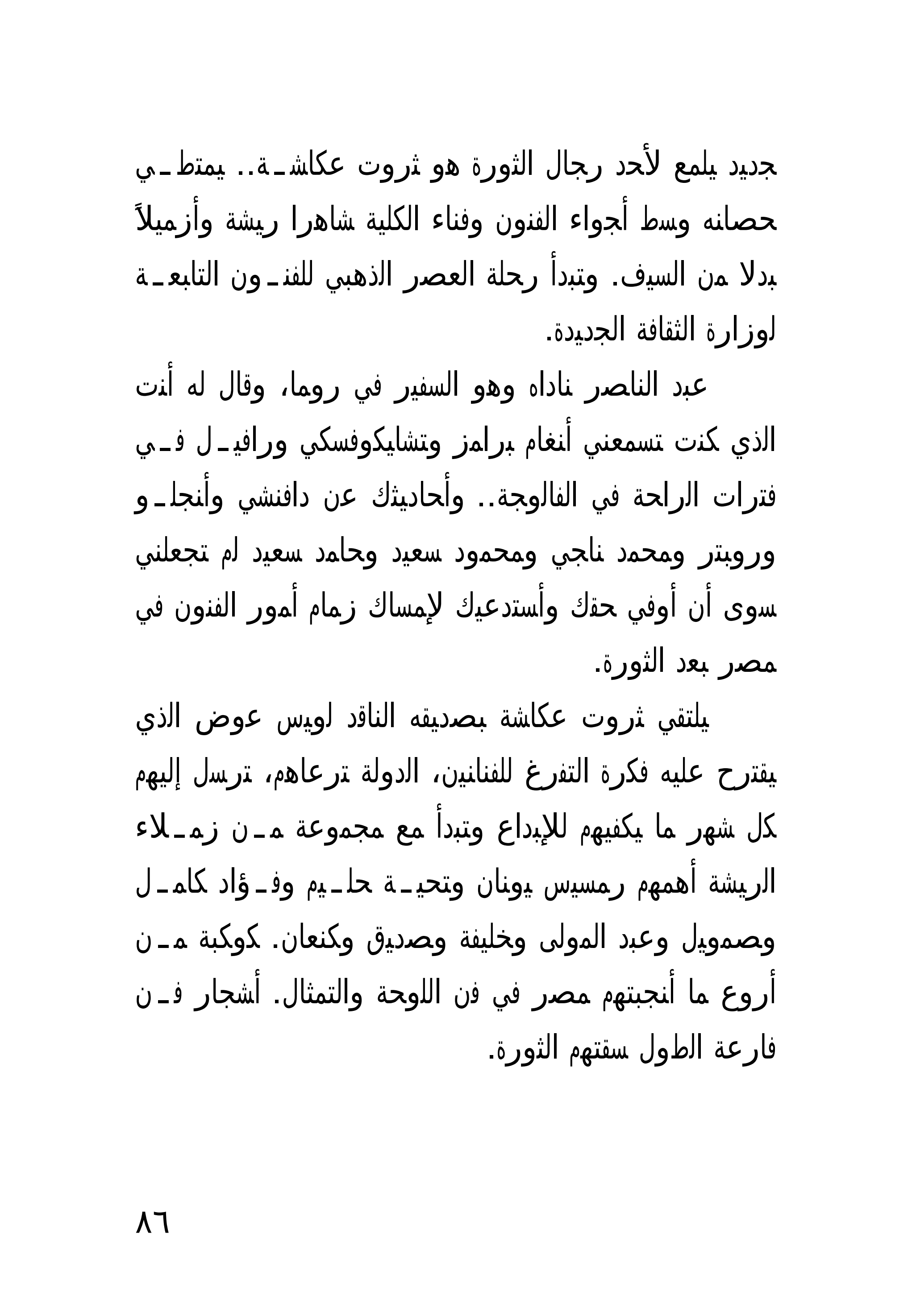
ترك فلتس دراسته في الكلية مؤقتا وراح يعبر بخطوط على كل ورقة تقابله ليسجل تعبيرات رجال الثورة الجـدد. ثمة ملامح مختلفة تحمل ماضيا عريقًا لشباب يثور وصراع حصار الفالوجة وهزيمة ٤٨ الموجودة خطـا خطـا علـى محياهم، والمكتوبة سطرا سطرا على عروق الرقبة وخطوط جباههم، وأعجبه تفاوت النسب في أنف عبد الناصر واختفاء الشارب.. صلعة صلاح وجمال سالم، ثم الأنف المتكور رغم الصلابة والشارب الأنيق وملامح الفرسان كما تتضح أكثـر على وجه حسين الشافعي، وحدة الكتلة النحتيـة فـي رأس

السادات كأن وجهه به ملامح أكثر سردا لماضيه، والمتغيرة بعض الأحيان كما ممثل في فيلم عنيف تحـول إلـى فـيلم كوميدي. تخف حدة ملامحهم عنـد كمـال الـدين حسـين وابتسامة خالد محيي الدين المتفجـرة. إلا أنـه راح يتـابع الصور الفوتوغرافية في الصحف اليومية كما كل الناس فـي مصر فلم يستهوه رسم محمد نجيب لتعقد الخطوط في وجهه إلا أن الغليون في فمه أضاف تميزا أكثر.

اضطر للتدرب على رسم الكاب العكسري وصـعبت عليه رسم النياشين فاستعاد رسمه للنسر وحاول متابعته فـي الجو عندما عثر عليه ذات مرة في سـماء الزمالـك أثنـاء طريقه إلى الكلية.

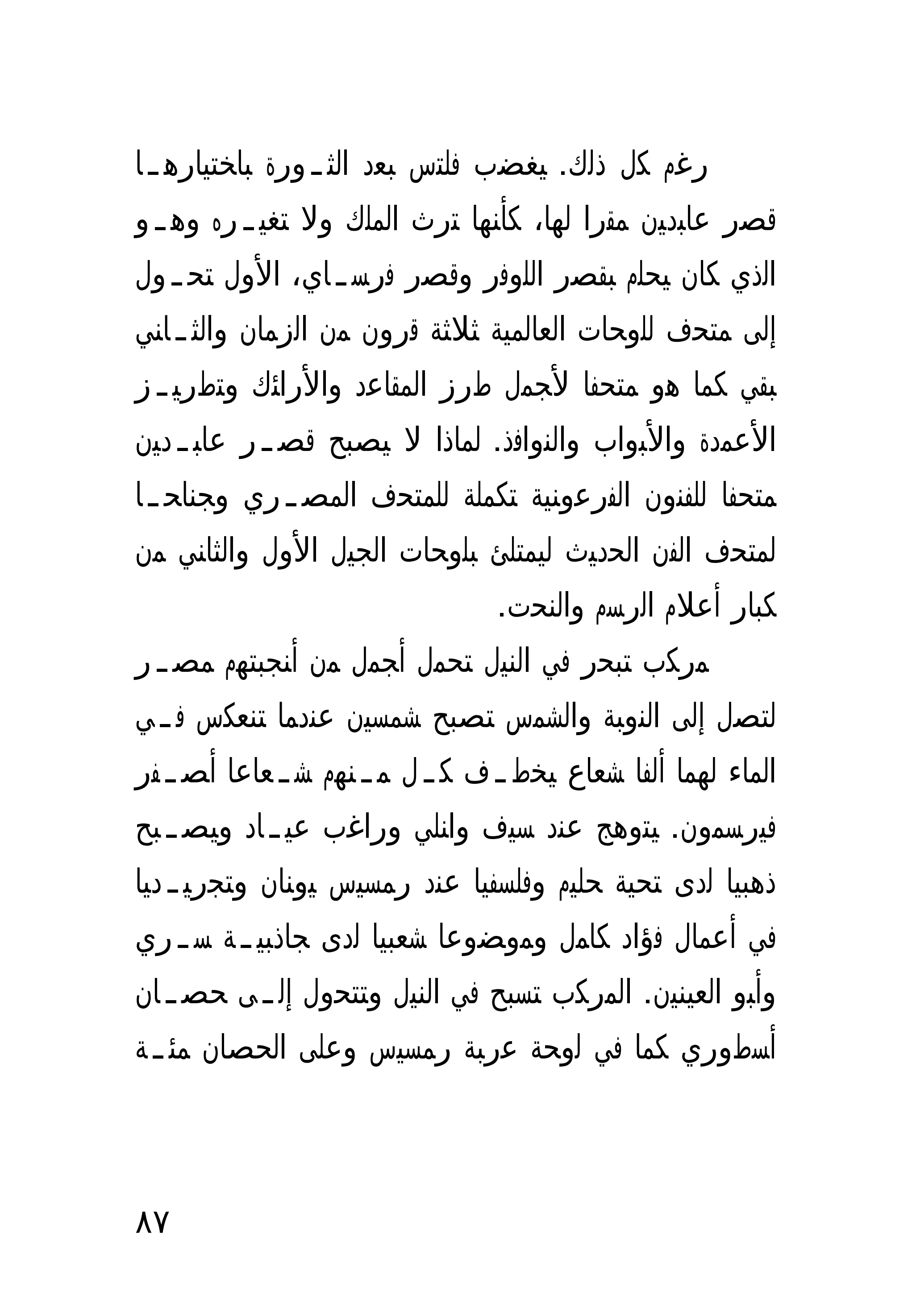
واختار يد عبد الناصر المعبرة وهـي مرفوعـة فـي زاوية ربع دائرة تخفي نصف الوجه فلا يبدو سوى الأنـف المنقاري النحاسي وضحكة الفلاح الصعيدي البسيط من بني مر.

اختار الشعب التغيير مع الثورة وأصبحت كلية الفنون كما كل كليات الجامعة في هدير المـوج الجديـد للحركـة والحماس والعمل الأنشط. ويترامى إلى أسماع الطلاب اسـم


جديد يلمع لأحد رجال الثورة هو ثروت عكاشـة.. يمتطـي حصانه وسط أجواء الفنون وفناء الكلية شاهرا ريشة وأزميلاً بدلا من السيف. وتبدأ رحلة العصر الذهبي للفنـون التابعـة لوزارة الثقافة الجديدة.

عبد الناصر ناداه وهو السفير في روما، وقال له أنت الذي كنت تسمعني أنغام برامز وتشايكوفسكي ورافيـل فـي فترات الراحة في الفالوجة.. وأحاديثك عن دافنشي وأنجلـو وروبتر ومحمد ناجي ومحمود سعيد وحامد سعيد لم تجعلني سوى أن أوفي حقك وأستدعيك لإمساك زمام أمور الفنون في مصر بعد الثورة.

يلتقي ثروت عكاشة بصديقه الناقد لويس عوض الذي يقترح عليه فكرة التفرغ للفنانين، الدولة ترعاهم، ترسل إليهم كل شهر ما يكفيهم للإبداع وتبدأ مع مجموعة مـن زمـلاء الريشة أهمهم رمسيس يونان وتحيـة حلـيم وفـؤاد كامـل وصمويل وعبد المولى وخليفة وصديق وكنعان. كوكبة مـن أروع ما أنجبتهم مصر في فن اللوحة والتمثال. أشجار فـن فارعة الطول سقتهم الثورة.



رغم كل ذلك. يغضب فلتس بعد الثـورة باختيارهـا قصر عابدين مقرا لها، كأنها ترث الملك ولا تغيـره وهـو الذي كان يحلم بقصر اللوفر وقصر فرسـاي، الأول تحـول إلى متحف للوحات العالمية ثلاثة قرون من الزمان والثـاني بقي كما هو متحفا لأجمل طرز المقاعد والأرائك وتطريـز الأعمدة والأبواب والنوافذ. لماذا لا يصبح قصـر عابـدين متحفا للفنون الفرعونية تكملة للمتحف المصـري وجناحـا لمتحف الفن الحديث ليمتلئ بلوحات الجيل الأول والثاني من كبار أعلام الرسم والنحت.

مركب تبحر في النيل تحمل أجمل من أنجبتهم مصـر لتصل إلى النوبة والشمس تصبح شمسين عندما تنعكس فـي الماء لهما ألفا شعاع يخطـف كـل مـنهم شـعاعا أصـفر فيرسمون. يتوهج عند سيف وانلي وراغب عيـاد ويصـبح ذهبيا لدى تحية حليم وفلسفيا عند رمسيس يونان وتجريـديا في أعمال فؤاد كامل وموضوعا شعبيا لدى جاذبيـة سـري وأبو العينين. المركب تسبح في النيل وتتحول إلـى حصـان أسطوري كما في لوحة عربة رمسيس وعلى الحصان مئـة

رسام وشاعر ويصبح هو ثروت عكاشة الفارس الذي يشـد السفينة لتهدأ عند الشاطئ.

***

أستاذي الرقيق كامل مصطفى أداعبه برسوم ضـاحكة لحركاته مع الطلاب حتى أطلقوا على رسومي (الدونالد داك) بمعنى الديك المرح كما في أفلام الكارتون. لكنه لا يغضب، يضحك وتثير ضحكاته التفاف الزملاء حولهما. تصبح اللعبة لعبته وكأنها نوع من الترفيه عن شـقاء ومعانـاة الـدرس. ولا يوجد أتعس من طالب يرسم خطا وظلا ويمحـوه عـدة مرات. لا بد أن يعيد الكرة. دراسة فن الرسم تبـدو وعـرة شاقة مضنية عند البعض وتبدو لعبة بسـيطة تلقائيـة عنـد البعض الآخر.

الطالب بهجت يشاهد رسوم فلتس ويضـحك كثيـرا، وهو عندما يضحك تقفز عوينات زجاج نظارته كأنها ترقص وينحرف أنفه إلى أبعد حد ويغوص شاربه الدقيق داخل خديه بنغازة ساحرة وتنعدم ذقنه داخل رقبته الطويلة كالنعامة أمـا الأسنان والفم المفتوح فيكركران كما قلة بنت عمته نـرجس التي تضعها كل أصيل على حافة شجرة الجوافة.

أصبح لقاؤه بالرسامين إيهاب وبهجت وحـاكم مجـالا للمناورة الساخرة لشخصيات الكلية ابتداء من الأساتذة. اتفق الأربعة على عرض رسومهم في مكتبـة الكليـة. الفكـرة توجهت في رءوسهم فجأة، وعكف كل واحد في ركن بعيـد ليجمع خواطره ويسجلها ويضم رسومه السابقة إلى الجديدة، وافق العميد ودقت المسامير وتطوع زملاء الظرف للمساهمة في تعليق اللوحات، وأصبح لفلتس جدار كامل ركز فيه على أستاذه كامل مصطفى ولقطته عندما يشب على أطراف قدميه وترتفع رقبته ويسبقه أنفه إلى أعلى ليقول رأيـه المعـارض لدراسة الطالب .

تضحك إخلاص ويضحك رياض «وهبـه» ويتنـدر عزت صقر وتبتهج بشكل عام الكلية ذاتها وكأن هناك سيركًا يهبطون إليه، كأن من بينهم أحد المعجبين الذي أصبح ملهما لبعض اللوحات الكاريكاتيرية المعلقة على الجـدران بقامتـه الهيفاء الرفيعة ورقبته العالية وملامح وجهه الدقيقة، شـادي عبد السلام، فربط وسطه بإيشارب إحدى الزميلات ورقـص واحده ونص بين اللوحات الضاحكة.

***

جماعات الطلاب المبهجة تعبـر حـدائق الزمالـك، يحملون أدوات الرسم الجديدة الكبيرة كأنها رايات ترفـرف حولهم وتحت إبطهم، وفي أياديهم. طلاب العمارة يتبـاهون بالمسطرة الكبيرة (حرف تي). والمثلثات الشـفافة والأقـلام وحروف الريشات وتكاوير (البلانات المعماريـة).. الورقـة عند فتحها تصبح عشرة أمتار والرسم البياني يصعد ويهـبط مع درس جديد لعمارة أو مؤسسة أو بنايـة. طـلاب قسـم الزخرفة يتباهون بألوان أزيائهم المبتكرة، ويستخدمون ألوانًا غريبة جديدة في ملابسهم، حقائبهم الخشبية المستطيلة جـدا كأنها صندوق كمان أو فيلونسيل. لقد اختاروا الفن مسـتقبلهم وهربوا من محاضرات الجامعة بالجيزة. هنا فـي أحضـان حدائق الزمالك خيالات جديدة ودراسات لخطـوط وألـوان. وتكوينات وجميع أنواع الرسوم من الرسم البياني إلى رسوم الخرائط إلى رسوم التماثيل إلى الإعلان إلى هندسة المقعـد والكرسي والفوتيل.. كل شيء مبـاح فـي حيـز الترتيـب الأكاديمي والقواعد المقررة ولكـن الحريـة كاملـة تمامـا للإبداع.. هكذا يقول المعلم الأكبر عبد السلام الشريف.

تهبط أفواج الطلاب الجدد من ترام (١٥) الذي يتوقف كثيرا في محطة نهاية جزيرة الزمالك على مقربة من بيت أم كلثوم.. محطة في فناء عمارات صغيرة والفيلات وقصور البسيطة، يجتمعون في بهجة وفرح، في نشاط وصياح وبهجة تحصيل وقد غمرهم عالم الفن الجديد.. تتساقط على أكتافهم زهور ضخمة حمراء من شجرة عريقة لها جذع كما حصن أو طابية خشبية.. تنتشر زهور الأحمر الفاتح على الساحة الصغيرة عند محطة الترام الأخيرة قبل أن تعبر الجسر الآخر إلى العجوزة أو إمبابة أو الدقي. تسير الأقدام مرحة مهللة لصباح جديد إلى كلية الفنون. يكفي أن يعرف طالب واحد طالبا آخر حتى يتم التعارف على البقية.

يتندرون ويبتهجون ويتشعلقون الواحد في كتف الآخر يصيحون لقفشة وينتظرون لحظة ظهور الفيلا التي يعزف في شرفتها فريد الأطرش في يد عبد السلام النابلسي، يتطوع دائما بتقديم كوب الشاي وتذويب قطعة السكر، وانحناءته الودية لهما. كأنها لوحة هامة كل صباح، يتابعونها من بعيد.

لا تلتقي النظرات حفاظًا على خصوصـيتهم، إضـافة إلى أنهم يجلسون وظهورهم للطريق. فلا تعليق من جانـب الطلاب.

من بين مجموعة الطلاب شابان يشبه أحدهما الآخـر يسيران كأنما خيط يربطهما، أحدهما مكتنز قلـيلا والآخـر نحيل. يسيران جنبا إلى جنب كأن حنـان الأم فـي البيـت يجمعهما، إنهما الشقيقان إيهاب وناجي شاكر.

يزرعون الأشجار، يطيرون فوق السـحاب. ينـادون طيور السماء يحلمون بالمستقبل. يغرسون فرشاة في إصيص من فخار ومن فروع النرجس والياسمين يحملون فرشـاتهم وتتلوث وجوههم ومعاطفهم باللمسات والبصمات وتسـري في دمائهم أحمـر الفرميليـون وأخضـر الفيـروز وأزرق الألتراماريين القادم من أعماق البحار، ويتحول مـع أحمـر الشفاه إلى البنفسج الحزين.

يسطرون خطوطا ويبـدعون مثلثـات فـي مثلثـات ومربعات ضد مربعات وتتعانق الخطوط والألوان وتصـبح حولهم ضجة وصيحة الألوان وبهجة الإشعاع فتفرح العـين، ويحضر الأساتذة ليحكموا وفي أفـواههم صـفارات الحكـم

وتضرب الأجراس فيعود الطلاب ويؤذن المـؤذن للصـلاة فيرسمون ويرسمون ويرسمون.

يسهرون الليالي البيضاء، ينحنـون علـى طـاولات الرسم، يخططون لعمارات. وقصور وجامعـات ومطـارات ومراكز أبحاث.. يخططون لمستقبل جديد ينتشر وسط المدن وعلى طريق الأوتوستراد. يبنون أهرامات جديـدة وتصـبح لكل طالب متخرج من أقسام العمارة والزخرفة أعمال متحفية عملاقة أمام فضاء السماء.

يظهر في بهو الكلية ثلاثة من قسم الزخرفـة بالسـنة الأولى أولهم نبيل الرملي يتحنجل في خطوته، وكمال أيـوب خفيف الحركة في فرح دائم له قفشة، وتهتـز رأس بهجـت العالية فوق رقبة رشيقة تخفي الذقن ولا يبقى سوى الضحكة والنغازة في الخد، والشارب الرفيع حول الفم يطول بالعرض كلما ضحك وينكمش كلما توقف عن الحـديث ليبـدأ فقـرة جديدة.

يدخلون ويخرجون من هذه الغرفة الكبيـرة الرطبـة المليئة بالطين الأحمر كطمي النيل، أياديهم طمـي وأنفهـم طمي وشعرهم طمي. يجلسون يبحثون عن الشمس متكورين

متكعـورين وعطـر الأرض يسـكرهم بـالفن والإبـداع لا يتصورون أنهم يجعلون الطين والطمي يلتصـقان فتـدب فيهما الروح وينطقان.

في داخل الغرفة الكبيرة أشكال طينية واقفـة تنـبض بالحياة على ثوابت بأقدام خشبية مثلثـة وموائـد وطـاولات عليها رءوس لأحياء صنعتها أناملهم الشـابة. لا يضـعونها تحت حنفية الماء فالملمس ناعم يسحر البشرة ويصبغها بلون الحنطة وقشر البصل الجاف وحضن الأم. كأن قلوبهم تتسلق نخلة عالية وترفرف سعافاتها حول ثمار البلح. وأقدامهم هي جذوع النخيل في الطين.

يداعبون الأصابع بالأصابع والطين بينهم يتلون بألوان بشرتهم وتسري فيه شرايين دمائهم فيبتهجـون ويفرحـون ويغنون ويضحكون ويرتشفون من الكوب السـاخن المغـرد بشخللة الملعقة فتنبت سيقان النعناع داخل الشاي، يتعطر كل شيء ويصبح لقاء طلاب النحت النابهين هو لقاء في معبـد الكولسيوم كأنهم كهنة آمون يجلسون تحت أعمـدة الكرنـك ويتمخطرون على طريق الكباش فيصلون بأقدامهم الموحلـة

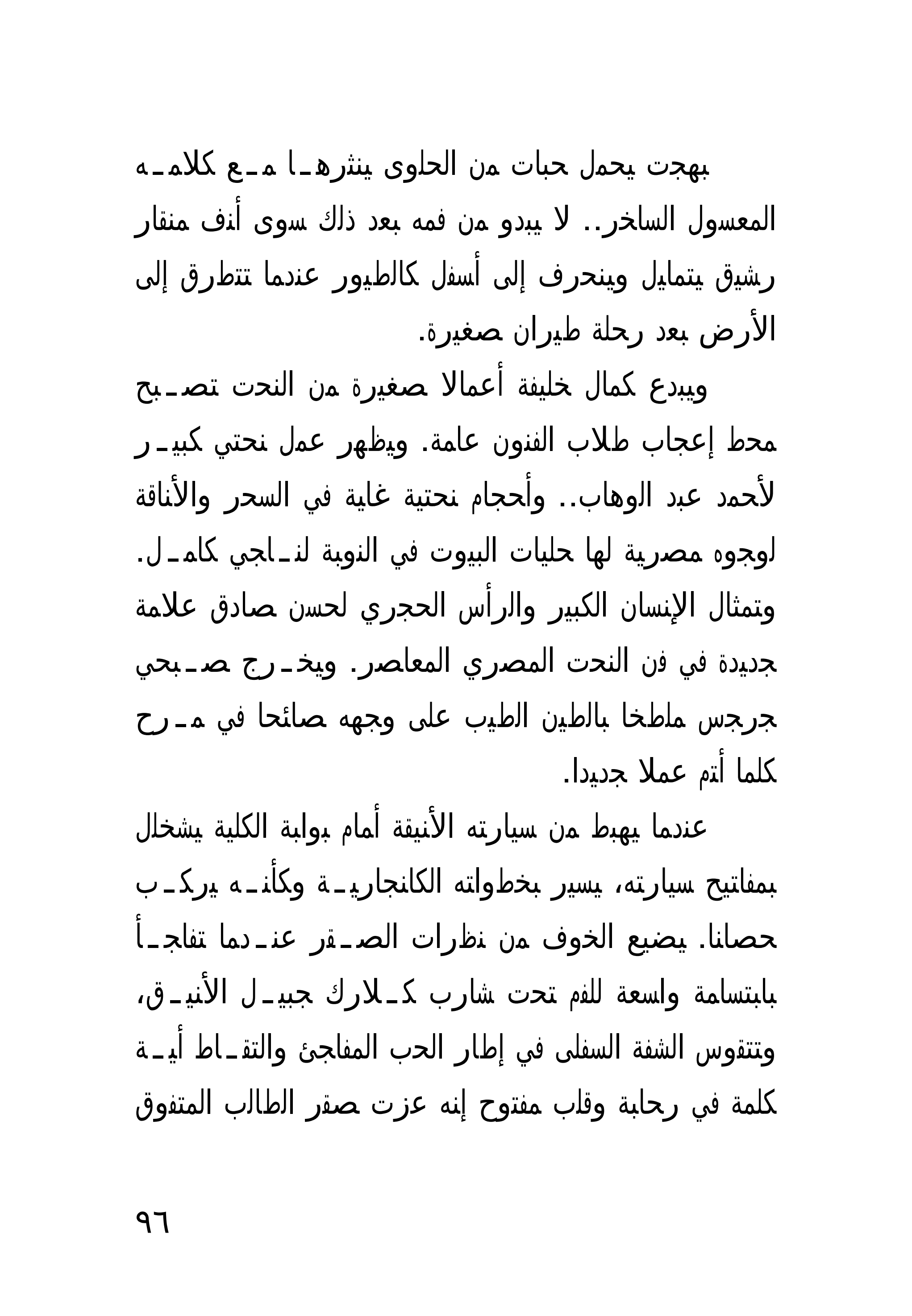
في طين قاع النيل، ترتعش حولهم تموجات مائه إلى تل العمارنة.



ويعربد في أعماقهم «ساتان» الفن وينبض في القلب شريان النيل ويصبح لونهم أبيض كما الجبس الذي يصبون فيه تماثيلهم، يشقون القوالب وتخرج منها حوريات بيضاء، كأن القالب محار تخرج منه عرائس الجمال.

يجتمع حسن صادق وصمويل وسعد متري وكمال خليفة وروحية توفيق وبهجت عثمان وأحمد عبد الوهاب وناجي كامل وألفونس والدقاق وصبحي جرجس ومعهم أشقاؤهم الكبار كل مرة يكتمل فيها عمل نحتي لأحد منهم.

صمويل شاربه كثيف أشقر يحتفظ به تحت أنف مثلث ضخم، كأن شفتيه الواضحتين، في تحديد الخطوط حولهما تحملان هذا الشارب، كأنه ينقل الشارب إلى الطرف الآخر ليلعق بأسنانه شفتيه أو يمتص بشفتيه أسنانه، ينبهر الطلاب بالنحات صمويل الذي يبدع في معرض الكلية نحتا بارزا لطابور من الشخصيات الإنسانية تقترب من الفن المصري القديم ورسوم مقبرة راموز بالأقصر.



بهجت يحمل حبات من الحلوى ينثرهـا مـع كلامـه المعسول الساخر.. لا يبدو من فمه بعد ذلك سوى أنف منقار رشيق يتمايل وينحرف إلى أسفل كالطيور عندما تتطرق إلى الأرض بعد رحلة طيران صغيرة.

ويبدع كمال خليفة أعمالا صغيرة من النحت تصـبح محط إعجاب طلاب الفنون عامة. ويظهر عمل نحتي كبيـر لأحمد عبد الوهاب.. وأحجام نحتية غاية في السحر والأناقة لوجوه مصرية لها حليات البيوت في النوبة لنـاجي كامـل. وتمثال الإنسان الكبير والرأس الحجري لحسن صادق علامة جديدة في فن النحت المصري المعاصر. ويخـرج صـبحي جرجس ملطخا بالطين الطيب على وجهه صائحا في مـرح كلما أتم عملا جديدا.

عندما يهبط من سيارته الأنيقة أمام بوابة الكلية يشخلل بمفاتيح سيارته، يسير بخطواته الكانجاريـة وكأنـه يركـب حصانا. يضيع الخوف من نظرات الصـقر عنـدما تفاجـأ بابتسامة واسعة للفم تحت شارب كـلارك جيبـل الأنيـق، وتتقوس الشفة السفلى في إطار الحب المفاجئ والتقـاط أيـة كلمة في رحابة وقلب مفتوح إنه عزت صقر الطالب المتفوق

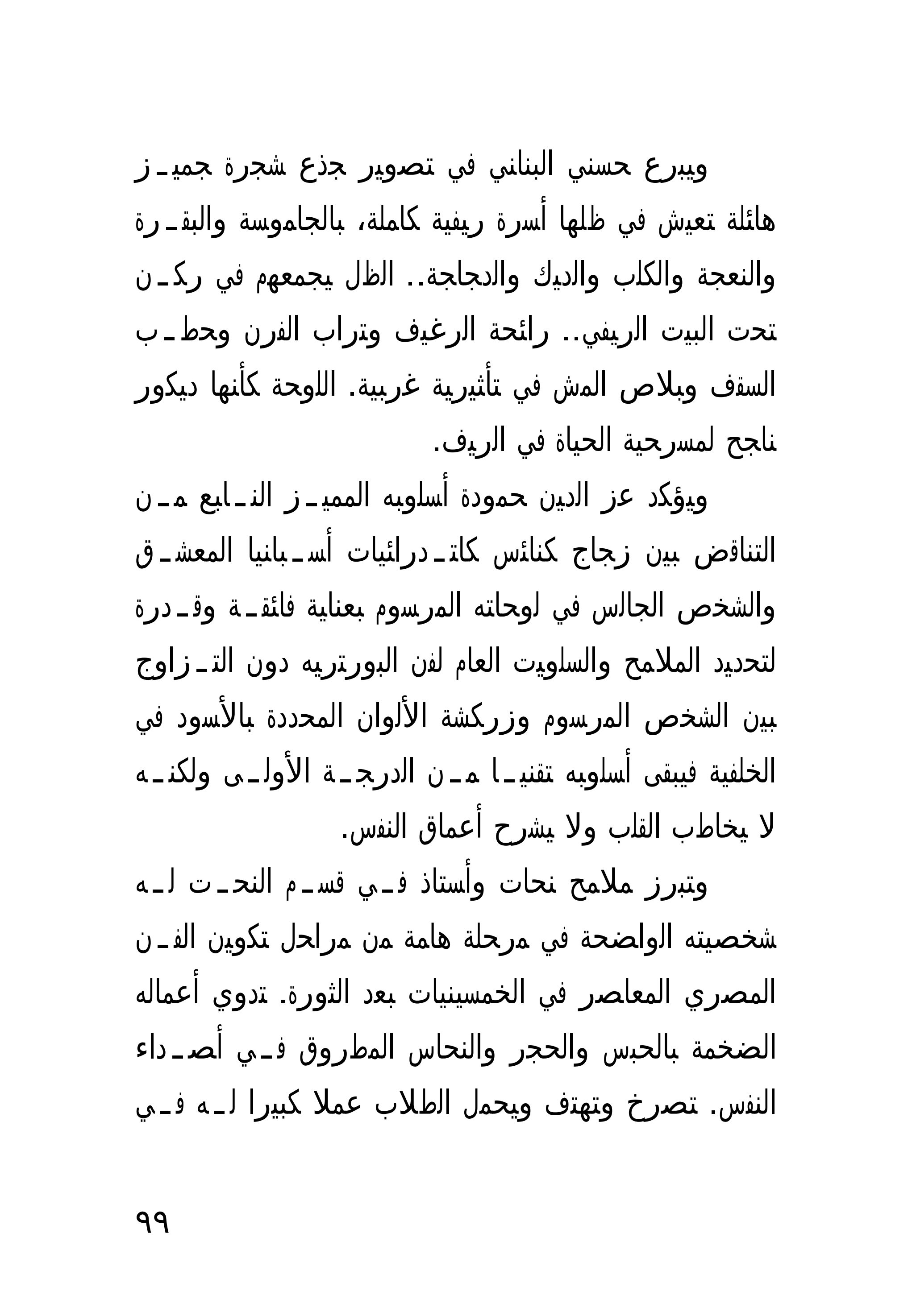
معبود الطلاب والطالبات في الكلية، فارس الهندسة والمعمار ولاعب كرة الطاولة في فترات الراحة وصانع خرائط ومنظورات البناء الحديث، تراه في كل مكان مع نادية.

رقبتها رقبة طائر يحمل رأس حمامة، لها عيون زرقاء واسعة، عندما يراها فلتس يرتجف وتسقط عيناه إلى الأرض خوفا من لقاء عينيها. الرأس له إطار من الذهب من الشعر الطويل الأصفر الذي يصل إلى ما بعد الكتفين حتى قبل المؤخرة فتبدو في اكتناز النصف السفلي في شكل هرمي، ترتعش خصلات الشعر المتعرج قليلا في نغمة موجة ماء النيل فوق رداء طويل دائما يصل إلى ما فوق الكعبين، تتمخطر كل صباح في هدوء وصمت مرهف كأنها تسير على سطح ماء لبركه هادئة.. تصعد الدرج إلى المرسم حاملة أدواتها ومجلد الاسكتشات والدراسات وتبقى جالسة من الصباح حتى المساء تتأمل الموديل وتضع لمسات فرشاتها غالبا بالأزرق على اللوحة فيما عدا لحظات قضم الساندوتش وزجاجة الكولا. يختفي وجهها الجميل ساعات طويلة خلف اللوحة. لا يرى فلتس منها سوى جزء من الشعر وقدميها أسفل الحامل حتى يأتي فلا يراقبهما بعد ذلك.

عندما تتحدث تهمس. تبتسم ثم فجأة عنـدما تضـحك تصبح شفتاها بعرض الوجه ويتسـع فـي لحظـة وتظهـر الأسنان. لا مكياج ولا لون سوى الوردي المطبوع لبشرتها، على الطبيعة.

يبرع أستاذ التصوير الزيتـي كامـل مصـطفى فـي معرض للأساتذة العائدين من روما في متحف الفن الحـديث ذي المشربيات العديدة (زهرة قصور وسط البلد).

وثمة تهديد يصل إلى أسماع الطلاب وعشاق الفنـون الجميلة بهدم القصرين اللذين يطلان علـى سـاحة ميـدان التحرير حيث يشيد الآن الهيلتون . جدارية أنيقة تمثل نجيب وجمال وصلاح وأنور وحسن وحسين وعبد الحكيم وزكريـا وخالد وكمال عبد اللطيف في زيهم العسكري لهـم زهـوة النجاح، غارقون في الألوان الوردية والملامـح السـينمائية وليس على سـيماهم رمـال الصـحراء وكفـاح الحـرب ولا حصار الفلوجة ولا ضربات المدفع الفاسد في حرب ٤٨ ولا اجتماعات تحت الأرض بين العرق والـدم ولا صـراع الفكر المختلف ولا مسئولية الوطن..



ويبرع حسني البناني في تصوير جذع شجرة جميز هائلة تعيش في ظلها أسرة ريفية كاملة، بالجاموسة والبقرة والنعجة والكلاب والديك والدجاجة.. الظل يجمعهم في ركن تحت البيت الريفي.. رائحة الرغيف وتراب الفرن وحطب السقف وبلاص المش في تأثيرية غريبة. اللوحة كأنها ديكور ناجح لمسرحية الحياة في الريف.

ويؤكد عز الدين حمودة أسلوبه المميز النابع من التناقض بين زجاج كنائس كاتدرائيات أسبانيا المعشق والشخص الجالس في لوحاته المرسوم بعناية فائقة وقدرة لتحديد الملامح والسلويت العام لفن البورتريه دون التزاوج بين الشخص المرسوم وزركشة الألوان المحددة بالأسود في الخلفية فيبقى أسلوبه تقنيا من الدرجة الأولى ولكنه لا يخاطب القلب ولا يشرح أعماق النفس.

وتبرز ملامح نحات وأستاذ في قسم النحت له شخصيته الواضحة في مرحلة هامة من مراحل تكوين الفن المصري المعاصر في الخمسينيات بعد الثورة. تدوي أعماله الضخمة بالحبس والحجر والنحاس المطروق في أصداء النفس. تصرخ وتهتف ويحمل الطلاب عملا كبيرا له في

احتفال أعياد الثورة الأولى يجوبون به شـوارع القـاهرة.. ذراعان يحملان القوة والصلابة.. جمال السـجيني يظهـر كملتزم كبير بطموحات الشعب في مرحلته الجديدة. يرسـم لوحاته ويطرقها على النحـاس لتحطـيم الأغـلال لبطـل أسطوري في بريق الذهب ويصبح تمثاله الجديد بعد العدوان الثلاثي «أم صابر» سيد درويش وأم كلثوم وعبـد الوهـاب وعبد الحليم حافظ فيفوز بجائزة اليسار المصري.

ويصبح الرسام فلتس فخورا عندما يطلب منـه رسـم لوحة إهداء لكتاب عن السجيني، يحملهـا صـديقه الرسـام بهجت ويركب الترام وينساها في الترام فيطلب من صـديقه فلتس معتذرا ومبتلا من عرق الأسف فيرسمها فلتس للمـرة الثانية وتصبح طبق الأصل من الذاكرة البصرية ولا يعرف الأستاذ السجيني سر تأخر اللوحة الميدالية.

الضوء حافة صغيرة تسقط على جانب الوجه، والعين غائرة لا ترى ولكنها تقابلك وتتطلع إليك في ركنها المظلـم تحت عظمة الجبهة وفي حراسة الأنف.. العـين كـرة فـي الكورنر لا يلعبها ولكنه يضعها أمامك تحنو إليـك وتتـودد نحوك فتحب الوجه المرسوم. إنه لا يرسم الوجه كما يراه في

الصورة الفوتوغرافية. ولكن تبكي العيـون لـدى وجوهـه فتخجل وتختفي. يتسلق الظل وردة خائفة من النور وينحـت رقبة امرأة تحمل رأس طائر فيغرد مزمار ويضـحك بعـد البكاء كمال خليفة.

يعيش الظل عند حسن سليمان ويصبح شـهادة علـى النور الذي يسقي الزجاجة والكوب والإناء. ويعود مغتبطـا يدور كما الساقية عاقدا يديه خلف ظهره قبل التوقيـع علـى جانب اللوحة.

ويعود فلتس تفترسه الهواجس السياسية. ورياحها تهب على عقول الشباب في الكلية ولا يلتفت إليها الأساتذة، بل إن الطالب وليم إسحق انتهز مظاهرة (من شوارع الزمالك إلـى قصر عابدين) لتأييد الثورة ليوزع أوراقًـا علـى الطـلاب. تسقط ورقة في يد فلتس فيقرأ فيهـا كلامـا عـن الحـزب الشيوعي المصري وجماعة أنصار السلام وأهدافها تكـوين مجتمع يعدل بين الطبقات فيشتبك في معركة كلاميـة مـع الأستاذ السجيني والطلاب الملتزمين سياسيا في مرسم جمال كامل ويحضر محاضرة لحسين بيكار «كيف نقرأ اللوحـة» وقد لمعت في ذهنه لوحته الأخيرة «الناس والحجارة».

يقول بيكار في قراءته للوحات التـأثيريين: الأخضـر يعانق الأزرق والأصفر يهرب من الأحمر فيصبح خجـولا في لون البنفسج والشمس فاترة تسري في فروع شجرة شابة تشب بصعوبة وسط أحراش الحقل، والغابة تريـد أن تـرى نورها فيصبح أصفر فاترا بلون الليمون قبل أن يسقيه مـاء المطر وسيول شتاء البورجوني، وتتشـعلق أطـراف أوراق العنب فيصبح العنقود طفلا في لون النبيذ الوردي القادم بعد العصر، والتخزين في براميل التورنس والمأكون والبوردوه والروسيليون. تتنوع الباليتة التأثيرية من مانيه إلى سيسلي إلى جوجان ويقف بينهم جبل الحنطة من أعلى فينام فلاح أخضر في أحضان زوجته في ظل حصاد القمح ويبرق لون الذهب في عيني فان جوخ.. فيهتدي إلى الظل ويتوارى فـي قبـره بجوار أخيه ثيو.

الموديل نعيمة هذه المرة. تجلس بملابسها كاملة علـى ما يشبه المقعد فهو صندوق قديم وضعت عليه شلتة قطنيـة ومغطاة بأقمشة قديمة عليها رسـوم ورد باهـت (الأقمشـة العديدة الموجودة بصفة دائمة في دولاب المرسـم تسـتعمل

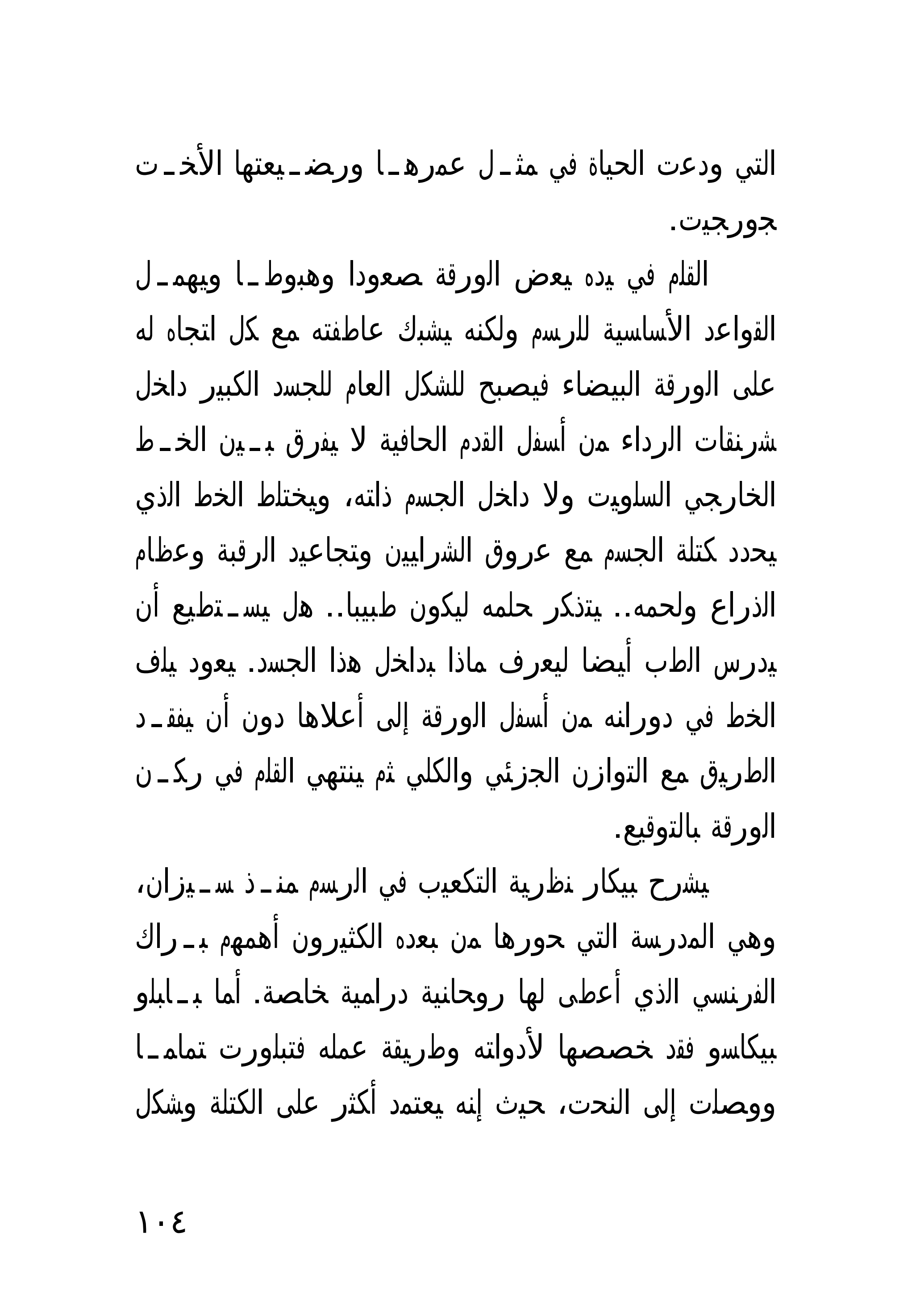
كديكور للموضوع سواء كان طبيعة صامتة من إناء وطبـق وإبريق أو تصبح نفس القماشة ستارة خلف وجه الموديل).

أهم ما في نعيمة هو وجهها المليء بالحزن، والعيـون الجميلة تحت حواجب وبشرة ناعمة مشدودة على تضـاريس عظام الوجه، والرقبة نحيلة طويلة تشدها عروق وخطوط ألم دفين.

ملابسها الريفية البسيطة تشم منها العرق ودقيق الحقل وخبز البتاو.. إلا أنها في جلستها تفرح وسط الطلاب كأنهـا تضمهم بعينيها. تعرفهم واحدا واحدا.. يكفي أنها الموضـوع لأسبوع كامل من الدراسة.

عظمة الترقوة ظاهرة سمراء كأنهـا حطـب الحقـل والصدر مفتوح يظهر منه خطوط القفص الصدري وبدايـة لحم الثديين المترهلين الصغيرين اللذين يعرفهما الطلاب في رسومهم القديمة والجديدة.

تنعقد اليدان بعد الذراعين فيصبح تلاقي الأصابع شيئا ما يهز الوجدان كأنها ذات العلاقة التي تصاحب قبضته على طرفي القلم الكونتيه، تجري أصابعه وكأنه يتذكر أمه رحمة



التي ودعت الحياة في مثـل عمرهـا ورضـيعتها الأخـت جورجيت.

القلم في يده يعض الورقة صعودا وهبوطـا ويهمـل القواعد الأساسية للرسم ولكنه يشبك عاطفته مع كل اتجاه له على الورقة البيضاء فيصبح للشكل العام للجسد الكبير داخل شرنقات الرداء من أسفل القدم الحافية لا يفرق بـين الخـط الخارجي السلويت ولا داخل الجسم ذاته، ويختلط الخط الذي يحدد كتلة الجسم مع عروق الشرايين وتجاعيد الرقبة وعظام الذراع ولحمه.. يتذكر حلمه ليكون طبيبا.. هل يسـتطيع أن يدرس الطب أيضا ليعرف ماذا بداخل هذا الجسد. يعود يلف الخط في دورانه من أسفل الورقة إلى أعلاها دون أن يفقـد الطريق مع التوازن الجزئي والكلي ثم ينتهي القلم في ركـن الورقة بالتوقيع.

يشرح بيكار نظرية التكعيب في الرسم منـذ سـيزان، وهي المدرسة التي حورها من بعده الكثيرون أهمهم بـراك الفرنسي الذي أعطى لها روحانية درامية خاصة. أما بـابلو بيكاسو فقد خصصها لأدواته وطريقة عمله فتبلورت تمامـا ووصلت إلى النحت، حيث إنه يعتمد أكثر على الكتلة وشكل

المكعب والمثلث والمستطيل والمعين وبقية الأشكال الهندسية حيث تابعت الأشكال مجراها في البحث ذاتـه فـي الوجـه والجسم فبدت الأنف هندسـية والجبهـة مكعبـة والخـدود أسطوانية ومستطيلة والشفاه مكعبين صغيرين والذقن أيضـا وبعدها الرقبة والكتفان وتحولت خطوط الجسد العاري للمرأة إلى مكعبات حتى البطن الناعم والفخذ الأملس، تحـول كـل شيء إلى أحجام هندسية لها ثقل ووزن الكتلة ذاتها.

قبل أن يمحو الزوايا الحادة ويحورهـا إلـى أقـواس ناعمة، يبدأ العمل في رسم المكعب الذي يسقط عليه الضوء من أحد الجانبين فيصبح أبيض وعكسه من الجانـب الآخـر أسود وبينهما درجة الرمادي المتوسطة.

يبدأ النور بأشعة الشمس الصفراء ثـم يتـدرج إلـى السطح الوسط الرمادي المشترك مع الأصفر ثم ينعكس الظل بالأزرق ودرجاته. وتتعدد الأشكال بعد ذلك وتختلف الألوان والتكوينات بسحر الأشكال من التفاحة إلى الوردة إلى الإناء إلى الزجاجة.. وتصل إلى المنظر الطبيعي غير المحدود من الشجرة إلى الحديقة إلى البيوت حسب المنظور الذي يحـدد القريب والبعيد.

يهدأ جو الكلية وقت الغروب بعـد عـودة الطـلاب والأساتذة إلى البيوت ولا يبقى سوى قليل من عشـاق فـن النحت في الفناء الواسع العريض يتعب عم حسـنين الكهـل فينام قبل أن يعود وتتجمع عائلات الريف العاملة كموديلات للطلبة وقد أنهكهم اليوم الطويل والوقوف أو الانضباط فـي حركة واحدة ساعات. أسرة عم هيكل أبو فاطمة وبنته وابنه الصغير فتحي وجليلة الأم التي تتذكر أيام صباها مع الأساتذة الكبار. لقد أعطت من جسدها مثـالا للإنسـانة المصـرية الصميمة، أصبحت الآن أما لثالث مرة وهـذا هـو طفلهـا الأخير يرضع من ثديها أمام الطلبة وقد ترهل الثدي تمامـا وسط الضلوع المتعبة، يناديها عم لطيف نسيم ليعطيها حساب اليوم ويعود الفلاح القادم من الريف بهامته العالية وملامحـه الذكية مع ابنته فاطمة..

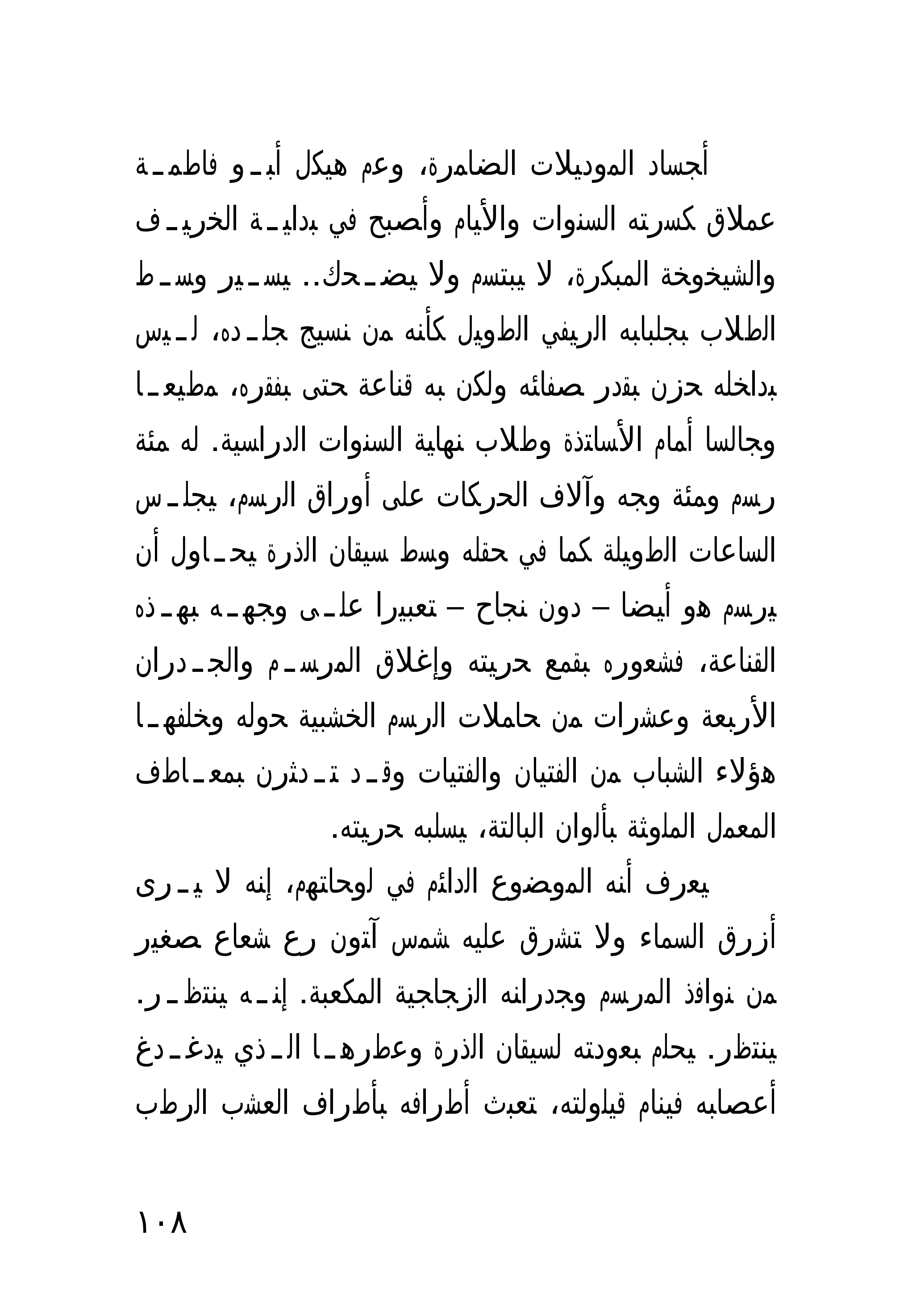
في فناء الكلية في هذه الساعات الهادئة قبـل حلـول المساء تدخل الكلية سيدة معروفة من البوابة وتتجـه يسـارا نحو أحد المراسم المخصصة للنحت. هيفاء سمراء، تختـال. تخطو الخطوة تلو الخطوة كأنها تضع سيقانها في ماء حمـام سباحة دافئ. تصبح خطواتها بعد ذلك تموجات سباحة نحـو

محترف النحت، رجل في الأربعين، هادئ، ساكن، يحمل قطعة الطين ليضعها على القاعدة كأنها وردة صغيرة أو حبة حلوى، تغرق أصابعه في كتلة الطين الأحمر كأنه يغمسها في طبق فول مدمس ثم يضع القطعة على خد الحسناء في التمثال الجديد الذي يبدعه لها.

هذه كانت أول مرة يرى فلتس نجمة السينما المعروفة مديحة يسري وعندما تنتهي حصة جلوسها كموديل للنحات كامل جاويش وتخرج، يعود يكمل العمل بدونها.

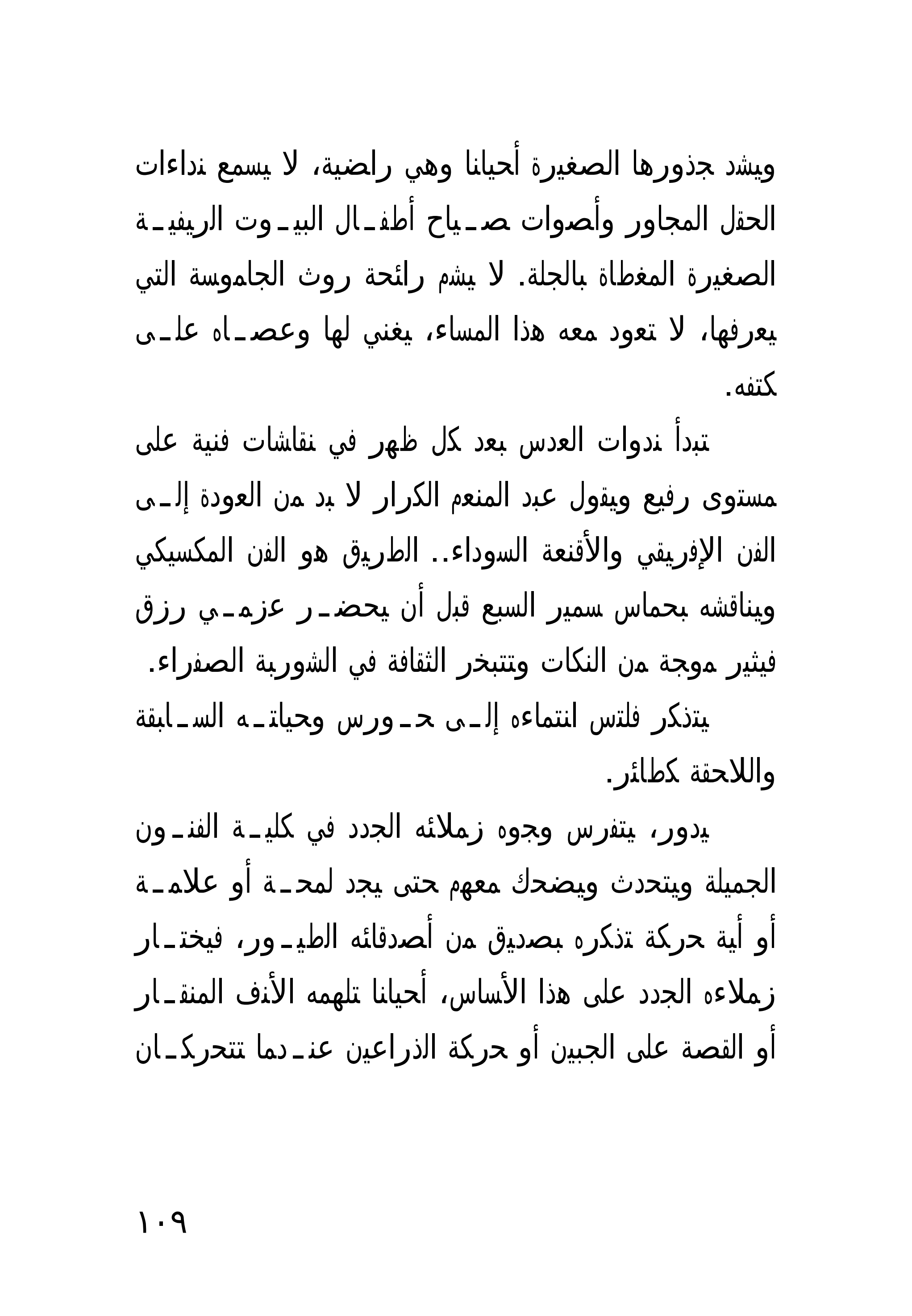
بدأت الكلية عامها الجديد مع أول عميد مصري لها: يوسف كامل، الذي التفت حوله أسرة كاملة من الفنانين تزوجوا بناته جميعا بالصدفة جمال السجيني وحسني البناني وكامل مصطفى.

ويسافر أول الدفعة الطالب اللامع أحمد صبري إلى باريس، وعز الدين حمودة المتفوق في العمارة إلى مدريد، ويرتبط راغب عياد مع يوسف كامل بصداقة وطيدة لم تحدث في تاريخ الصداقة: أحدهما يسافر في بعثة لروما مدتها سنة ويرسل له صديقه النقود وبالعكس.



أجساد الموديلات الضامرة، وعم هيكل أبـو فاطمـة عملاق كسرته السنوات والأيام وأصبح في بدايـة الخريـف والشيخوخة المبكرة، لا يبتسم ولا يضـحك.. يسـير وسـط الطلاب بجلبابه الريفي الطويل كأنه من نسيج جلـده، لـيس بداخله حزن بقدر صفائه ولكن به قناعة حتى بفقره، مطيعـا وجالسا أمام الأساتذة وطلاب نهاية السنوات الدراسية. له مئة رسم ومئة وجه وآلاف الحركات على أوراق الرسم، يجلـس الساعات الطويلة كما في حقله وسط سيقان الذرة يحـاول أن يرسم هو أيضا – دون نجاح – تعبيرا علـى وجهـه بهـذه القناعة، فشعوره بقمع حريته وإغلاق المرسـم والجـدران الأربعة وعشرات من حاملات الرسم الخشبية حوله وخلفهـا هؤلاء الشباب من الفتيان والفتيات وقـد تـدثرن بمعـاطف المعمل الملوثة بألوان البالتة، يسلبه حريته.

يعرف أنه الموضوع الدائم في لوحاتهم، إنه لا يـرى أزرق السماء ولا تشرق عليه شمس آتون رع شعاع صغير من نوافذ المرسم وجدرانه الزجاجية المكعبة. إنـه ينتظـر. ينتظر. يحلم بعودته لسيقان الذرة وعطرهـا الـذي يدغـدغ أعصابه فينام قيلولته، تعبث أطرافه بأطراف العشب الرطب

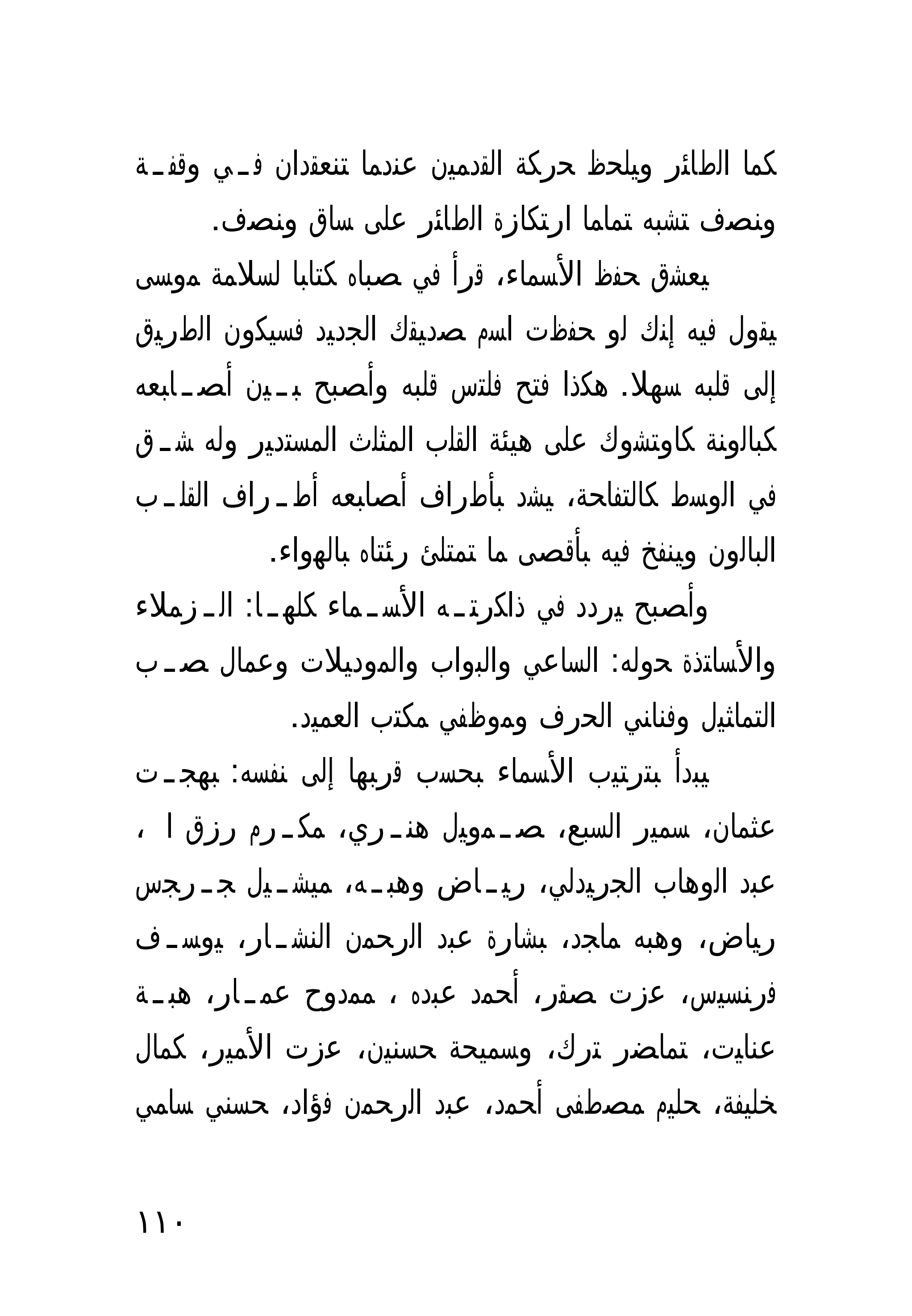


ويشد جذورها الصغيرة أحيانا وهي راضية، لا يسمع نداءات الحقل المجاور وأصوات صـياح أطفـال البيـوت الريفيـة الصغيرة المغطاة بالجلة. لا يشم رائحة روث الجاموسة التي يعرفها، لا تعود معه هذا المساء، يغني لها وعصـاه علـى كتفه.

تبدأ ندوات العدس بعد كل ظهر في نقاشات فنية على مستوى رفيع ويقول عبد المنعم الكرار لا بد من العودة إلـى الفن الإفريقي والأقنعة السوداء.. الطريق هو الفن المكسيكي ويناقشه بحماس سمير السبع قبل أن يحضـر عزمـي رزق فيثير موجة من النكات وتتبخر الثقافة في الشوربة الصفراء.

يتذكر فلتس انتماءه إلـى حـورس وحياتـه السـابقة واللاحقة كطائر.

يدور، يتفرس وجوه زملائه الجدد في كليـة الفنـون الجميلة ويتحدث ويضحك معهم حتى يجد لمحـة أو علامـة أو أية حركة تذكره بصديق من أصدقائه الطيـور، فيختـار زملاءه الجدد على هذا الأساس، أحيانا تلهمه الأنف المنقـار أو القصة على الجبين أو حركة الذراعين عنـدما تتحركـان



كما الطائر ويلحظ حركة القدمين عندما تنعقدان في وقفة ونصف تشبه تماما ارتكازة الطائر على ساق ونصف.

يعشق حفظ الأسماء، قرأ في صباه كتابا لسلامة موسى يقول فيه إنك لو حفظت اسم صديقك الجديد فسيكون الطريق إلى قلبه سهلا. هكذا فتح فلتس قلبه وأصبح بين أصابعه كبالونة كاوتشوك على هيئة القلب المثلث المستدير وله شق في الوسط كالتفاحة، يشد بأطراف أصابعه أطراف القلب البالون وينفخ فيه بأقصى ما تمتلئ رئتاه بالهواء.

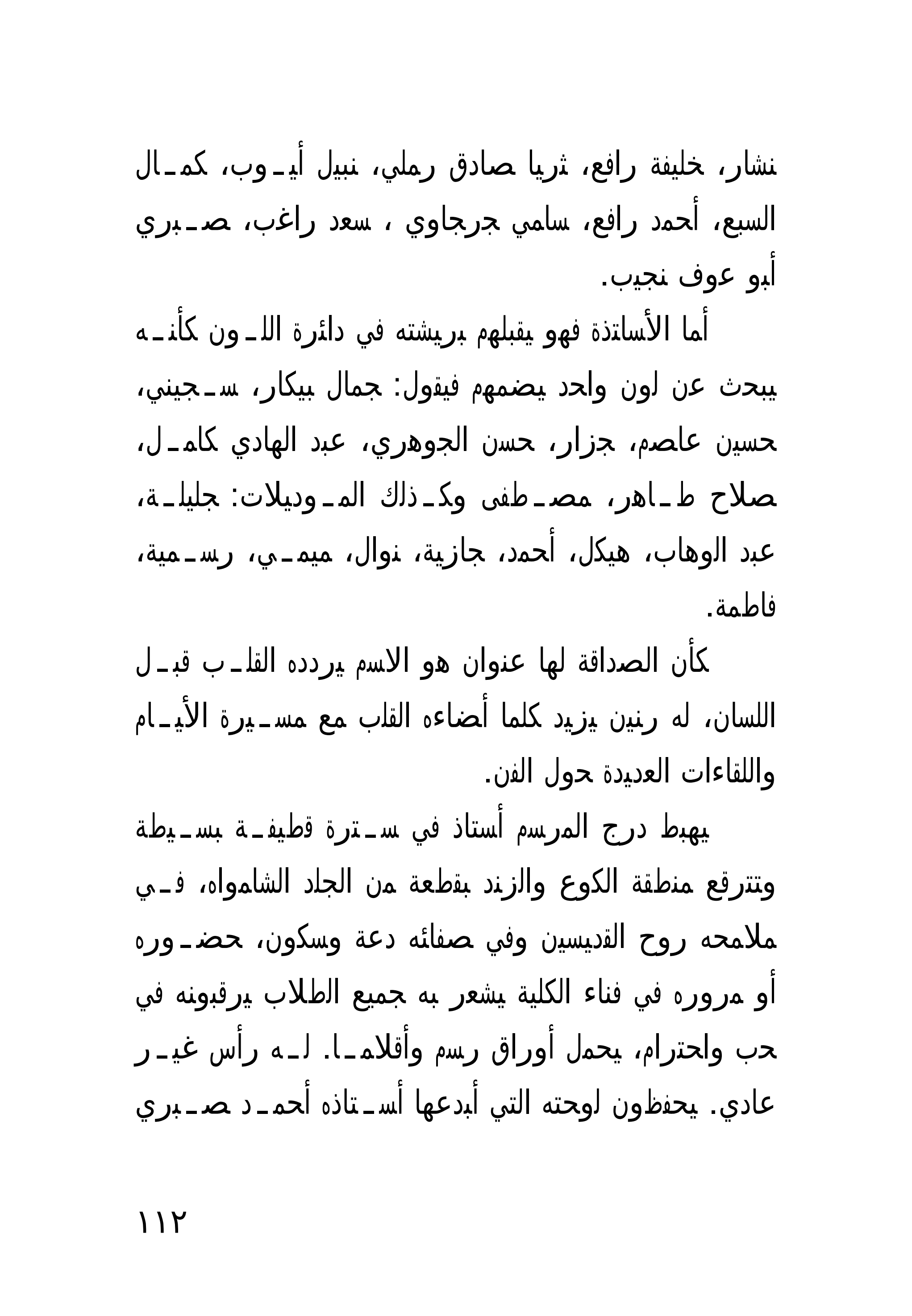
وأصبح يردد في ذاكرته الأسماء كلها: الزملاء والأساتذة حوله: الساعي والبواب والموديلات وعمال صب التماثيل وفناني الحرف وموظفي مكتب العميد.

يبدأ بترتيب الأسماء بحسب قربها إلى نفسه: بهجت عثمان، سمير السبع، صموئيل هنري، مكرم رزق ا ، عبد الوهاب الجريدلي، رياض وهبه، ميشيل جرجس رياض، وهبه ماجد، بشارة عبد الرحمن النشار، يوسف فرنسيس، عزت صقر، أحمد عبده ، ممدوح عمار، هبة عنايت، تماضر ترك، وسميحة حسنين، عزت الأمير، كمال خليفة، حليم مصطفى أحمد، عبد الرحمن فؤاد، حسني سامي

رافع ، ناجي كامل، زينب السجيني، رءوف عبـد المجيـد، كمال حمودة الدقاق، سمير متري فيليـب، حسـن صـادق، روحية توفيق، فكرية الدياسطي، عبد المنعم القصاص، سمير راغب، صبحي الشاروني، سـعد شـحاته، أنـس أنسـي، عبد الحليم البرجيني، فاطمة العرارجي، إبـراهيم شـهدي، حسن سليمان، حامد ندا، سعد الجرجاوي، كنج منير، عزيز أحمد عبد الوهاب، منير إسـكندر، عصـام شـحاتة، ثريـا العجيزي، صفية رجب ، نبيل الرملي ، كمال أيوب، أحمـد إسماعيل.

وأحيانا يختلط عليه الأمر فتصبح الأسـماء زخـارف مبهجة في قلبه فيرددها في نفسه على طريقته كأنه يرسـمها بيتبادل الزخارف، المثلث مع الوردة، والمربع مع الرعشـة، والأفقي مع العمودي، والكسرة مع النقطة، والصـليب مـع الدائرة، والنجمة مع الهلال، والعقدة مع البسطة، واللولب مع العمود، والسهم مع الحلزون.

ويذكر أسماء أصدقائه الجدد الذين تعرف عليهم وتمنى أن يكونوا جميعهم أصدقاءه: سمير مكرم، ريـاض عمـار، حسنين أمير، عدلي راغب، فهيم حسن، فتحي سليمان، عزت

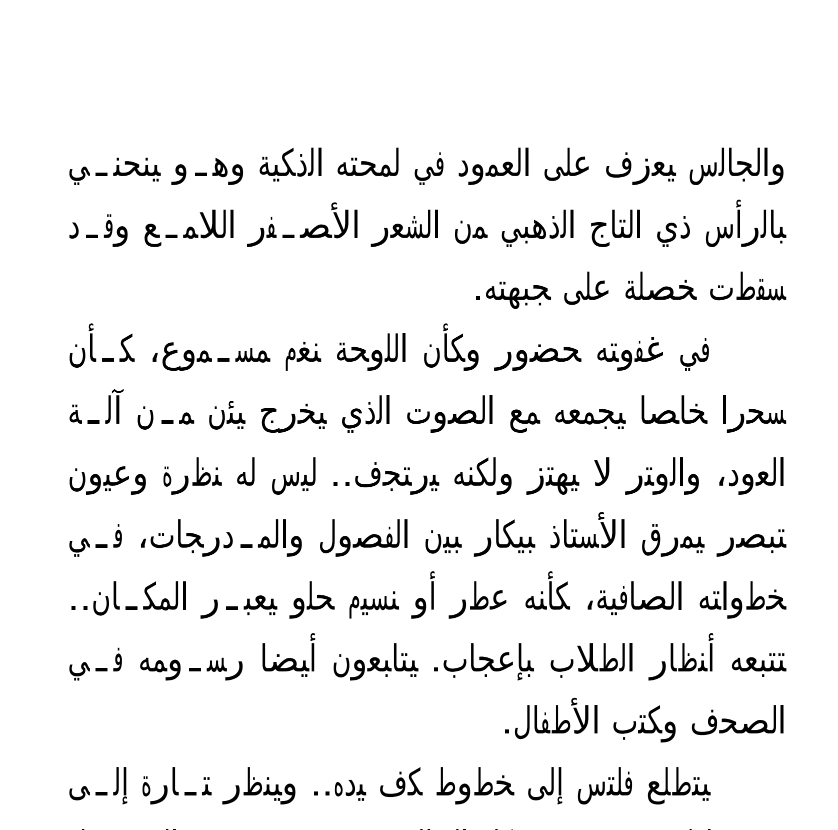


نشار، خليفة رافع، ثريا صادق رملي، نبيل أيـوب، كمـال السبع، أحمد رافع، سامي جرجاوي ، سعد راغب، صـبري أبو عوف نجيب.

أما الأساتذة فهو يقبلهم بريشته في دائرة اللـون كأنـه يبحث عن لون واحد يضمهم فيقول: جمال بيكار، سـجيني، حسين عاصم، جزار، حسن الجوهري، عبد الهادي كامـل، صلاح طـاهر، مصـطفى وكـذلك المـوديلات: جليلـة، عبد الوهاب، هيكل، أحمد، جازية، نوال، ميمـي، رسـمية، فاطمة.

كأن الصداقة لها عنوان هو الاسم يردده القلـب قبـل اللسان، له رنين يزيد كلما أضاءه القلب مع مسـيرة الأيـام واللقاءات العديدة حول الفن.

يهبط درج المرسم أستاذ في سـترة قطيفـة بسـيطة وتترقع منطقة الكوع والزند بقطعة من الجلد الشامواه، فـي ملامحه روح القديسين وفي صفائه دعة وسكون، حضـوره أو مروره في فناء الكلية يشعر به جميع الطلاب يرقبونه في حب واحترام، يحمل أوراق رسم وأقلامـا. لـه رأس غيـر عادي. يحفظون لوحته التي أبدعها أسـتاذه أحمـد صـبري

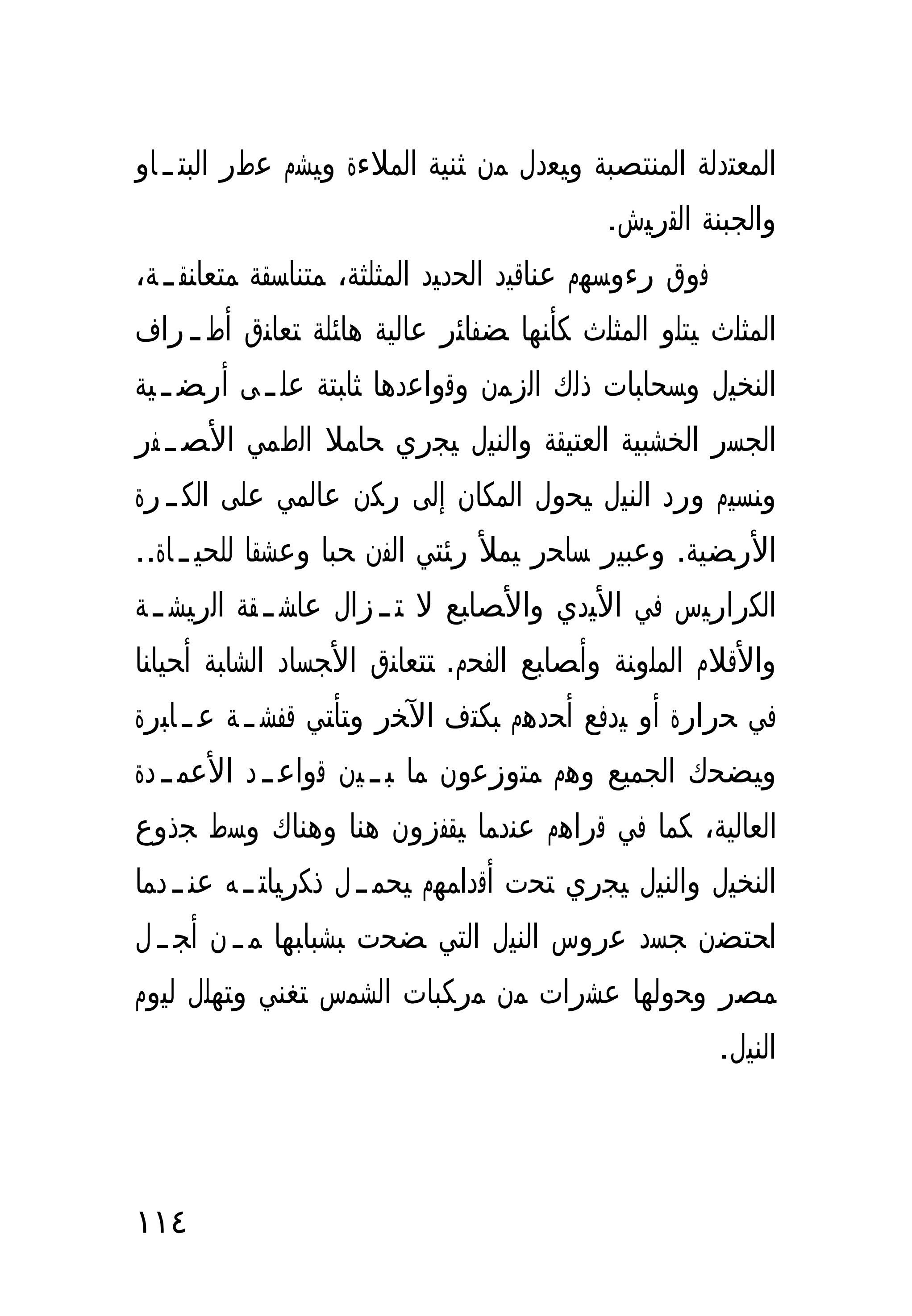


والجالس يعزف على العمود في لمحته الذكية وهو ينحني بالرأس ذي التاج الذهبي من الشعر الأصفر اللامع وقد سقطت خصلة على جبهته.

في غفوته حضور وكأن اللوحة نغم مسموع، كأن سحرا خاصا يجمعه مع الصوت الذي يخرج يئن من آلة العود، والوتر لا يهتز ولكنه يرتجف.. ليس له نظرة وعيون تبصر يمرق الأستاذ بيكار بين الفصول والمدرجات، في خطواته الصافية، كأنه عطر أو نسيم حلو يعبر المكان.. تتبعه أنظار الطلاب بإعجاب. يتابعون أيضا رسومه في الصحف وكتب الأطفال.

يتطلع فلتس إلى خطوط كف يده.. وينظر تارة إلى وجه فاطمة بنت عم هيكل الجالسة في وضع الموديل بفستانها الريفي الوردي ذي الكرانيش العديدة. حرقت الشمس ألوانه المصبوغة وأصبح كالحا مع لون بشرتها القمحي الجاف. حزينة بلا بسمة ولا كلمة. هادئة كما خيال المآتة في الحقل لا تخيف عصفورا ولا إنسا ولا جنا.

فاطمة هيكل في الخامسة عشرة جالسة وسط لوحات طلاب سنة ثانية فنون، يقترب فلتس خارجا من وراء لوحته



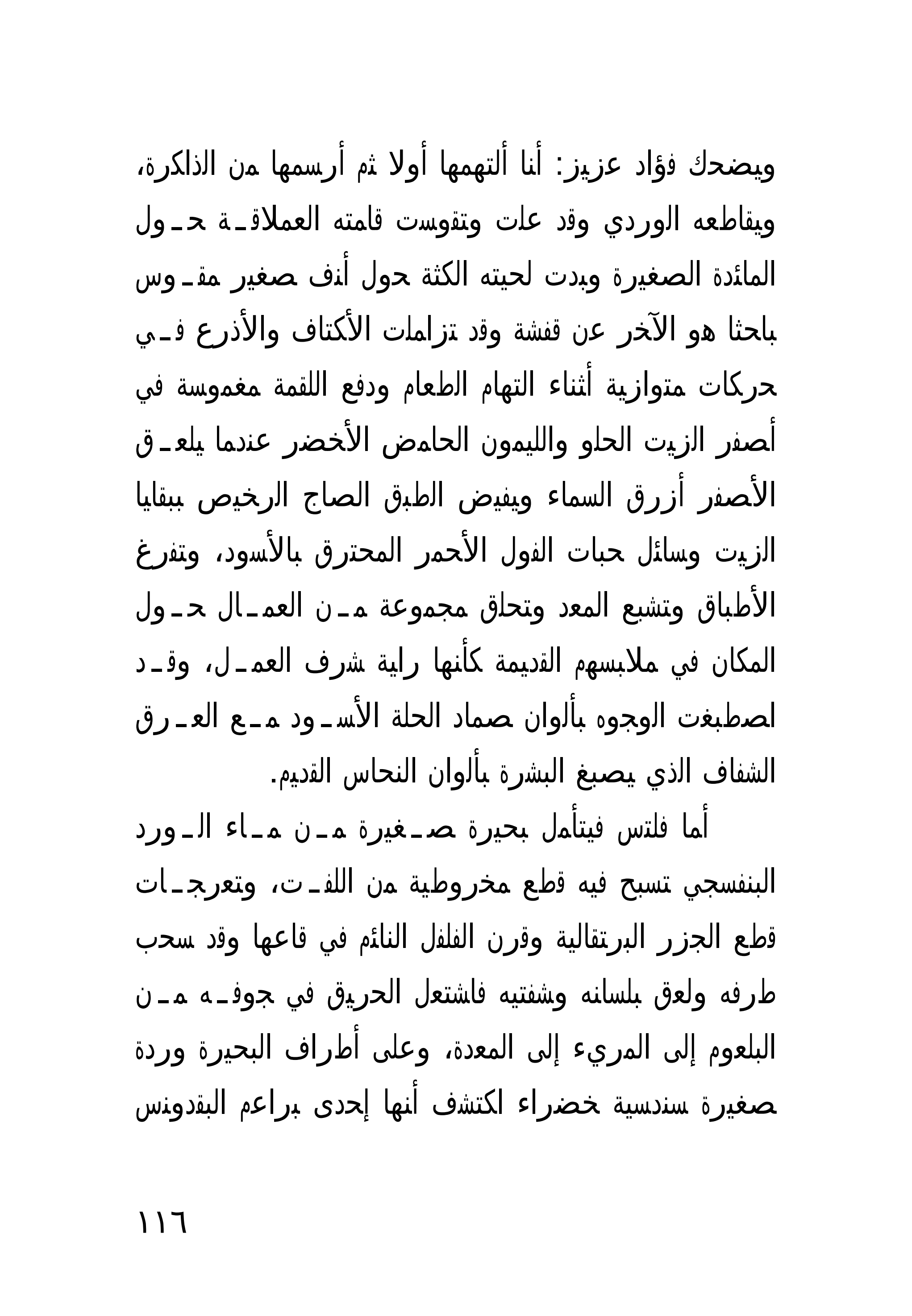
المعتدلة المنتصبة ويعدل من ثنية الملاءة ويشم عطر البتاو والجبنة القريش.

فوق رءوسهم عناقيد الحديد المثلثة، متناسقة متعانقة، المثلث يتلو المثلث كأنها ضفائر عالية هائلة تعانق أطراف النخيل وسحابات ذلك الزمن وقواعدها ثابتة على أرضية الجسر الخشبية العتيقة والنيل يجري حاملا الطمي الأصفر ونسيم ورد النيل يحول المكان إلى ركن عالمي على الكرة الأرضية. وعبير ساحر يملأ رئتي الفن حبا وعشقا للحياة.. الكراريس في الأيدي والأصابع لا تزال عاشقة الريشة والأقلام الملونة وأصابع الفحم. تتعانق الأجساد الشابة أحيانا في حرارة أو يدفع أحدهم بكتف الآخر وتأتي قفشة عابرة ويضحك الجميع وهم متوزعون ما بين قواعد الأعمدة العالية، كما في قراهم عندما يقفزون هنا وهناك وسط جذوع النخيل والنيل يجري تحت أقدامهم يحمل ذكرياته عندما احتضن جسد عروس النيل التي ضحت بشبابها من أجل مصر وحولها عشرات من مركبات الشمس تغني وتهلل ليوم النيل.

ويفيق فلتس من تأملاته وهم يعبرون جسر أبو العلاء الكبير كأنه ظهر جمل عملاق أسطوري يحملهم إلى الرصيف الآخر عند مدخل بولاق.

يدخلون تباعا في أقبية الحوانيت الصغيرة الساخنة ورائحة الطعمية تشغل الأنوف فيسيل اللعاب ما بين الفك وسقف اللسان الجاف بعد السير الطويل وتعب الرسم اللذيذ، وتزغرد في ضيق هذه القطع النحاسية الصغيرة داخل الجيوب، يطمئن كل منهم على وجودها ليدفع منها وجبته المكونة من رغيف مستدير كالقمر، كوجه حبيبة فلتس الأولى «انشراح» في ريف منوف حيث وابور الطحين والدقيق الساخن يغمر وجهيهما. لفتة سريعة يتذكرها وهو يقضم الرغيف وقد جاءته أقراص الطعمية تلعب أو تتزحلق على الجليد الناري...

يتبادلون الكلمات القليلة المضحكة فيعلق فلتس على طبق الطعمية مع الرغيف وكوز الماء بأنه درس الطبيعة الصامتة، ويقول رءوف إنها تتكلم وليست صامتة بدليل زقزقة غليان الزيت المسموع. إنها حية تسد لنا الجوع، ويقول الجريدلي لوحة عشاء البطاطس الساخنة لفان جوخ،



ويضحك فؤاد عزيز: أنا ألتهمها أولا ثم أرسمها من الذاكرة، ويقاطعه الوردي وقد علت وتقوست قامته العملاقـة حـول المائدة الصغيرة وبدت لحيته الكثة حول أنف صغير مقـوس باحثا هو الآخر عن قفشة وقد تزاملت الأكتاف والأذرع فـي حركات متوازية أثناء التهام الطعام ودفع اللقمة مغموسة في أصفر الزيت الحلو والليمون الحامض الأخضر عندما يلعـق الأصفر أزرق السماء ويفيض الطبق الصاج الرخيص ببقايا الزيت وسائل حبات الفول الأحمر المحترق بالأسود، وتفرغ الأطباق وتشبع المعد وتحلق مجموعة مـن العمـال حـول المكان في ملابسهم القديمة كأنها راية شرف العمـل، وقـد اصطبغت الوجوه بألوان صماد الحلة الأسـود مـع العـرق الشفاف الذي يصبغ البشرة بألوان النحاس القديم.

أما فلتس فيتأمل بحيرة صـغيرة مـن مـاء الـورد البنفسجي تسبح فيه قطع مخروطية من اللفـت، وتعرجـات قطع الجزر البرتقالية وقرن الفلفل النائم في قاعها وقد سحب طرفه ولعق بلسانه وشفتيه فاشتعل الحريق في جوفـه مـن البلعوم إلى المريء إلى المعدة، وعلى أطراف البحيرة وردة صغيرة سندسية خضراء اكتشف أنها إحدى براعم البقدونس

وتزحلقت عن يمينها بلية صغيرة سـوداء ومعهـا حبتـان خضراوان من الزيتون تلمعان وسط الألوان المائية لصـحن الطرشي الصاج المقوس. اعتلاه بيديه الاثنتين وأصبح وجهه هو قاع الطبق وماء البحيرة ينسكب في أعماقه يطفـئ نـار الطعمية المقلية وتشرشب قطرات الطرشي ساقطة من خلف الطبق المقلوب على خديه وذقنه.

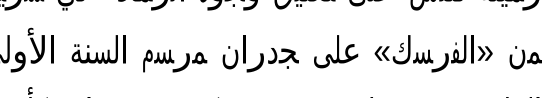
إمبابة فناء وخيـام وأكشـاك وسـرادقات مزركشـة الأضواء وأركان للرقص والغناء، كل شيء يصدح ويصـيح ويهلل، والفرحة تغمر الجميع وبركـة لسـيدي الإمبـابي.. وجاءت أستاذة الرسم نعمة كامل مع زوجها التاجر صـلاح سعودي، وأقبلت بعض السيدات وأزواجهن من أهل الـذوات والأرستقراط، هبطوا من العمارات اللوكس على نيل الجيزة. وجاءوا وسط الزمر والطبل والرق وشخاليل العـوالم، فـي عيونهم كحل يكفي ألف عين وعلى شفاههم أحمر لأكثر مـن شفاه، والخدود وردية أكثر من الورد والخرز اللامع، وقطع الحلي النحاسية حول الرقبة وتحت الأذنين وفوق قمة المنديل «البأويه» والحزام، الذي يلف الخصـر بعـد نهايـة دوران الفخذ، يهتز مع النغم الجزء الأسفل ويتـداعى إلـى الأمـام

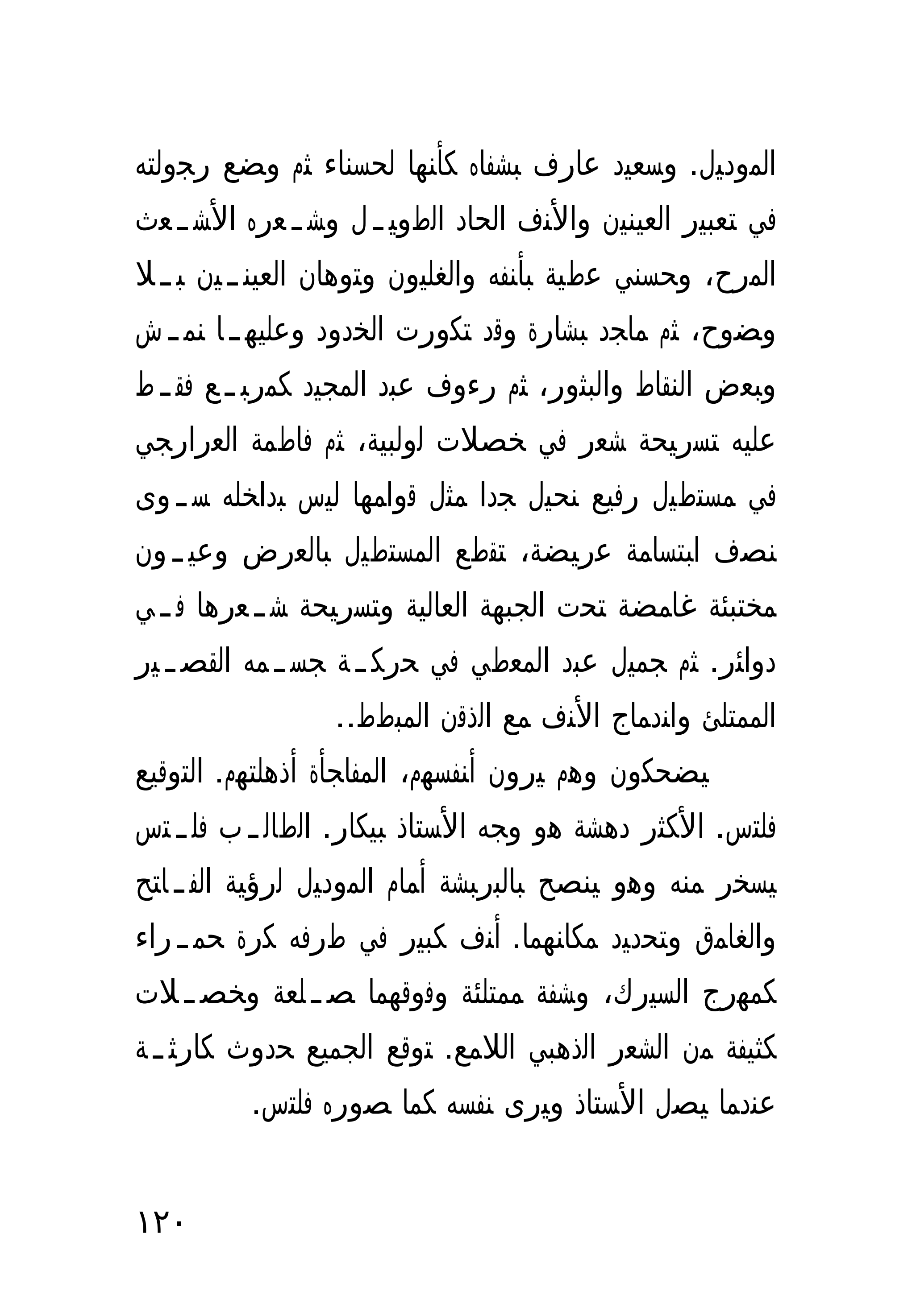
الجزء الأعلى وترتفع الأيادي المحلاة بألف أسورة، والشخاليل مشبوكة في الأصابع.

فلتس محشورا في الزحام لا يضل الطريق فقد أمسك بزميله وصديقه الحميم بهجت ومعهما صمويل وممدوح عمار. ويصبح المكان أمواج بحر من البشر والفرحة تعم الجميع ولا مشاجرة ولا خلافا ولا دفع بالأكتاف ولا بالصدور ولا تلامس لأجساد النساء ولا بكاء طفل على صدر أمه الحبيبة، بل نعاس على أكتاف الأب العالية. كأن سيدي الإمبابي يجمعهم ويباركهم، الصغار يحملون البالونات والكبار يمضغون «هوليود شوينج جام» والنساء الريفيات يحملن صرة من خبز وجبن وخيار وطماطم.

ينتهي المولد مع شتائم الحب في أقصى حالاته.. وتنطفئ النكات اللاذعة وتقول المعلمة قبل أن تنام على حصيرة ومخدة وفوقها إبريق الشاي وأحد المزيكاتية يطلب شايا فتقول لابنتها قبل أن تنام «اعمليله شاي على ميه وسخة» ويضحك الجميع بدون مخدرات هذه المرة، وينامون في اطمئنان.

تجارب الكراسة في يد فلتس بدأت تحظى باهتمام الزميلات والزملاء وتحمس رياض وهبة الصديق الضاحك الحالم وكان أحد المعجبين بفن زميله الصغير في الحجم والطول، رغم أنه أكثر من سخر منه في رسمه لوجهه وكأنه في إحدى جلسات الحشاشين والمسطولين.. وجهه يبعث على البهجة. وجه ناعس مبطط في سمرة وجوه الشمس وأولاد البلد. يرسمه فلتس بشاربه العريض الذي يملأ وجهه من اليسار، وتحته شفتان تحرضان على الابتسام الدائم.

المفاجأة تحدث في أحد الصباحات وقد ساعد رياض زميله فلتس على تعليق وجوه الزملاء في شريط كأنه جدارية 
من «الفرسك» على جدران مرسم السنة الأولى. بادئا بوجهه الغائب في سعادة ثم وجه مكرم رزق ا كأنه بعمامة في رقبة طويلة تبدأ عند العنق والكتفين وتملأ الصفحة حتى رأس صغير ليس به سوى عينين غائرتين واسعتين. ثم وجه ميشيل بحواجبه الكثيفة كأنها خط غليظ واحد، وشفاهه ممطوطة بلا أنف ولا ذقن. ثم وجه عبد الوهاب الجريديلي مبططا، العينان نائمتان وشارب رقيق مرهف حول شفتين عريضتين وله مطة في الرقبة كعادته عندما ينظر إلى


الموديل. وسعيد عارف بشفاه كأنها لحسناء ثم وضع رجولته في تعبير العينين والأنف الحاد الطويـل وشـعره الأشـعث المرح، وحسني عطية بأنفه والغليون وتوهان العينـين بـلا وضوح، ثم ماجد بشارة وقد تكورت الخدود وعليهـا نمـش وبعض النقاط والبثور، ثم رءوف عبد المجيد كمربـع فقـط عليه تسريحة شعر في خصلات لولبية، ثم فاطمة العرارجي في مستطيل رفيع نحيل جدا مثل قوامها ليس بداخله سـوى نصف ابتسامة عريضة، تقطع المستطيل بالعرض وعيـون مختبئة غامضة تحت الجبهة العالية وتسريحة شـعرها فـي دوائر. ثم جميل عبد المعطي في حركـة جسـمه القصـير الممتلئ واندماج الأنف مع الذقن المبطط..

يضحكون وهم يرون أنفسهم، المفاجأة أذهلتهم. التوقيع فلتس. الأكثر دهشة هو وجه الأستاذ بيكار. الطالـب فلـتس يسخر منه وهو ينصح بالبربشة أمام الموديل لرؤية الفـاتح والغامق وتحديد مكانهما. أنف كبير في طرفه كرة حمـراء كمهرج السيرك، وشفة ممتلئة وفوقهما صـلعة وخصـلات كثيفة من الشعر الذهبي اللامع. توقع الجميع حدوث كارثـة عندما يصل الأستاذ ويرى نفسه كما صوره فلتس.

حضر بيكار وقبله واحتضنه وأخذه في سـيارته إلـى صاروخان ومنه إلى رحلة النجاح في فن الكاريكاتير.

جلست روحية الهيفاء السمراء علـى قطعـة حجـر. تضحك خلف كراسة كبيرة تفتحها ومن خلفها شاب نحيل كل ما فيه يبتسم لا تغادره نغازة خديه وقد التوى أنفـه الطويـل حول أسنانه الناصعة البياض يضحك هو أيضا. وكلما ضحك تسقط إطارات عويناته فيرفعها بيديه. رسـوم بهجـت عـن روحية تذيب المشاعر وتبعث البهجة في المكان كأنـه اسـم على مسمى.

يلتقي فلتس ببهجت وتنشأ بينهمـا صـداقة وطيـدة.. وينضم إليهما صمويل ويصبح الثلاثة متكـاملي الطبـاع.. تجمعهم رحلة إلى الإسكندرية بدعوة من أستاذة الرسم نعمـة كامل، يقضون إجازاتهم في قرية (المعديـة) حيـث تمتلـك أسرتها شاليها وسط الشاطئ ما بين المنزلة والبرلس وحولهم حقول الطماطم التي تنمو وسط الرمل الأبيض الناعم.

سمكة تحولت مع الملح إلى رنجة جافة يرسمها فلتس في درس من دروس التقنية الحفرية.. في خيـوط الخطـوط تداعي اللون الذهبي على قشرة السمكة ورأسها الجاف له فم

مفتوح يتأوه.. تعبير أضاف إليه فلـتس فكـرة الاستشـهاد بتلقائية ربما أو بدون وعي. اجتذب الرسم الصديق الجديـد بهجت واصطحبه في تجولاته وسط مراسم وفناء الكلية قبـل وبعد الصعود إلى معامل الرسم.

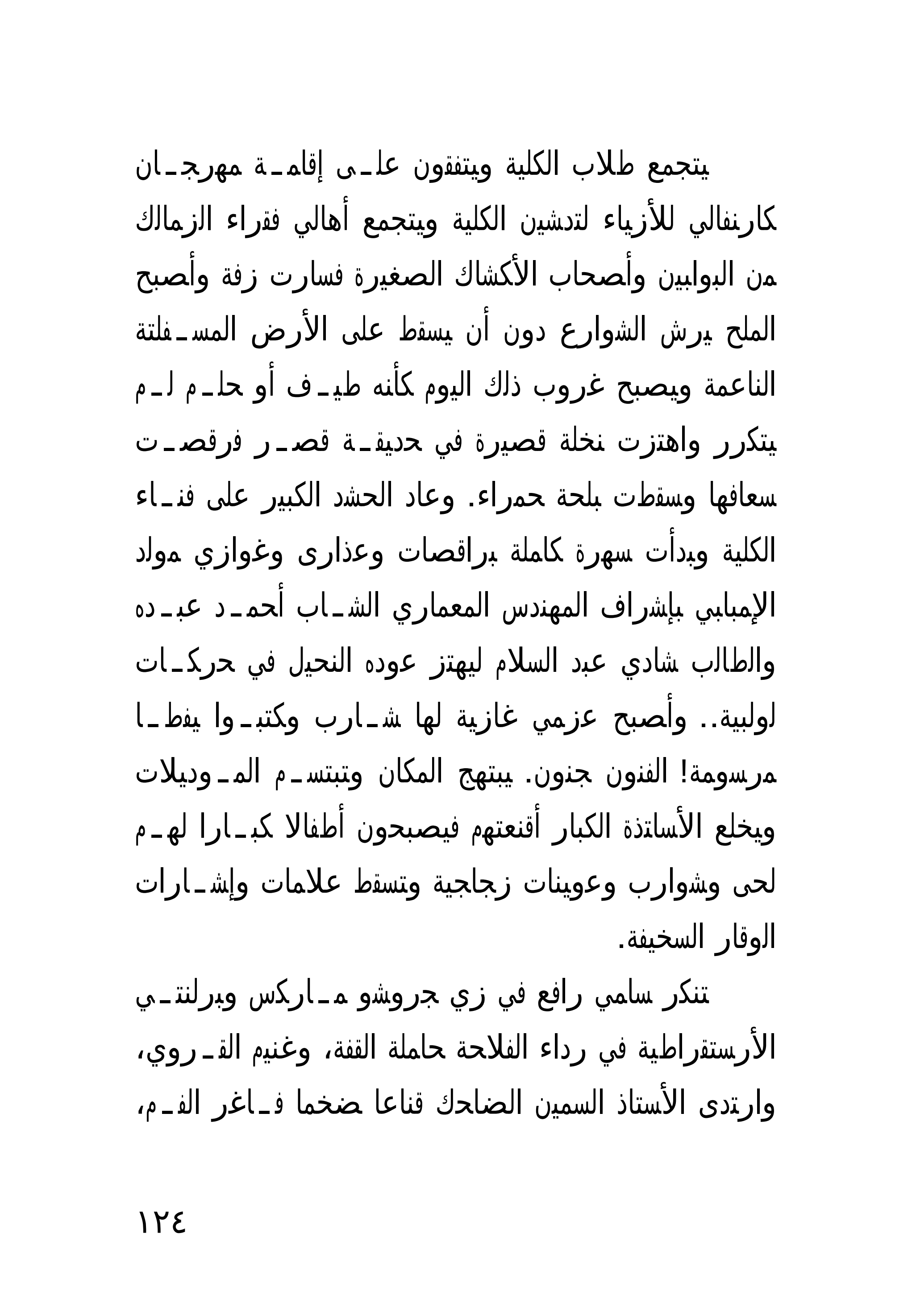
يتسابق إلى «وهبة» لفيف من الطالبات كأنهن يـتعلمن منه.. ولكنها واحدة منهن تصبح رفيقة عمره تحتفظ به كأنه ملكها فقط.. تماضر الطالبة السمراء الملفوفـة القـد، فـي ملامحها خليط من الفرعونية والإفريقية تسير جنبا إلى جنب مع صاحبة النسب الدقيقة والملامح الحالمة. سميحة.

الفصل الرابع

تحول صراخه وهو طفل إلى خطوط على الورق. الآن يستطيع بلغة صامتة بليغة الصراخ في وجه حاكم أو مسئول أو مدير. لا يرسم الموديل العارية في الكلية إلا ليدافع عنها. أصبح الجسد العاري موضوعا إنسانيا. تسكع في الليل مع رفاق عمره في الموالد وخيام السيرك وأزقة الأحياء الشعبية متذكرا دائما غرفة الصفيح فوق السطوح وأسرة أمه الفقيرة وجدته أم جبرة التي تعيش على بيع ماء حنفية وحيدة في شارع شيبان بشبرا.

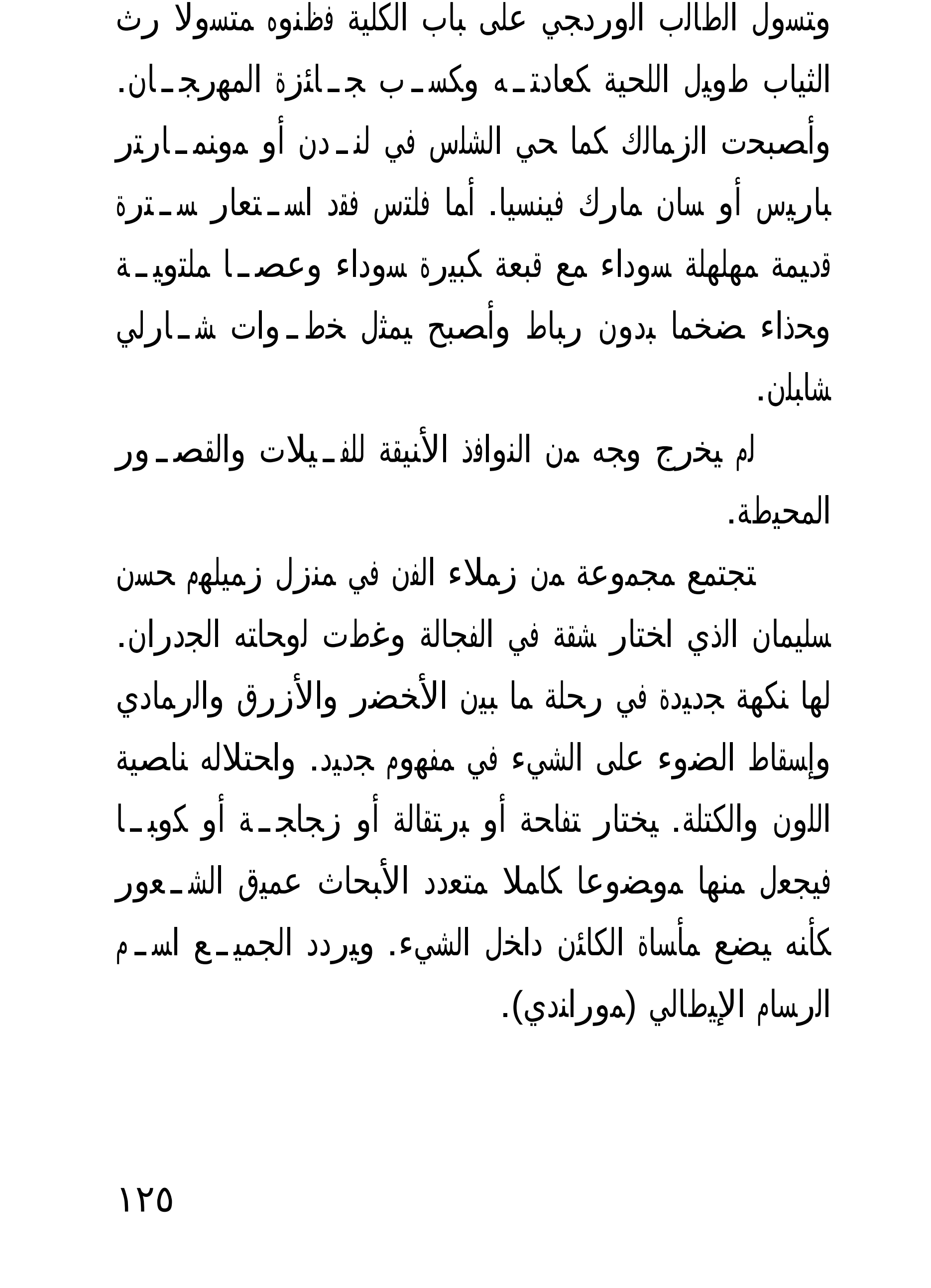
تحولت حياة فلتس إلى عمل دائم، في الليل قبل النهار ليرسم بكل ما لديه من أصابع وأدوات وألوان. ما بين تطلعه إلى الموديل الحي ليرسم وهو يحمل البالتة والريشات وما بين عودته بعد الظهر للجلوس في أحد مقاهي وسط البلد خلف إحدى العمارات القريبة من الأوبرا ليرسم بوابي العمارات النوبيين.

يحتار كيف يبكي في الحارة وهو يرسمها. ثم يضحك ويرسم النكات والوجوه الكاريكاتيرية في المجلة.



يتجمع طلاب الكلية ويتفقون علـى إقامـة مهرجـان كارنفالي للأزياء لتدشين الكلية ويتجمع أهالي فقراء الزمالك من البوابين وأصحاب الأكشاك الصغيرة فسارت زفة وأصبح الملح يرش الشوارع دون أن يسقط على الأرض المسـفلتة الناعمة ويصبح غروب ذلك اليوم كأنه طيـف أو حلـم لـم يتكرر واهتزت نخلة قصيرة في حديقـة قصـر فرقصـت سعافها وسقطت بلحة حمراء. وعاد الحشد الكبير على فنـاء الكلية وبدأت سهرة كاملة براقصات وعذارى وغوازي مولد الإمبابي بإشراف المهندس المعماري الشـاب أحمـد عبـده والطالب شادي عبد السلام ليهتز عوده النحيل في حركـات لولبية.. وأصبح عزمي غازية لها شـارب وكتبـوا بقطـا مرسومة! الفنون جنون. يبتهج المكان وتبتسـم المـوديلات ويخلع الأساتذة الكبار أقنعتهم فيصبحون أطفالا كبـارا لهـم لحى وشوارب وعوينات زجاجية وتسقط علامات وإشـارات الوقار السخيفة.

تنكر سامي رافع في زي جروشو مـاركس وبرلنتـي الأرستقراطية في رداء الفلاحة حاملة القفة، وغنيم القـروي، وارتدى الأستاذ السمين الضاحك قناعا ضخما فـاغر الفـم،



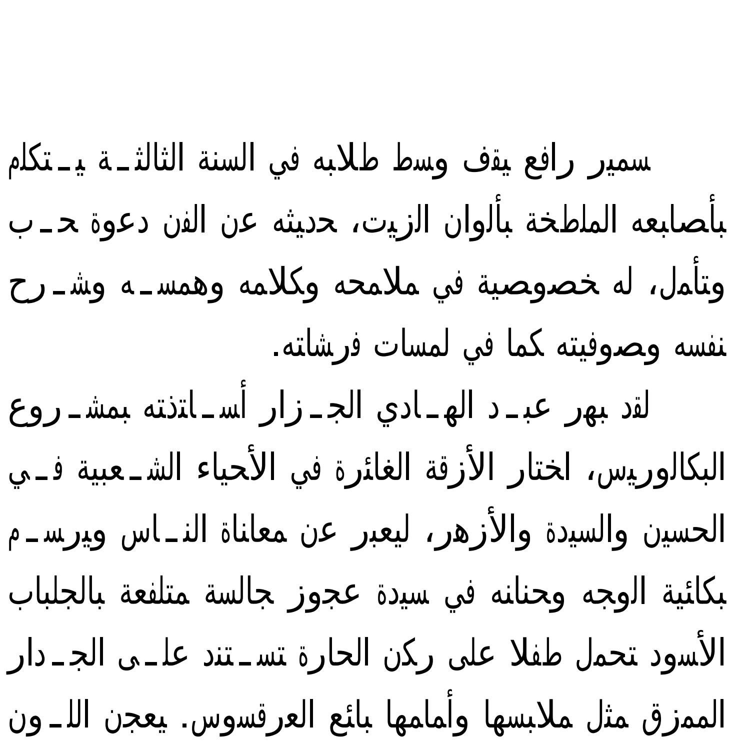
وتسول الطالب الوردجي على باب الكلية فظنوه متسولا رث الثياب طويل اللحية كعادته وكسب جائزة المهرجان. وأصبحت الزمالك كما حي الشاس في لندن أو مونمارتر باريس أو سان مارك فينسيا. أما فلتس فقد استعار سترة قديمة مهلهلة سوداء مع قبعة كبيرة سوداء وعصا ملتوية وحذاء ضخما بدون رباط وأصبح يمثل خطوات شارلي شابلن.

لم يخرج وجه من النوافذ الأنيقة للفيلات والقصور المحيطة.

تجتمع مجموعة من زملاء الفن في منزل زميلهم حسن سليمان الذي اختار شقة في الفجالة وغطت لوحاته الجدران. لها نكهة جديدة في رحلة ما بين الأخضر والأزرق والرمادي وإسقاط الضوء على الشيء في مفهوم جديد. واحتلاله ناصية اللون والكتلة. يختار تفاحة أو برتقالة أو زجاجة أو كوبا فيجعل منها موضوعا كاملا متعدد الأبحاث عميق الشعور كأنه يضع مأساة الكائن داخل الشيء. ويردد الجميع اسم الرسام الإيطالي (موراندي).

تبرق صلعة صغيرة وسط الشعر الذهبي اللامع لرأس الأستاذ بيكار.. يقول هذا الصباح.. درسنا اليوم هو زيـارة لمكتبة الكلية لقد جاء حديثًا كتاب جديد للرسام (هولبـاين).. سنتابع خطوطه ورهافة حسـه وعمـق شـعوره بالإنسـان وخاصة فن الوجه الذي أريدكم أن تتقنوه.

فلتس يسحره أستاذه بيكار.. لم يفتح لنا أستاذ كتابا في مكتبة الكلية مثله.. حديثه الطويل عن الإبداع فـي الكتـاب جعل الجميع ينظرون إليه نظرة اعتبار كبيرة وحب شـديد. هذا أستاذ من نوع خاص لا يقول للطالب عليـك بتصـليح النسب أو ضبط النور والظل ولكنه يقول.. اختر أسلوبك وأنا أتابعك، هويتك الخاصة أولا. لستم في مرعى أغنام تتشابهون ولكن كل له لون خاص. هـذا الطالـب مكـرم رزق إنـه لا يستعمل سوى الرمادي والأصفر الذهبي.. لا أطلب منـه استعمال بقية الألوان من الأزرق إلى الأخضر إلى الأحمر.. بل ربما الإغراق في التلوين يضر اللوحة. كفلاحـة تضـع أحمر الشفاه والخدود وأزرق العينين فتصبح في نهاية الأمر كالدمية أو عروسة المولد.



سمير رافع يقف وسط طلابه في السنة الثالثة يتكلم بأصابعه الماطخة بألوان الزيت، حديثه عن الفن دعوة حب وتأمل، له خصوصية في ملامحه وكلامه وهمسه وشرح نفسه وصوفيته كما في لمسات فرشاته.

لقد بهر عبد الهادي الجزار أساتذته بمشروع البكالوريس، اختار الأزقة الغائرة في الأحياء الشعبية في الحسين والسيدة والأزهر، ليعبر عن معاناة الناس ويرسم بكائية الوجه وحنانه في سيدة عجوز جالسة متلفعة بالجلباب الأسود تحمل طفلا على ركن الحارة تستند على الجدار الممزق مثل ملابسها وأمامها بائع العرقسوس. يعجن اللون بفرشاة صغيرة الشعيرات طويلة الساق صفراء خشبية كوتر في كمان أو عود يعزف بها لحن اندماج الألوان ويلمس سطح اللوحة بلعاب الفرشاة الملونة المعروقة في بوتقة الزيت الصغيرة على حافة طبق البالتة.

الأسبوع التالي ينتقل الدرس إلى حديقة الحيوان حيث ينتشر الطلاب في كل مكان.. يرسمون الأشجار.. إلا أن فلتس يشعر بزئير الأسد خلفه.. يذهب إليه ليدرسه كأحد موديلات عصر النهضة.. هكذا داعبته النكتة في أعماقه وهو

يتفرس أنيابه وهو يلتهم قطع اللحم التي يدفعها إليه حارسه.. يتذكر حادثة افتراس الأسد لمدربه الحلو.. يبتعد أكثر ليشعر بالاطمئنان فالشعور بالخطر يقلقه وتبدو دراسـاته للـرأس الضخم وشعره الغزير وهجمته على أنثاه في جماع جنسـي حدث أمامه بالصدفة يجعل القلم يتوقف عن الرسم. وينتقـل من موقع إلى آخر.. يختار هذه المرة قردا.. يرسمه بتحليله وتلخيصه في يوم الدرس الخارجي للمناظر الطبيعية.

يتوقف عبد الهادي الجزار عن محاضـراته التلقائيـة وسط أحراش حديقة الحيوان وفـي أحـد أركانهـا الغنيـة بعصافير متعددة الألوان كأنها بالتة الطـلاب فـي مراسـم الكلية.. إن «الفنون الجميلة» هنا!

أنهى عبد الهادي رسـالته ومشـروعه عـن عمـال التراحيل وشخصيات الحارة الشعبية، أهمها لوحة السقا الذي يحمل على ظهره قربة الماء المصنوعة مـن الجلـد، وقـد أصبحت القربة في لوحته هي السائدة وكأن جلدها هو بشرته وأصابعه وهي تمتد نحو السيدة الجالسة خلف مسجد الحسين ومعها طفلتها يشربان من يديه الماء. ملحمة تاريخية شـعبية لمأساة المواطن البسيط.. يتحدث مع تلاميذه عن سر الوجود

في شجرة.. «لا بد أن تعرفوا كيف كبرت النبتة الصـغيرة وأصبحت بعد مئة عـام شـامخة هكـذا أمـامكم».. إلا أن علامات الاستفهام تزداد عندما يتذكرون معرضه الأخيـر.. لقد اتجه إلى أسلوب خاص رسم فيه لوحات الأسـد وأحمـد الجبار والرجل الأخضر. وعرس زليخة.

وريقات الزهرة الحمراء المستديرة تنكمش كأنها تعود إلى زنبقتها. تغلق تماما رأسها كأنها بحجاب الورد تختبئ في خجل وتلملم غصنها المهتز تحت رأسها فتنام في دعة اللـذة واكتمال المتعة.

تصبح أيقونة الكف ملونة تماما، وزهور النرجس حول الأم والطفل، وهالات من النور ذهبية تحيط رأسيهما.

يقول فلتس لبهجت معجبا بفن النحت: أشعر بمتعة في لمس الكتلة أما الرسم على القماش فهو سطح واحد مسـتو. النحت تدور حوله من كل زاوية واتجـاه، والرسـم عنـدما تستدير حوله يعطيك قفا أو ظهرا بلا معنى، فالرسم يوضـع على الجدار والنحت يوضع وسط المكان.

يخرج من حجرة الطين صمويل وأرنبة أنفه تتحـرك يمنه ويسرة وهي حالة تنتابه كلمـا بـالغ فـي السـرحان والتوهان.

أحدهم يجلجل بضحكة تهز جـدران المبنـى القـديم، ضحكته تخرج من كرشه ووجهه، ولحيته تغطي لحم وجهـه فلا يبدو منها سوى أنف مستدير كالبالونة وعيـون واسـعة ملونة بالعسلي تبحلق في كل طالب وتستدير حول كل تمثال من المبتدئين.. مصطفى متولي أستاذ النحت القدير وصـديق الطلاب.

يبرق تمثال صمويل في نحت أم الشهيد الجالسة وعلى ركبتها طفلها الشهيد، أم كل مصري. في تعبيـرات الطـين المنحوت وتعرجات العروق وتمازج الجلد مع اللحم مع الدم. عمل يضعه في مصاف الأعمال الخالدة لفن النحت بجـوار تمثال المحارب العملاق وحامل الجرات.

ويصبح شادي عبد السلام علما صغيرا يكبر، يحمـل دائما تحت إبطه رسوما ليس لها علاقة بفن العمـارة الـذي يدرسه ويتفوق فيه ولكنه يعرض على الطـلاب والأسـاتذة

ما يحمله من ملفات ضخمة مجلدة تحمل أزياء ملابس فـيلم عن إخناتون وفيلم آخر اسمه المومياء.

يدور فلتس في فناء الكلية كأنه يبحث عن شيء ضاع منه.. يتأمل نافذة هذا المبنى الذي يصبح جداره هـو جـدار سور الكلية. خلف النافذة ستائر.. تتثبت عيناه فيمـا خلـف الستائر ومشاعره تتجه إلى صاحب هذا المكان. رجل جليـل من رجال الأدب العظام في مصر قرأ لـه فقـط: الأيـام، والمعذبون في الأرض، ودعـاء الكـروان.. كيـف عبـر بالكلمات عن مجتمعه وعصره، مغرق في مصريته ويخرج من طين الأرض.. يتذكر معاناته وهو طفـل.. إنـه يرسـم خطوط معاناة الناس وعذابهم كأنه يمسح عـرق بشـرتهم، فيقول فلتس في نفسه: طه حسين يرسم أفضل منه. وأفضـل من أساتذتنا. هذا الضرير الرسام البارع.

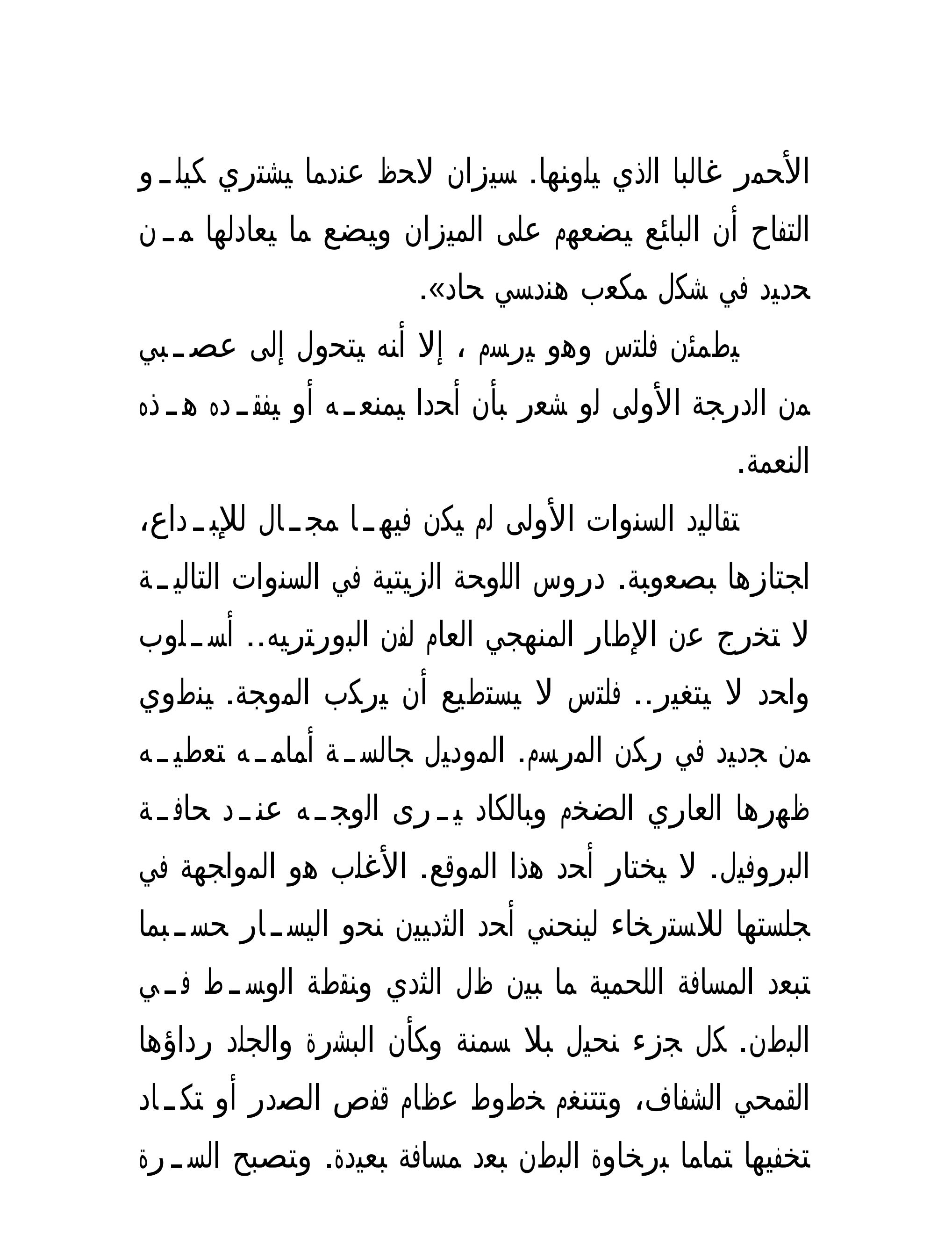
يعودون يدخنون ويتناقشون ويقبلون وجهـات النظـر حول رسم الموديل، ووصفها، وكـلام الأسـتاذ، ونقيضـه، وعلامات التفوق، عند البعض، ويظهر بينهم شـاب قصـير متكور من الرأس إلى الكرش إلى القـدمين غزيـر الشـعر الملفوف حول كرة الرأس حتى نهاية القفا وعيـون غـائرة

صغيرة وحواجب ثقيلة تتكمش حـول أنـف وسـط الكـرة وشارب كثيف يعلو الشفتين. ولا ذقن بعد ذلك ولا رقبة ولكن كتفين وكرش وقدمين. يبرع في الكلام وكشف خفايا الـنفس أثناء حصة الرسم ويفخم الأساتذة ويدلي بآراء حول مـنهج الدراسة ونظام المراسم واختيار الأساتذة وانضـمام بعـض السنوات في مراسم واحدة. الطالب عدلي فهيم يضحك بعـد ذلك فتنفرج من بين شاربه المستدير حول الفم قهقهات عالية وهو يحتسي العدس كما عصير القصب الساخن أو شـوربة البصل.. تدفئه فيزيد في الكـلام حـول مصـطفى أحمـد وعبد المنعم كرار طلبة الفكر قبل الرسم والمناورة قبل وبعد الرسم.

تنتشر تعاليم سيزان كأهم رسام فرنسي ظهر مع بداية القرن الحالي وهو الأب الروحي لحركـة الفـن التكعيبـي. تسري الموجة التكعيبية بين طلاب قسم التصوير الزيتي على الأخص ويتزعم الحركة عملاق أسمر يحمل عوينات علـى عينيه له ملامح كما شخصيات التاريخ القديمـة فـي طـول قامته وعرض كتفيه وأصابعه الطويلة عندما يلوح بها فـي الهواء. عندما يتحدث فؤاد حسني يرن صوته كأنه كاهن في

معبد من تل العمارنة وبين كلمة وأخرى يدفع بطرفها إطـار عويناته قبل أن تسقط على أنفه الصـغير الحـاد.. يقـول: بيكاسو مش هو اللي ابتدى الحركة التكعيبية.. لكن الأصـل هو سيزان لأنه أثناء تركيباته للطبيعة الصامتة زي لوحـات التفاح على المائدة والطبق وزجاجة النبيـذ.. كانـت تجـف فرشاته المغموسة في الألوان الزيتية لتستدير أثنـاء تلوينـه لتفاحة فتتكعب منه قبل أن تصبح كروية. أو بيضاوية، لذلك فهو يرسم المكعب بأبعاد التفاحة وشخصيتها في الاسـتدارة أو الانبعاج أو اندماج الفلقتين وخط الوسط الـداخلي الـذي يخرج منه العنق الذي يحمل البذور. الكرة قبـل أن تصـبح كرة كانت مكعبا مثل التفاحة، وحبة الكمثرى تنقسم إلى كرة وشكل آخر ملتصق بها. لا بد من تحليل الأشكال وبنائها من جديد، ودي طبيعة جنوب فرنسا للأرض الصلبة اللي عـاش فيها»

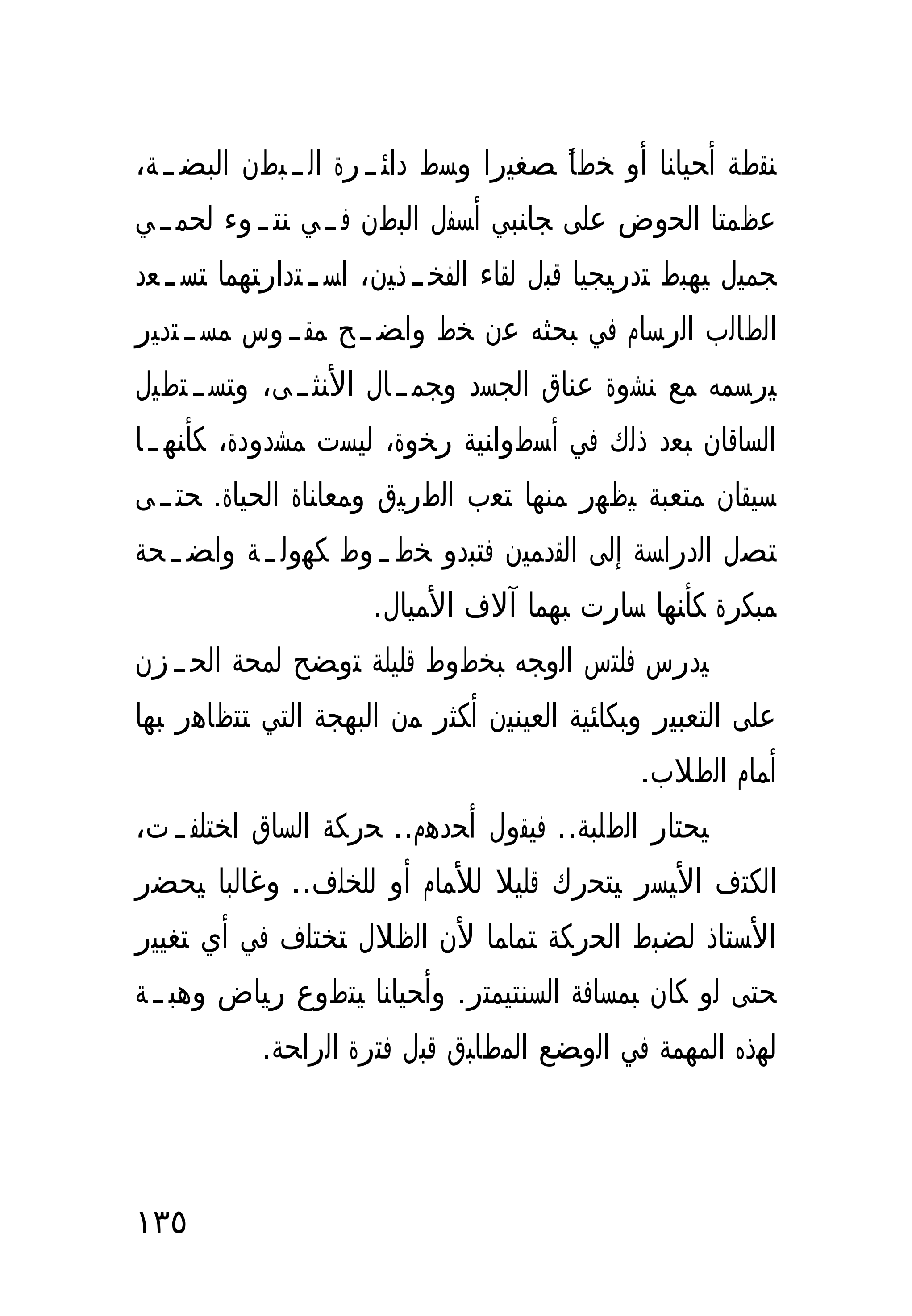
إلا أن للتكعيبية شأنًا آخر عند حسين بيكـار عنـدما يجتمع بطلبته في مرسم الطابق الثاني ويشرح لهم النظريـة موضحا بخطوط سريعة «أهم ما في التفاحة هو وزنها قبـل رؤية العين السطحية لخط السلويت الذي يحـددها واللـون



الأحمر غالبا الذي يلونها. سيزان لاحظ عندما يشتري كيلو التفاح أن البائع يضعهم على الميزان ويضع ما يعادلها من حديد في شكل مكعب هندسي حاد».

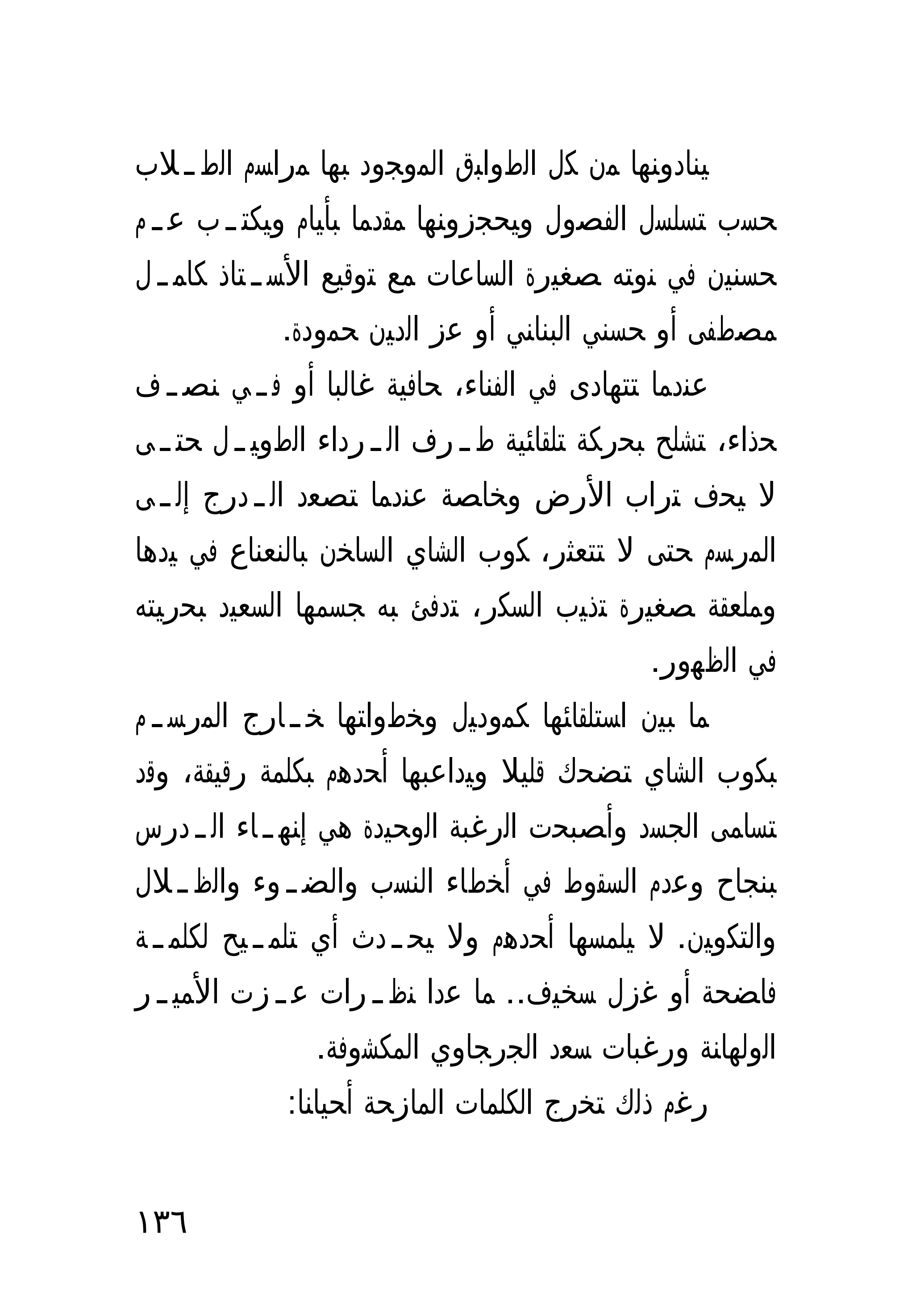
يطمئن فلتس وهو يرسم ، إلا أنه يتحول إلى عصبي من الدرجة الأولى لو شعر بأن أحدا يمنعه أو يفقده هذه النعمة.

تقاليد السنوات الأولى لم يكن فيها مجال للإبداع، اجتازها بصعوبة. دروس اللوحة الزيتية في السنوات التالية لا تخرج عن الإطار المنهجي العام لفن البورتريه.. أسلوب واحد لا يتغير.. فلتس لا يستطيع أن يركب الموجة. ينطوي من جديد في ركن المرسم. الموديل جالسة أمامه تعطيه ظهرها العاري الضخم وبالكاد يرى الوجه عند حافة البروفيل. لا يختار أحد هذا الموقع. الأغلب هو المواجهة في جلستها للاسترخاء لينحني أحد الثديين نحو اليسار حسبما تبعد المسافة اللحمية ما بين ظل الثدي ونقطة الوسط في البطن. كل جزء نحيل بلا سمنة وكأن البشرة والجلد رداؤها القمحي الشفاف، وتتنغم خطوط عظام قفص الصدر أو تكاد تخفيها تماما برخاوة البطن بعد مسافة بعيدة. وتصبح السرة


نقطة أحيانا أو خطاً صغيرا وسط دائـرة الـبطن البضـة، عظمتا الحوض على جانبي أسفل البطن فـي نتـوء لحمـي جميل يهبط تدريجيا قبل لقاء الفخـذين، اسـتدارتهما تسـعد الطالب الرسام في بحثه عن خط واضـح مقـوس مسـتدير يرسمه مع نشوة عناق الجسد وجمـال الأنثـى، وتسـتطيل الساقان بعد ذلك في أسطوانية رخوة، ليست مشدودة، كأنهـا سيقان متعبة يظهر منها تعب الطريق ومعاناة الحياة. حتـى تصل الدراسة إلى القدمين فتبدو خطـوط كهولـة واضـحة مبكرة كأنها سارت بهما آلاف الأميال.

يدرس فلتس الوجه بخطوط قليلة توضح لمحة الحـزن على التعبير وبكائية العينين أكثر من البهجة التي تتظاهر بها أمام الطلاب.

يحتار الطلبة.. فيقول أحدهم.. حركة الساق اختلفـت، الكتف الأيسر يتحرك قليلا للأمام أو للخلف.. وغالبا يحضر الأستاذ لضبط الحركة تماما لأن الظلال تختلف في أي تغيير حتى لو كان بمسافة السنتيمتر. وأحيانا يتطوع رياض وهبـة لهذه المهمة في الوضع المطابق قبل فترة الراحة.

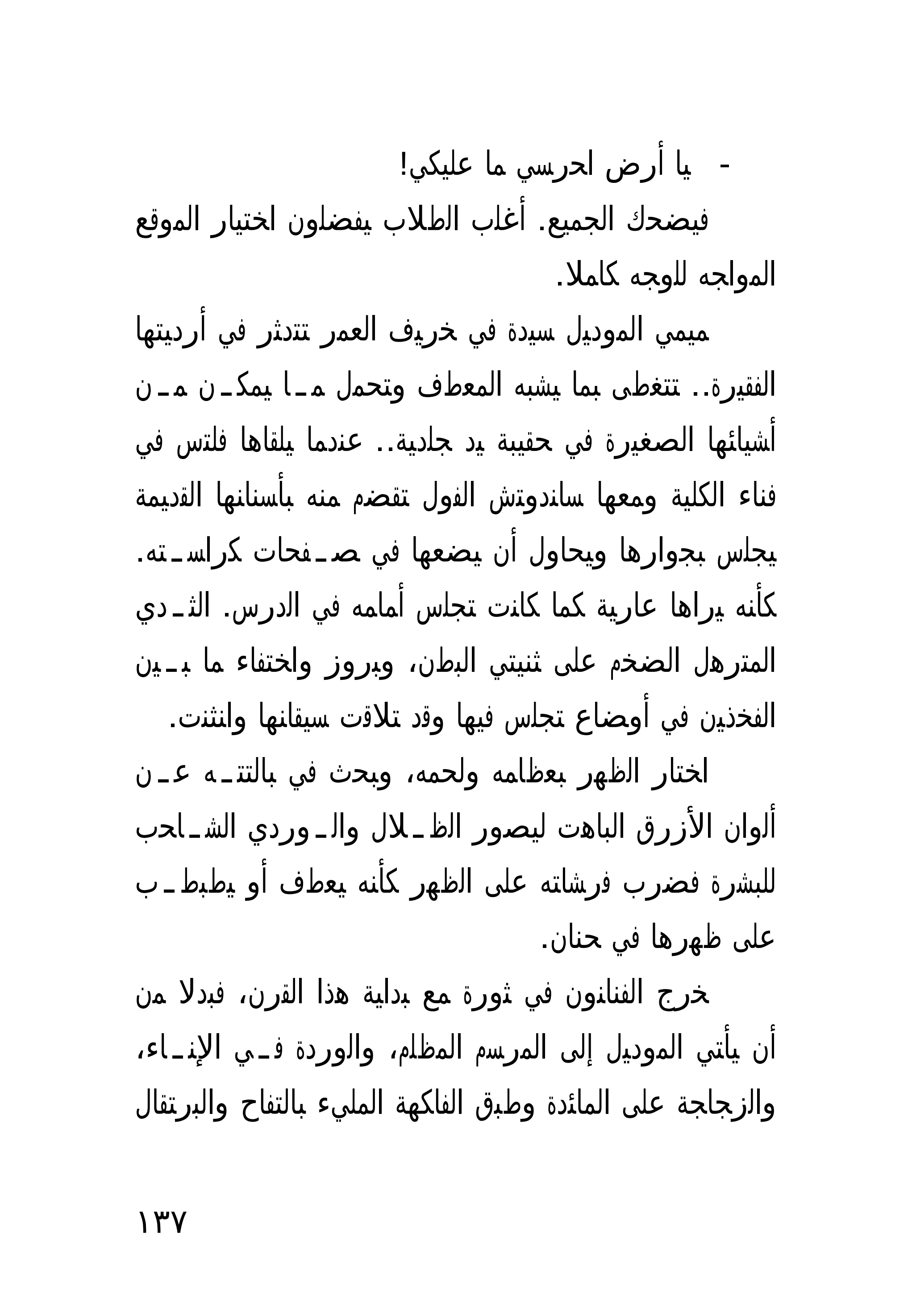


ينادونها من كل الطوابق الموجود بها مراسم الطـلاب حسب تسلسل الفصول ويحجزونها مقدما بأيام ويكتـب عـم حسنين في نوته صغيرة الساعات مع توقيع الأسـتاذ كامـل مصطفى أو حسني البناني أو عز الدين حمودة.

عندما تتهادى في الفناء، حافية غالبا أو فـي نصـف حذاء، تشلح بحركة تلقائية طـرف الـرداء الطويـل حتـى لا يحف تراب الأرض وخاصة عندما تصعد الـدرج إلـى المرسم حتى لا تتعثر، كوب الشاي الساخن بالنعناع في يدها وملعقة صغيرة تذيب السكر، تدفئ به جسمها السعيد بحريته في الظهور.

ما بين استلقائها كموديل وخطواتها خـارج المرسـم بكوب الشاي تضحك قليلا ويداعبها أحدهم بكلمة رقيقة، وقد تسامى الجسد وأصبحت الرغبة الوحيدة هي إنهـاء الـدرس بنجاح وعدم السقوط في أخطاء النسب والضـوء والظـلال والتكوين. لا يلمسها أحدهم ولا يحـدث أي تلمـيح لكلمـة فاضحة أو غزل سخيف.. ما عدا نظـرات عـزت الأميـر الولهانة ورغبات سعد الجرجاوي المكشوفة.

رغم ذلك تخرج الكلمات المازحة أحيانا:



- يا أرض احرسي ما عليكي!

فيضحك الجميع. أغلب الطلاب يفضلون اختيار الموقع المواجه للوجه كاملا.

ميمي الموديل سيدة في خريف العمر تتدثر في أرديتها الفقيرة.. تتغطى بما يشبه المعطف وتحمل مـا يمكـن مـن أشيائها الصغيرة في حقيبة يد جلدية.. عندما يلقاها فلتس في فناء الكلية ومعها ساندوتش الفول تقضم منه بأسنانها القديمة يجلس بجوارها ويحاول أن يضعها في صـفحات كراسـته. كأنه يراها عارية كما كانت تجلس أمامه في الدرس. الثـدي المترهل الضخم على ثنيتي البطن، وبروز واختفاء ما بـين الفخذين في أوضاع تجلس فيها وقد تلاقت سيقانها وانثنت.

اختار الظهر بعظامه ولحمه، وبحث في بالتتـه عـن ألوان الأزرق الباهت ليصور الظـلال والـوردي الشـاحب للبشرة فضرب فرشاته على الظهر كأنه يعطف أو يطبطـب على ظهرها في حنان.

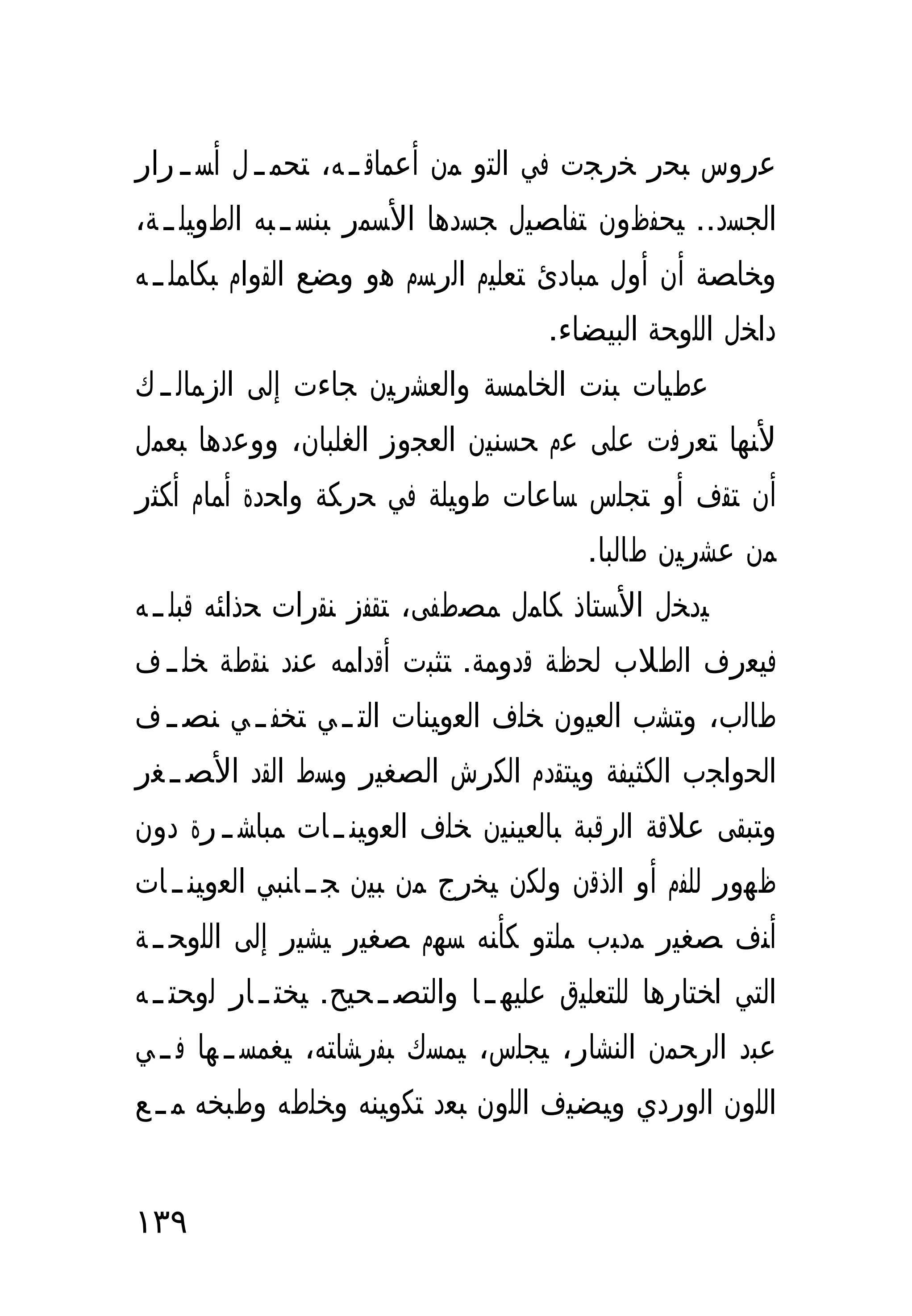
خرج الفنانون في ثورة مع بداية هذا القرن، فبدلا من أن يأتي الموديل إلى المرسم المظلم، والوردة فـي الإنـاء، والزجاجة على المائدة وطبق الفاكهة المليء بالتفاح والبرتقال

والموز والعنب والكرز، حمل الفنانون ألوانهم فـي حقائـب خشبية ومعها حوامل ذات أرجل ثلاثة لتثبيتها فـي الموقـع الذي يختاره الرسام وسط الطبيعة البكر.

في طلعته وسط فناء الكلية إصرار وهـدوء، كثافـة الشعر خاف الجبهة والأذنين حتى أسفل الرقبـة وحواجـب محدددة لتقسيم شكل الجمجمة الناصعة بدوران غير عـادي أعلى الرأس وأنف حديدي وشارب أسود داكـن فـوق فـم لا ينطق سوى كلمات قليلة نافذة والجسـد نحيـل إنسـاني والخطوة على هامش المكان والضوء يشـع حولـه ماسـكا ريشته وألوانه متجها إلى الطابق الأول ذي الشرفة الطويلـة المكشوفة.

يقول عنه أندريه لوت أحد أعلام الفن التكعيبـي فـي زيارته لمصر بدعوة من الكلية في محاضرته التي لا تنسـى إن وليم إسحق أضاف دفئا شـرقيا متصـوفا إلـى لوحاتـه ويضعه في مصاف براك بالذات.

في ردائها الطويل الريفي تتمخطر في فناء الكلية بين الطلبة والأساتذة والسعاة والفراشين وعم حسنين العجوز ذي العوينات السميكة التي يرى من خلفها بصعوبة. تختال كمـا



عروس بحر خرجت في التو من أعماقـه، تحمـل أسـرار الجسد.. يحفظون تفاصيل جسدها الأسمر بنسـبه الطويلـة، وخاصة أن أول مبادئ تعليم الرسم هو وضع القوام بكاملـه داخل اللوحة البيضاء.

عطيات بنت الخامسة والعشرين جاءت إلى الزمالـك لأنها تعرفت على عم حسنين العجوز الغلبان، ووعدها بعمل أن تقف أو تجلس ساعات طويلة في حركة واحدة أمام أكثر من عشرين طالبا.

يدخل الأستاذ كامل مصطفى، تقفز نقرات حذائه قبلـه فيعرف الطلاب لحظة قدومة. تثبت أقدامه عند نقطة خلـف طالب، وتشب العيون خلف العوينات التـي تخفـي نصـف الحواجب الكثيفة ويتقدم الكرش الصغير وسط القد الأصـغر وتبقى علاقة الرقبة بالعينين خلف العوينـات مباشـرة دون ظهور للفم أو الذقن ولكن يخرج من بين جـانبي العوينـات أنف صغير مدبب ملتو كأنه سهم صغير يشير إلى اللوحـة التي اختارها للتعليق عليهـا والتصـحيح. يختـار لوحتـه عبد الرحمن النشار، يجلس، يمسك بفرشاته، يغمسـها فـي اللون الوردي ويضيف اللون بعد تكوينه وخلطه وطبخه مـع

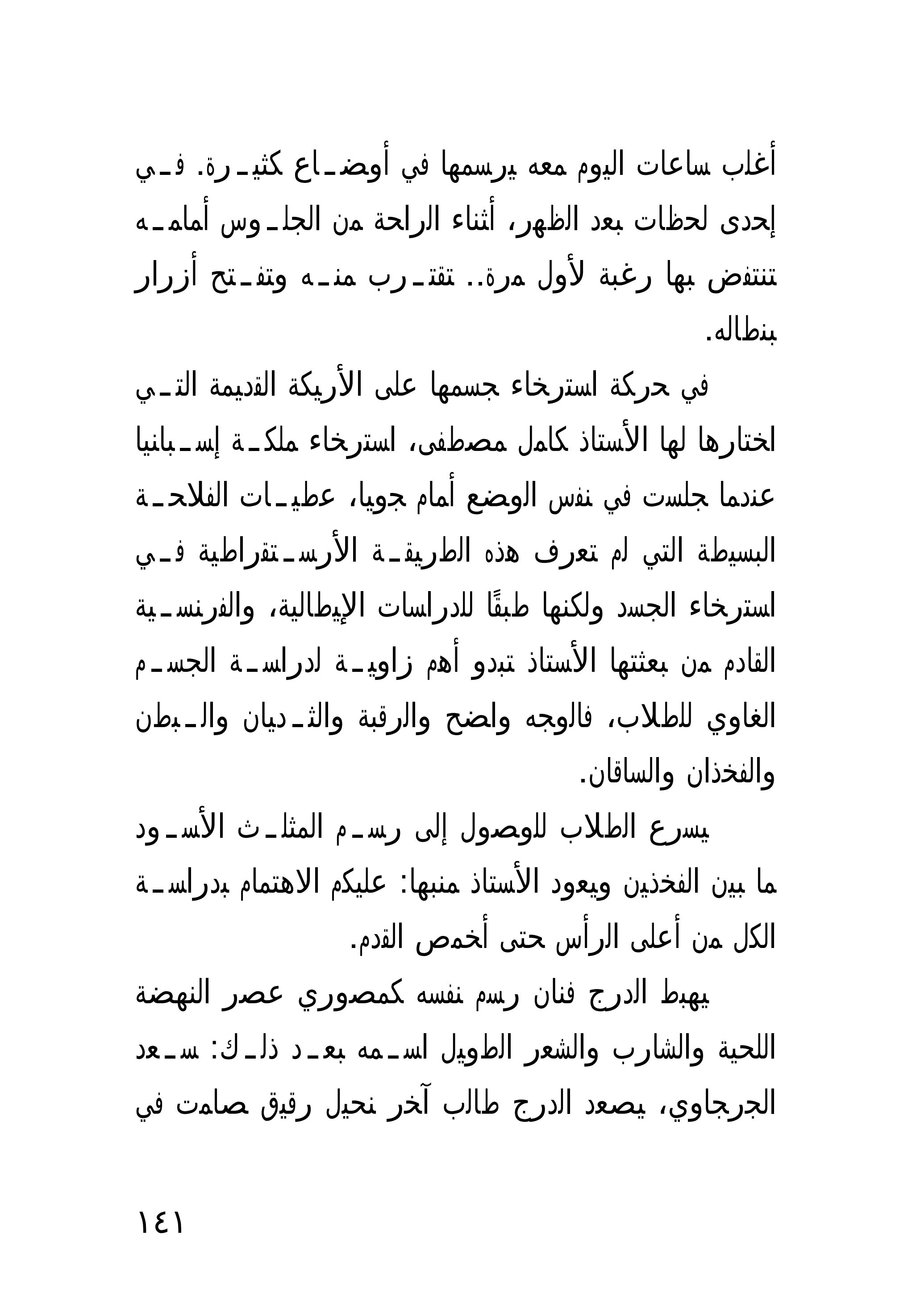
الزيت ليخرج بإضافات من ألوان فاتحة سرعان ما تنتشـر لمساته في لوحة الطالب المندهش وهو يقول عبارة معروفة:

- شايف كسبت قد إيه في اللوحة، أصـبحت منتعشـة بالحياة موردة مبهجة.

ويمصمص الطالب مصطفى أحمد شـفتيه معترضـا: الألوان الأولى كانت درامية أقرب إلى حياتنا أما البهجة فهي أبعد ما يكون عن حقيقة حياة الإنسان الموجود داخل الموديل عطيات والفلاح أبو فاطمة هيكـل بربطـة المنـديل علـى جبهته..

وعلى دكة خشبية سيدة جالسة ثديها عار ترضع طفلة وتبدو ملابسها الريفية الفقيرة في أوضاع تظهر أجزاء مـن جسمها طول الوقت، إنها الموديل العاري جليلة، وهي أعرق شخصية في حياة الطلبة والأساتذة، ملهمة الجميع، جسـمها ووجهها في أغلب لوحات متحف الفن الحديث.

منذ أن بدأ يرسم بالألوان الزيتية.. أصبح كل إنسـان وكل موضوع أيقونة مقدسة، عطيات الموديل يرسمها وحول وجهها هالة من نور. جازية الصغيرة بنت الخامسـة عشـر تصبح مشروع الدبلوم.. يوقع لها الاستمارة كل يوم.. تبقـى

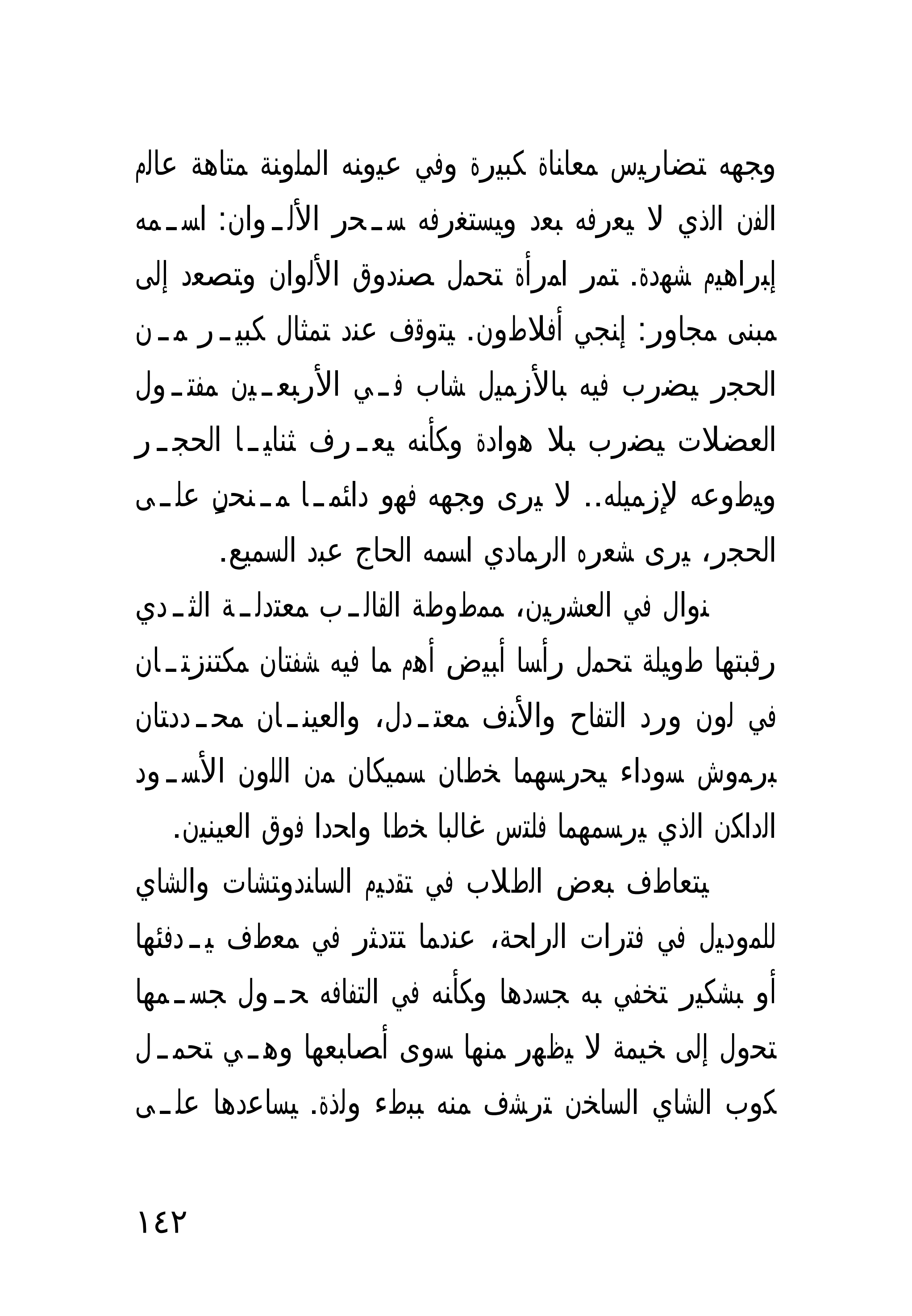


أغلب ساعات اليوم معه يرسمها في أوضـاع كثيـرة. فـي إحدى لحظات بعد الظهر، أثناء الراحة من الجلـوس أمامـه تنتفض بها رغبة لأول مرة.. تقتـرب منـه وتفـتح أزرار بنطاله.

في حركة استرخاء جسمها على الأريكة القديمة التـي اختارها لها الأستاذ كامل مصطفى، استرخاء ملكـة إسـبانيا عندما جلست في نفس الوضع أمام جويا، عطيـات الفلاحـة البسيطة التي لم تعرف هذه الطريقـة الأرسـتقراطية فـي استرخاء الجسد ولكنها طبقًا للدراسات الإيطالية، والفرنسـية القادم من بعثتها الأستاذ تبدو أهم زاويـة لدراسـة الجسـم الغاوي للطلاب، فالوجه واضح والرقبة والثـديان والـبطن والفخذان والساقان.

يسرع الطلاب للوصول إلى رسـم المثلـث الأسـود ما بين الفخذين ويعود الأستاذ منبها: عليكم الاهتمام بدراسـة الكل من أعلى الرأس حتى أخمص القدم.

يهبط الدرج فنان رسم نفسه كمصوري عصر النهضة اللحية والشارب والشعر الطويل اسـمه بعـد ذلـك: سـعد الجرجاوي، يصعد الدرج طالب آخر نحيل رقيق صامت في


وجهه تضاريس معاناة كبيرة وفي عيونه الملونة متاهة عالم الفن الذي لا يعرفه بعد ويستغرفه سحر الألوان: اسمه إبراهيم شهدة. تمر امرأة تحمل صندوق الألوان وتصعد إلى مبنى مجاور: إنجي أفلاطون. يتوقف عند تمثال كبير من الحجر يضرب فيه بالأزميل شاب في الأربعين مفتول العضلات يضرب بلا هوادة وكأنه يعرف ثنايا الحجر ويطوعه لإزميله.. لا يرى وجهه فهو دائما منحنٍ على الحجر، يرى شعره الرمادي اسمه الحاج عبد السميع.

نوال في العشرين، ممطوطة القالب معتدلة الثدي رقبتها طويلة تحمل رأسا أبيض أهم ما فيه شفتان مكتنزتان في لون ورد التفاح والأنف معتدل، والعينان محددتان برموش سوداء يحرسهما خطان سميكان من اللون الأسود الداكن الذي يرسمهما فلتس غالبا خطا واحدا فوق العينين.

يتعاطف بعض الطلاب في تقديم الساندوتشات والشاي للموديل في فترات الراحة، عندما تتدثر في معطف يدفئها أو بشكير تخفي به جسدها وكأنه في التفافه حول جسمها تحول إلى خيمة لا يظهر منها سوى أصابعها وهي تحمل كوب الشاي الساخن ترشف منه ببطء ولذة. يساعدها على

نسيان التعب تحرك عضلات الساقين والـذراعين، لإصـابة الموديل غالبا بالتقلص المفاجئ، ولا يحدث حوار بين الراسم والمرسوم فكل منهما له همومه. الرسام في إجادته اللوحـة والموديل المرسومة في حياتها الخاصة.

يتشعلق فلتس على مقاعد البار العالية فتسري الألـوان كأنها إكسير الحياة في الشرايين، يخفق الفؤاد وتكـاد العـين تدمع من نشوة الخلق والتجويد لحصر الروح وإظهارها فـي التعبير عن مأساة الموديل كما يحدث مع فلتس.

متأملا هذا الجسد العاري الراقد في قمة جماله الساحر ولكنه دائما يتشكى، المرض ويبدو عليه غموض التعبير عن حياة كاملة لإنسانة تعرض جسدها في أنبل لحظـات العمـل المقدس من أجل المعرفة ونقل العاطفة كاملة إلى اللوحـة.. يبدأ بالوردي ثم يخفت مع الأخضر والأزرق ويصبح الجسد في ألوانه العديدة معبرا عما بداخله وليس تسجيلا سطحيا له. يدقق في الخط ويرسم انحناءة الكتفين.

يقف معتدلا مشدودا بقامته القصيرة وسـاقية اللتـين تكادان تشبهان في قصرهما تولوز لوتريك المعـوق يحمـل روحه على صينية خشبية ملونة ملوثة مبرطشـة بـالألوان

الحزينة غير المدهشة والتي تقع منذ اللحظة الأولـى علـى البعد الثاني. يلخبطها بفرشاة تعتدل بصـعوبة تحـت هـذه الصينية الخشبية المفتوحة من الجانب، وهي في فورانها مع أصابعه تلتوي وتنحرف وتصبح بلا شكل. أهـل الفرنجـة يسمونها البالتة، حملها آلهة فن الرسم والتاوين منذ دافنشـي الأكبر، ورمبرانت الأقدس، ورافائيل الأرهف وديلا كـراواه الأكثر ثورة، وآنجر الأكثر عريا، وملمس البشرة والقطيفـة والحرير على أجساد النساء، وروبنز الأكثـر صـخبا فـي مرقص الليل، ورنوار أحمر النبيذ في الـوردة وعلـى خـد الحبيبة، ثم الراهب في فرشاته الهارب من ظـلام هولنـدة المعقد من المرأة والعاشق في غياب الحبيبـة فنسـنت فـان جوخ.

يتذكر كل ذلك وهو يمسك بطـرف الفرشـاة ويعقـد الأصبع الأصغر مع البنصر والإبهام فتنثني عقدات المفاصل بين فقرات عظام الأصابع. مغطاة بجلد ناعم يلمس ويهمـس والريشة سيف طويل كأنه يبارز وقماش اللوحة حائط أبيض ضخم كأنه وحش أو دب أبيض لا بـد أن يركبـه، يتـذكر

نصيحة صديقه الشاعر عبد المعطي حجازي... «لا تركب الأسد.. لأنه سيأكلك».

الفرشاة تتبعها فرشاة والأصابع خمسة والسادس في عقله ومجموعتهم تنعقد في طرف الإصبع الأصغر تحت الصينية الخشبية المعوجة وتدوي صيحة الفرشاة الأولى مع انحناءة شعيراتها القليلة على الطرف الآخر لتشرب قليلا من التربنتينا وعطرها يفوح كما الثلاثة خمسات الرخيصة فتعود لتتزين بزيت اللان والسمسم ويتذكر ليمونة الإيطالي جريكو الذي بدأ حياته ليرسم ليمونة ويقلدها طبق الأصل ومعها تفاحة يحاكيها أيضا بلونها الأحمر الداكن ودورانها غير المفهوم سوى من فخذ المرأة وهي تدور في جلستها أو تنحني فيظهر دوران تفاحتها.

الطالب حسن سليمان يبدأ بعد سجنه النفسي مع الذات وتلخيص قراءته إلى فرشاته يغمسها في أخضر تفاح غير موجود ولكن في خياله، ليصنع منها زجاجات غريبة، ظلالها تمتد من يسار اللوحة إلى الجهة الأخرى مع اشتداد الضوء الذي يندلع عند حافة الظل والنور، وهي أشد اللحظات التشكيلية التي تبهر العين وتثبت حضور الكتلة والروح.

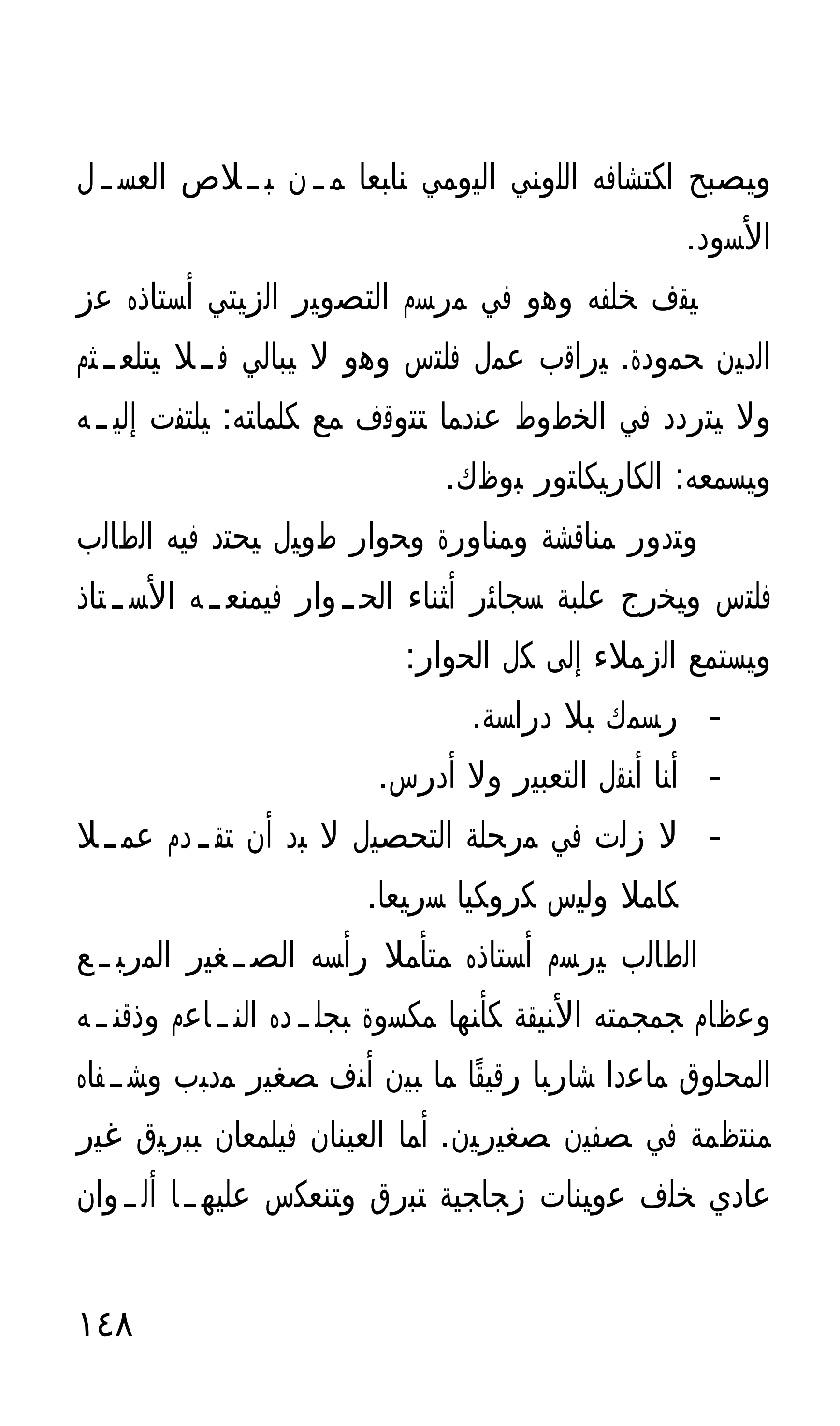
ويستمع الطلاب في الغرفة المجاورة وبابها مغلق إلى طالب نهائي جديد يقدم رسالته عن فرقة «أبو الغيط للـزار الشعبي».. له استطالة غير عادية في حجم الرأس وعلاقتهـا بالرقبة والكتف. حامد ندا يخاطر في مغامرة حياته الأولـى في الرسم الملون ليسجل الدفوف واهتزاز الرأس مع الرقبـة وتمايل الأكتاف ونقر الأصابع على جوانب الرق، والشخاليل والمزامير... وأرديتهم الشعبية وحزام الوسط المـزركش ، يضع نفسه أمام امتحان صـعب لرسـم الحركـة وترجمـة الصوت إلى شكل.

يستعمل السكين كما في المطبخ لمزج وعجـن ثلاثـة أو أربعة ألوان من الأسود ويضعها علـى قمـاش اللوحـة المعتدلة أمامه في ثبات. إنه يركب الوحش ويروضـه فـي هدوء.

ويأتي الأستاذ بيكار يقف بهدوء خلفه وخلـف حامـل رسمه حتى لا يراه أحد، ولكن جميع الطلاب يشـعرون بـه وعيونهم تحولت في موقعها إلى ظهورهم، يعقد يديـه كمـا قديس يصلي ويمصمص شفتيه الغليظتين في ظرف وخفـة وإعجاب بتكوين اللون عند الطالب مكرم رزق ا .

ويموج في حركته ذهابا وإيابا عاقد أصابعه السـمراء المعطرة بلون الذهب الأخضر طالب في السنة النهائية. يدور بلا بالتة وبلا فرشاة ويبدو أنه يراود عقله بعد قلبه ولوحته لم تبدأ بعد، كأنه فارس يستعد لربط سـرج حصـانه شـاهرا ريشته. إنه مبعث البهجة ورمز الحيرة بيننا. شفافيته تجعلـه كلما وضع لمسة حمـراء وحشـية أو خضـراء عنفوانيـة أو صفراء مشرقة يصبح فرحا وباكيا في ذات الوقت معلنـا بهجته وفوزه على اللوحة، وبعد قليل يبكي معلنا أنه لم يوفق ولا بد له أن يحذف في صيحاته المتعددة وهو يضع لمسـاته على لوحته، فيتجمع الطلاب حوله ويعانـده زمـلاء الفكـر فيحرضونه للدخول في مناقشة هو خاسرها: عبـد الـرحمن النشار.

السيجارة تشتعل أثناء حصة الرسم العـاري وظهـر «ميمي» العاري جبل وردي من اللحـم المتهالـك وبداخلـه تضاريس عظام مهشمة لإنسانة تبكي. وفلتس ترقص خيوط دخان سيجارته فيهتز شعوره وكأن خيط الدخان يساعده فـي الوصول إلى سر الإله آمون رع. كأن سذاجته الموروثة من أهل قريته في الصعيد اندمجت مع إدراكه الجديد كل يـوم،



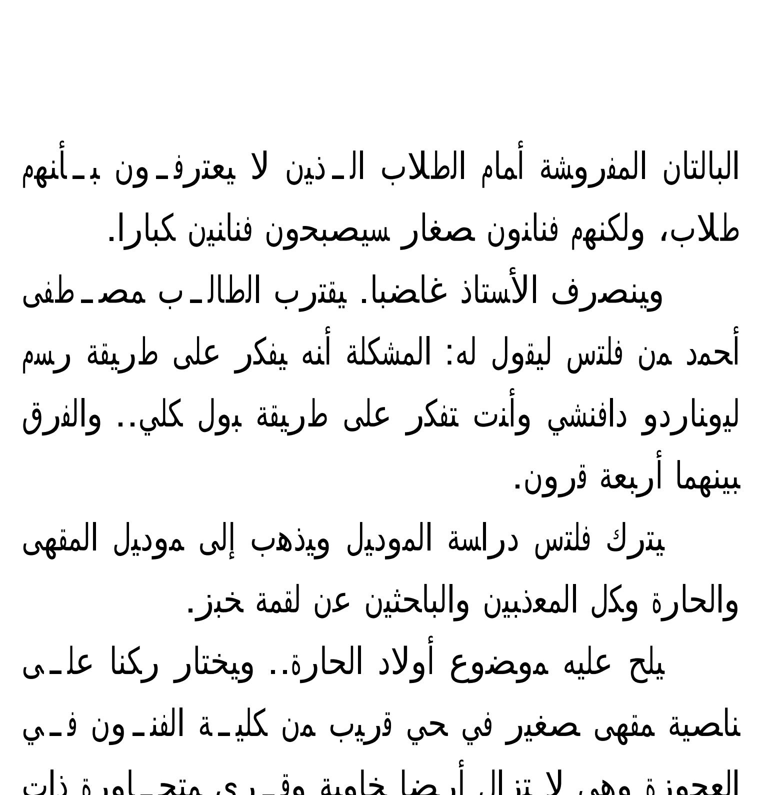
ويصبح اكتشافه اللوني اليومي نابعا مـن بـلاص العسـل الأسود.

يقف خلفه وهو في مرسم التصوير الزيتي أستاذه عز الدين حمودة. يراقب عمل فلتس وهو لا يبالي فـلا يتلعـثم ولا يتردد في الخطوط عندما تتوقف مع كلماته: يلتفت إليـه ويسمعه: الكاريكاتور بوظك.

وتدور مناقشة ومناورة وحوار طويل يحتد فيه الطالب فلتس ويخرج علبة سجائر أثناء الحـوار فيمنعـه الأسـتاذ ويستمع الزملاء إلى كل الحوار:

- رسمك بلا دراسة.
- أنا أنقل التعبير ولا أدرس.
- لا زلت في مرحلة التحصيل لا بد أن تقـدم عمـلا كاملا وليس كروكيا سريعا.

الطالب يرسم أستاذه متأملا رأسه الصـغير المربـع وعظام جمجمته الأنيقة كأنها مكسوة بجلـده النـاعم وذقنـه المحلوق ماعدا شاربا رقيقًا ما بين أنف صغير مدبب وشـفاه منتظمة في صفين صغيرين. أما العينان فيلمعان ببريق غير عادي خلف عوينات زجاجية تبرق وتنعكس عليهـا ألـوان



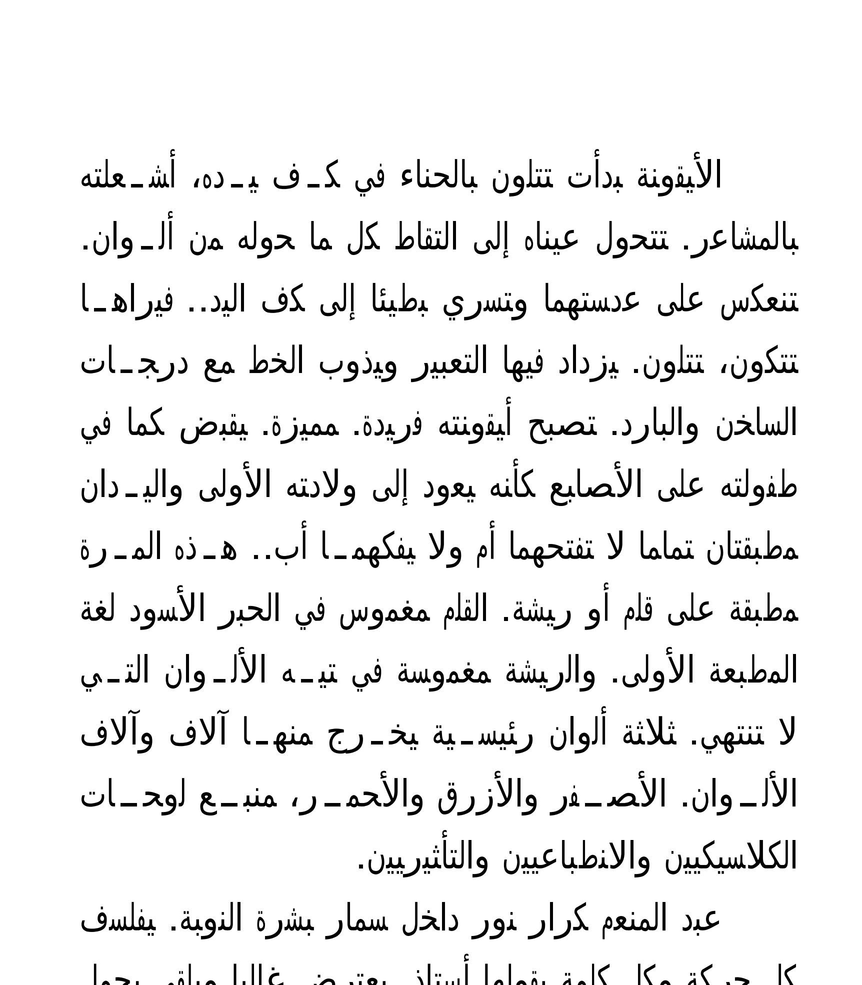
البالتان المفروشة أمام الطلاب الذين لا يعترفون بأنهم طلاب، ولكنهم فنانون صغار سيصبحون فنانين كبارا.

وينصرف الأستاذ غاضبا. يقترب الطالب مصطفى أحمد من فلتس ليقول له: المشكلة أنه يفكر على طريقة رسم ليوناردو دافنشي وأنت تفكر على طريقة بول كلي.. والفرق بينهما أربعة قرون.

يترك فلتس دراسة الموديل ويذهب إلى موديل المقهى والحارة وكل المعذبين والباحثين عن لقمة خبز.

يلح عليه موضوع أولاد الحارة.. ويختار ركنا على ناصية مقهى صغير في حي قريب من كلية الفنون في العجوزة وهي لا تزال أرضا خاوية وقرى متجاورة ذات طبيعة ريفية ويأتي إليها وتصبح حارة العجوزة هي موضوع رسالته وبحثه الأخير لينال درجات البكالوريوس.

قررت اللجنة أن فلتس الطالب صاحب مشروع أولاد الحارة النهائي لا يعتبر متفوقا، فرسومه ولوحاته ناقصة وليست أكاديمية بالشكل المكتمل. لقد وقع باسمه ٧٢ ساعة للموديلات ولم يستفد من أية ساعة ليرسمهم كما يفعل الزملاء لذلك ينال درجة جيد فقط.



الأيقونة بدأت تتلون بالحناء في كف يده، أشعلته بالمشاعر. تتحول عيناه إلى التقاط كل ما حوله من ألوان. تنعكس على عدستهما وتسري بطيئا إلى كف اليد.. فيراها تتكون، تتلون. يزداد فيها التعبير ويذوب الخط مع درجات الساخن والبارد. تصبح أيقونته فريدة. مميزة. يقبض كما في طفولته على الأصابع كأنه يعود إلى ولادته الأولى واليدان مطبقتان تماما لا تفتحهما أم ولا يفكهما أب.. هذه المرة مطبقة على قلم أو ريشة. القلم مغموس في الحبر الأسود لغة المطبعة الأولى. والريشة مغموسة في تيه الألوان التي لا تنتهي. ثلاثة ألوان رئيسية يخرج منها آلاف وآلاف الألوان. الأصفر والأزرق والأحمر، منبع لوحات الكلاسيكيين والانطباعيين والتأثيريين.

عبد المنعم كرار نور داخل سمار بشرة النوبة. يفلسف كل حركة وكل كلمة يقولها أستاذ. يعترض غالبا ويلقي بجمل يستعين بها في عرض أفكاره من خلال الكتاب المتغير الذي يحمله دائما مما جعل تفكيره يسبق التنفيذ. فيصبح إنتاجه قليلا لأنه سجين فكرته. ويعتقد أن الفن المكسيكي هام جدا والإفريقي، وأن التطلع للفنون الغربية التي قدم منها أغلب

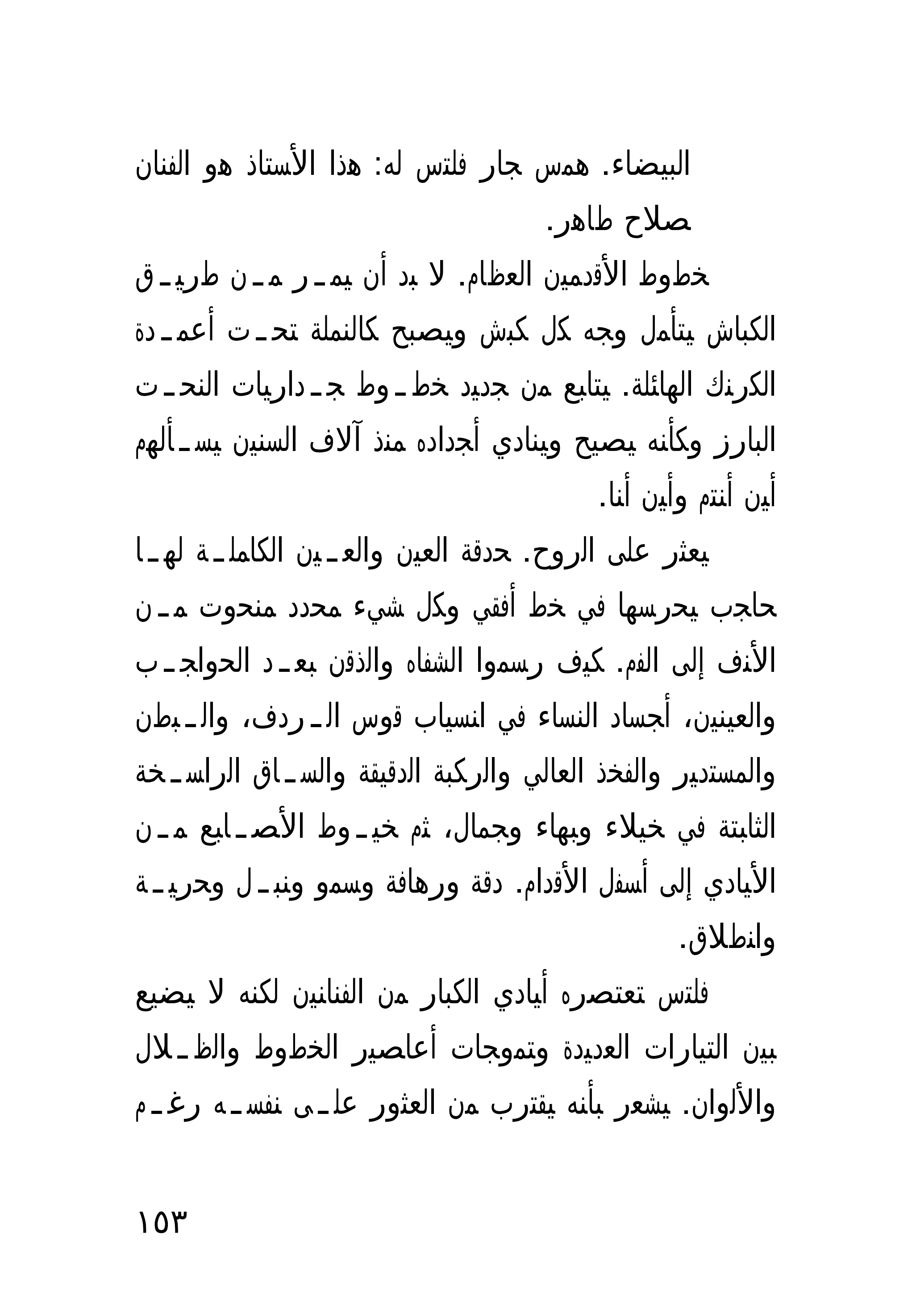
الأساتذة ليست الطريق السليم لتكوين فنون تشكيلية لها هويتها المصرية.

لأول مرة اعتبر الاختلاط بين الجنسين في نظام الكلية الجديدة شيئا طبيعيا فتحضر إحداهن مع شـقيقتها وكأنهمـا رائدتان تشقان طريق تطور الكلية، فتاتان في عمر الزهـور ينضمان إلى لفيف الشباب من الذكور.. ليلى عسل وشقيقتها ماك من عائلات الدبلوماسيين تنتظمان في المراسم وتنضـم لهما درية بملامحها الريفية والصعيدية. وتفتح الإدارة المجال لعلاقة جديدة مع معهد البنات للفنون فيحضر فـوج كامـل منهن وتزدحم الكلية في الفناء والصحن والصالة والحجـرة والمرسم والمعمل والمحجر بجيل كامل من طالبات الرسـم والنحت والحفر والزخرفة والتصوير الزيتي.

وتندمج العلاقات وتسبح في بحيرة الفن بجعات طائرة وإوزات عالية الرقاب لها ألوان الطيور وزعانف الأسـماك وريش النعام فتندلع العواطف مع اندماج الأعمـال واحتـدام النقاش وتبادل الموديلات. وتبدأ ظاهرة جديدة اسمها (حـب الزميلات).

وسط زحام اللوحات المكدسة انضم في درس واحد طلاب السنة الإعدادية والسنة الأولى تصوير زيتي كتجربة جديدة لضم المراسم، دخل أستاذ لا يعرفه أي طالب. فارع الطول كالفارس حاد القوام في رشاقة الممثل المسرحي. أنيق ربطة العنق واختيار السترة. في وجهه معالم تشبه أمراء الأرستقراط وأصحاب القصور عندما يتحدث يسكت الجميع وينصت. إنه فنان معروف يلقاه الطلاب اليوم وجها لوجه. حواجب تنساب حول عينين ثاقبتين وأنف أنيق معتدل الحجم يعطي رشاقة للخدين، والبشرة وردية فاترة والفم والذقن يلتويان قليلا كأنهما في عناق دائم. يفتح الفم بخط واحد ينفرج ويتسع قليلا ثم كثيرا من اليمين إلى اليسار ويقول بعد أن يشد بعد كل لفظ عروق رقبته ويعدل من ربطة عنقه الملونة الجميلة:

- أنا جاي أقول لكم.. الحس أولا.. ثم العمل.. تأمل كثيرا الوجه البشري أمامك للموديل.. لا تضع أي خط على الورقة أمامك قبل أن تشعر بدافع داخلي.. شعور بإحساس معين وطريقتك في تلقي هذا الوجه. أرجوكم.. تأملوا كثيرا.. قبل لمس سطح الورقة



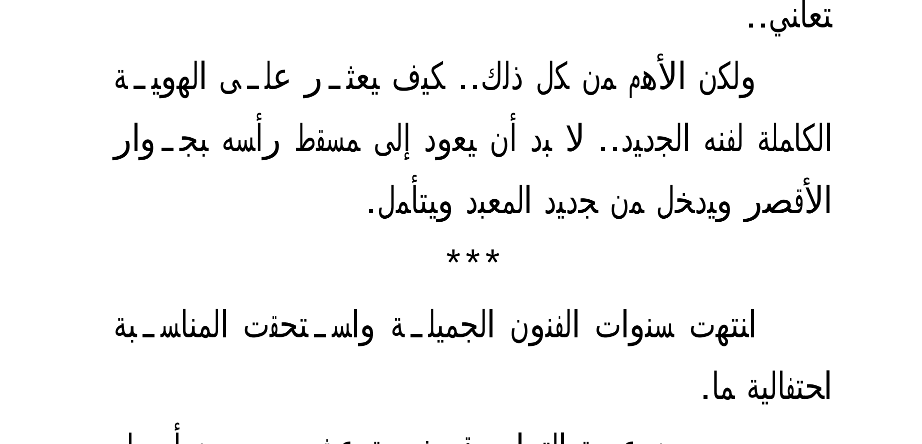
البيضاء. همس جار فلتس له: هذا الأستاذ هو الفنان صلاح طاهر.

خطوط الأقدمين العظام. لا بد أن يمـر مـن طريـق الكباش يتأمل وجه كل كبش ويصبح كالنملة تحـت أعمـدة الكرنك الهائلة. يتابع من جديد خطـوط جـداريات النحـت البارز وكأنه يصيح وينادي أجداده منذ آلاف السنين يسـألهم أين أنتم وأين أنا.

يعثر على الروح. حدقة العين والعـين الكاملـة لهـا حاجب يحرسها في خط أفقي وكل شيء محدد منحوت مـن الأنف إلى الفم. كيف رسموا الشفاه والذقن بعـد الحواجـب والعينين، أجساد النساء في انسياب قوس الـردف، والـبطن والمستدير والفخذ العالي والركبة الدقيقة والسـاق الراسـخة الثابتة في خيلاء وبهاء وجمال، ثم خيـوط الأصـابع مـن الأيادي إلى أسفل الأقدام. دقة ورهافة وسمو ونبـل وحريـة وانطلاق.

فلتس تعتصره أيادي الكبار من الفنانين لكنه لا يضيع بين التيارات العديدة وتموجات أعاصير الخطوط والظـلال والألوان. يشعر بأنه يقترب من العثور علـى نفسـه رغـم

رفضه للتعاليم الأكاديمية، تموج في رأسه أفكار عن المنهجية والتقليدية الفاترة والتقنية الزائفة واتجاهات الفن الحديث في فن الرسم من التعبيرية والواقعية والغربية والشرقية والهوية المصرية الثابتة في رأسه والدفاع عن الإنسان في بلاده في كل مكان في السوق والشارع والحارة والمقهى وسلم الباص وأهل المولد وأطفال الساقية.. يريد أن يغوص في أعماق ماضيه ليرى من جديد أسرته المتوسطة المتواضعة التي تعاني..



ولكن الأهم من كل ذلك.. كيف يعثر على الهوية الكاملة لفنه الجديد.. لا بد أن يعود إلى مسقط رأسه بجوار الأقصر ويدخل من جديد المعبد ويتأمل.

***

انتهت سنوات الفنون الجميلة واستحقت المناسبة احتفالية ما.

يصعدون عربة الترام رقم خمسة عشر، من أمام شجرة الورد الأحمر قبل عبوره جسر العجوزة ويغيرون الترام في باب الحديد حتى دوران شبرا منزل كبير يطل على شارع شبرا الرئيسي. نوافذه مفتوحة والطابق على

الأرجح هو الثالث. فلتس يجلس في هـدوء وسـط زملائـه سمير وصمويل وبهجت ورياض.. لا يـتكلم أحـد، ولكـن همهمات مشتركة تضم الجميع في عناق اللحظة التي طالـت حتى منتصف الليل، فعدد المنتظرين كبير، دستة كاملة مـن طلاب الجنس بعد عام طويل من التحصيل والاجتهـاد فـي الكليات المختلفة. ولا حديث ولا قفشات، الجو هادئ ومفتعل ولا يسعد أحدا سوى الاكتفاء والاقتنـاع بسـلامة الرجولـة وقدرة كل واحد على ممارسة الحب بالجسد فقط.

فلتس في قمة لحظات وجده وحضوره كشاب يـافع.. دراساته لجسد الموديل العاري ليست لها أية علاقـة بعـالم الجنس الذي كان يسبح في خياله ها هي تجربته الأولى تأتي. يجيء دوره ويدخل غرفة النوم.. ظلال وضوء خافت مـن وراء نافذة قديمة وسرير أرضي وجسد يئن من التعب لامرأة جميلة سمراء في عمر الزهور.. تتظاهر بالترحيب، عاريـة تماما، جسد متكامل النسب الجمالية ورأس صـغير ملـيء بتعبير الفقر والتظاهر بإعطاء الحنان والحب.

يسكن جسده النحيل داخلها فيصبح كأنه على شـاطئ بحر صيفي، هي الشمس التي تصـهره، عطـر الأصـدقاء

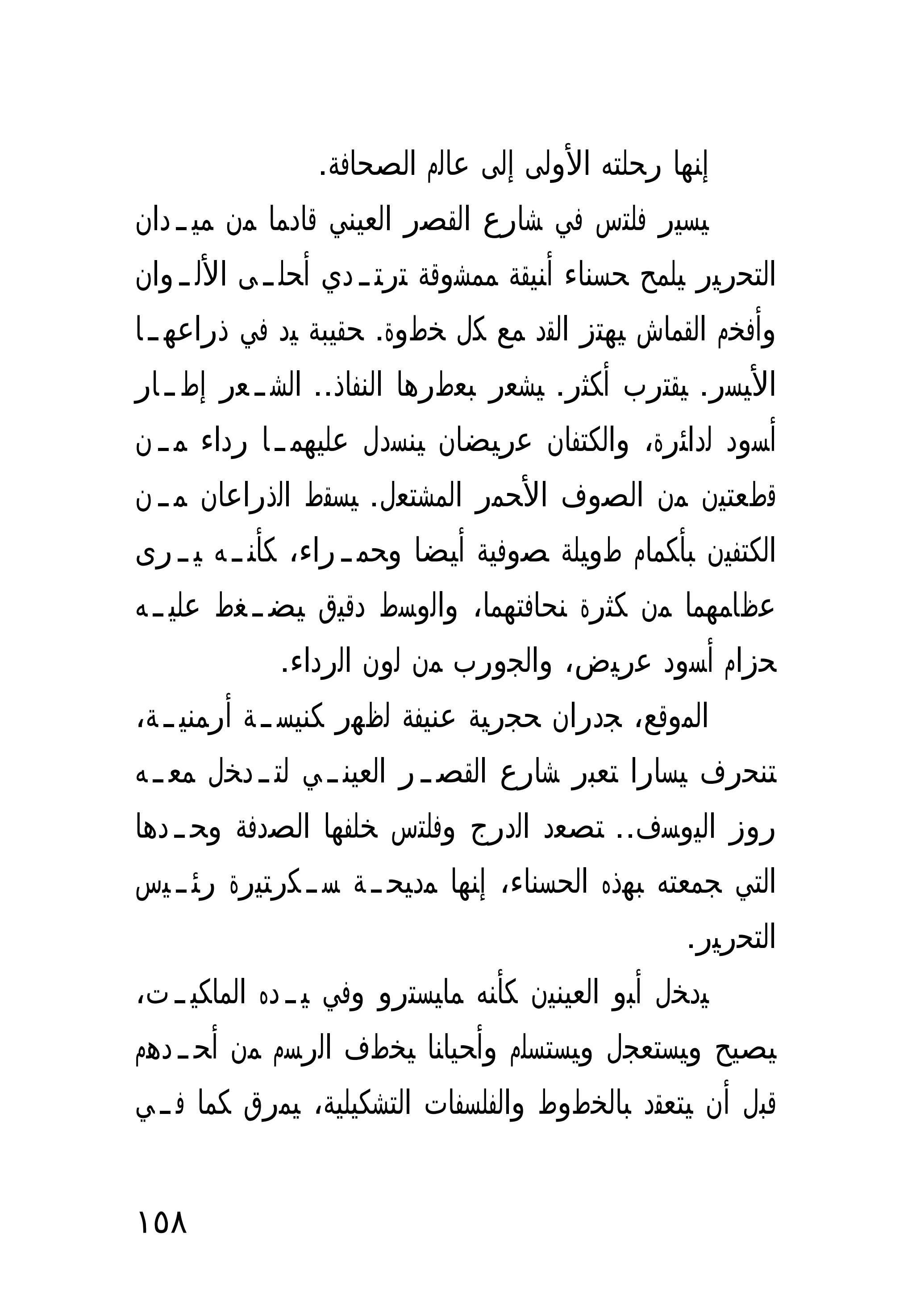
يختلط مع عطرها ويدور حوار صغير بينهما يسـألها عـن أحوالها، ينكسر صوتها من التعب وهي تضمه، تلمس شفتاه شفتيها وصدره نهديها ويخجل من شيئه فتشده إليها أكثـر إلا أنه يكتفي بلحظته الأولى معها فيتماص منها ويقبلهـا علـى الوجنتين شاكرا.. لقد كرمه زملاؤه بدخوله قبلهم لكنه يتركها وكأنه يغسل يديه في ماء العفة.. عندما يعبر باب الغرفة إلى الصالة يتظاهر بالبطولة السريعة ويكـرر الحكايـة بعـض أصدقائه الآخرين فيكتشف أنهم تصرفوا مثله تماما.

الفصل الخامس

اليوم في المساء يذهب فلتس إلى عمله الجديد في المجلة.. يلتقي بالفنان أبو العينين في غرفة صغيرة كأنها بير سلم. ليس في المكان سوى مكتبة ومكتب صغير آخر لسكرتيرة رئيس التحرير. بين المكتبين باب رئيس التحرير مغلق، ولكنه مع أية لمسة ينفتح على مصراعيه. أبو العينين لا يرى سوى أوراقه العديدة وقد انحنى بزاوية لضعف في عينه اليسرى، بجواره شاب هادئ له كتفان عريضان ورأس ثقيل كأن بداخله جمجمة جرانيتية تحمل نبلا غير عادي وعيناه داخل إطارات كثيفة من الخطوط السوداء.

المخرج الفني لا يلتفت إلى فلتس الذي دخل كأنه يهمس على أطراف أصابع قدميه، وينهمك في حديث مع ضيفه الذي يبدو أحد الكتاب الجدد اللامعين يكتب قصصا ومسرحيات باسم ألفريد فرج.

فجأة يفتح الباب الذي وسط المكتبين فيصبح كتفا الضيف جزءا من قامة لشخص معروف ملأت صوره صفحات العدد الأخير: انتظروا الرواية الأولى لرئيس التحرير «النظارة السوداء»



إنها رحلته الأولى إلى عالم الصحافة.

يسير فلتس في شارع القصر العيني قادما من ميـدان التحرير يلمح حسناء أنيقة ممشوقة ترتـدي أحلـى الألـوان وأفخم القماش يهتز القد مع كل خطوة. حقيبة يد في ذراعهـا الأيسر. يقترب أكثر. يشعر بعطرها النفاذ.. الشـعر إطـار أسود لدائرة، والكتفان عريضان ينسدل عليهمـا رداء مـن قطعتين من الصوف الأحمر المشتعل. يسقط الذراعان مـن الكتفين بأكمام طويلة صوفية أيضا وحمـراء، كأنـه يـرى عظامهما من كثرة نحافتهما، والوسط دقيق يضـغط عليـه حزام أسود عريض، والجورب من لون الرداء.

الموقع، جدران حجرية عنيفة لظهر كنيسـة أرمنيـة، تنحرف يسارا تعبر شارع القصـر العينـي لتـدخل معـه روز اليوسف.. تصعد الدرج وفلتس خلفها الصدفة وحـدها التي جمعته بهذه الحسناء، إنها مديحـة سـكرتيرة رئـيس التحرير.

يدخل أبو العينين كأنه مايسترو وفي يـده الماكيـت، يصيح ويستعجل ويستسلم وأحيانا يخطف الرسم من أحـدهم قبل أن يتعقد بالخطوط والفلسفات التشكيلية، يمرق كما فـي

جندول ينساب عبر قنوات فينسيا. مجدافه ريشة، يغني على جيتار، ويبربش عينيه أمام الرسم المختار، ويعود بالجندول يغني حاملا الماكيت إلى مكتبه الصغير المجاور: ويحضر رئيس التحرير تسبقه «نرمين» تتهادى على أخشاب أرضية الشقة الآيلة للسقوط، تضرب بكعب حذائها الطويل الأنيق الأسود العاجي كأنها تضرب مائدة القضاة العالية لتقول: محكمة.

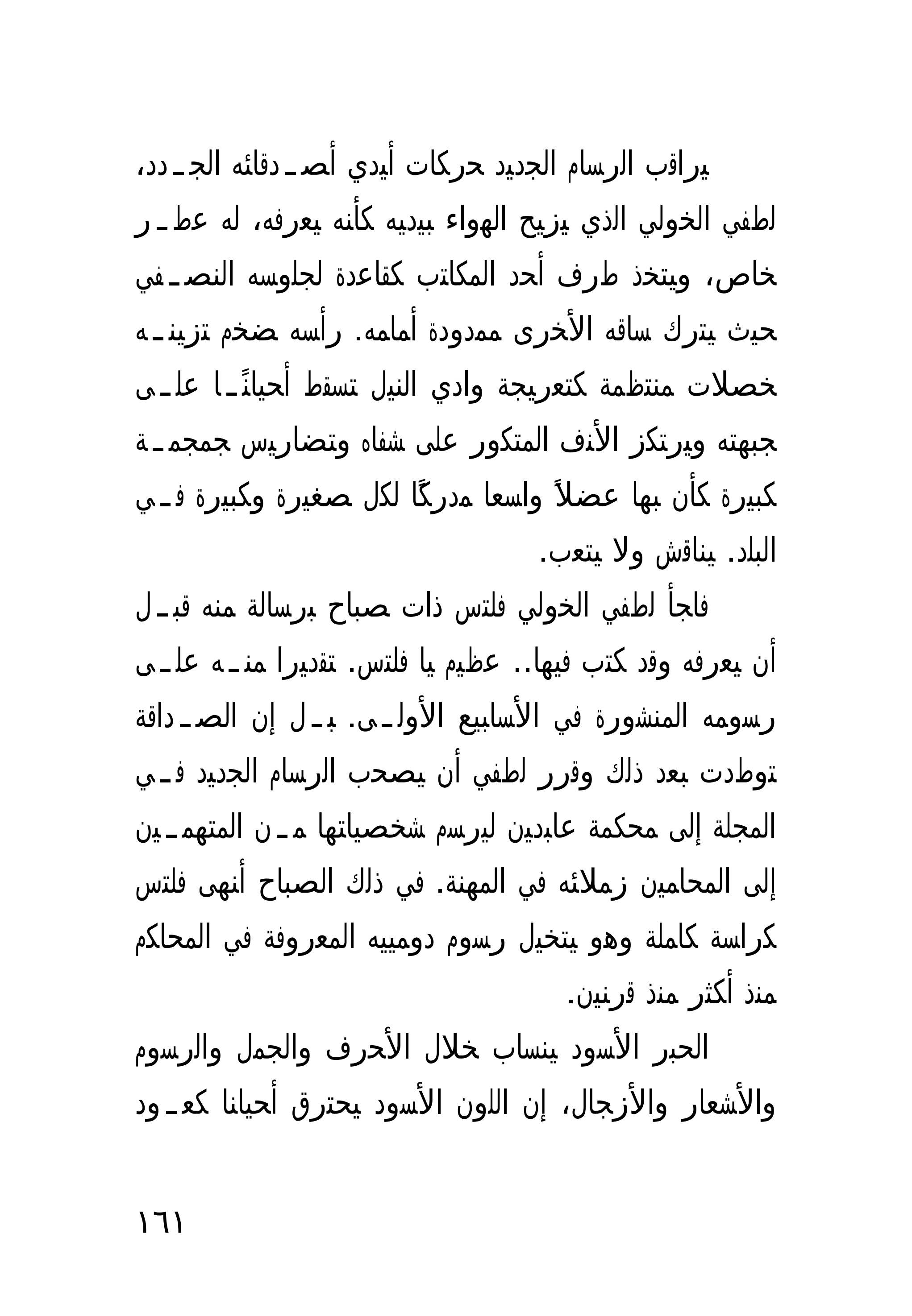
يرسم أحدهم أنف نرمين الطويل كما منقار البجعة الطائرة، ويرسم الآخر ساقيها وحولهما تنورة تتطاير كأن ريحا معطرا ونسمة حب تهفو حولها وحولهم، ضحكتها تسبقها قبل أن يرى الرسامون كعب الحذاء الأنيق حاملا كأس الساق الجميلة.. تختال في تنورتها كأنها تلف نصف دائرة دائرة وكأن الرسامين جمهور أوبرا وهي نجمة «بالية بحيرة البجع».

ويحضر بعدها في ذات المسرحية بطلها الأمير الذي اختار أن يقف على ساق ونصف كلما تكلم وأفاض في حديثه، تزداد سيجارته المربوطة بأسنان فمه طولاً، وكلما نمت الفكرة طال رماد السيجارة ، يحركها بطرف أسنانه

وهو يخلع نظارته ثم يستريح لحظة، يركن السيجارة أو ينهيها ثم يقول كأنه يغلق الجملة: هه، أهه.. ثم يعيد عويناته السميكة فوق أنفه ويبدأ من جديد في وصل ما انقطع، فيسحر المستمع إلى أن يصل إلى نهاية التسلسل المنطقي لفكرته، إنه أحمد بهاء الدين.

يسير في هذا الدهليز الطويل حتى أغواره التي تصل إلى مطبخ عم سيد وصبيه واسع العينين بملابسه البسيطة، في فتحة قميصه مشبك يغلقه عند الرقبة، وفي بنطاله المتساقط تعب المشوار الصغير المتكرر ما بين ركن مطبخه الصغير والمكاتب العديدة حاملاً المشروب الساخن وبخاره الذي يدفئ القلوب قبل الأفواه.. يرشف الواحد رشفة منه مشتعلة بالحرارة ويدخن سيجارة وكأنه لم يشعلها من كثرة تعوده.

وينضم لهم قادمون آخرون يحملون أوراقهم المكتوبة وتختبئ في صدورهم أقلام دافئة يتناورون ويتناقشون حول مسلسل جيد على صفحات المجلة عنوانه «سعد المفترى عليه».


يراقب الرسام الجديد حركات أيدي أصـدقائه الجـدد، لطفي الخولي الذي يزيح الهواء بيديه كأنه يعرفه، له عطـر خاص، ويتخذ طرف أحد المكاتب كقاعدة لجلوسه النصـفي حيث يترك ساقه الأخرى ممدودة أمامه. رأسه ضخم تزينـه خصلات منتظمة كتعريجة وادي النيل تسقط أحيانًـا علـى جبهته ويرتكز الأنف المتكور على شفاه وتضاريس جمجمـة كبيرة كأن بها عضلاً واسعا مدركًا لكل صغيرة وكبيرة فـي البلد. يناقش ولا يتعب.

فاجأ لطفي الخولي فلتس ذات صباح برسالة منه قبـل أن يعرفه وقد كتب فيها.. عظيم يا فلتس. تقديرا منـه علـى رسومه المنشورة في الأسابيع الأولـى. بـل إن الصـداقة توطدت بعد ذلك وقرر لطفي أن يصحب الرسام الجديد فـي المجلة إلى محكمة عابدين ليرسم شخصياتها مـن المتهمـين إلى المحامين زملائه في المهنة. في ذلك الصباح أنهى فلتس كراسة كاملة وهو يتخيل رسوم دوميه المعروفة في المحاكم منذ أكثر منذ قرنين.

الحبر الأسود ينساب خلال الأحرف والجمل والرسوم والأشعار والأزجال، إن اللون الأسود يحترق أحيانا كعـود

ثقاب اشتعل على التو فبدا لونه يتدرج من الأصفر والأخضر فالبرتقالي والأحمر ثم الأسود. لون الحبـر يسـري داخـل قنوات الأقلام لينسكب على الورق في بطء وحذر بنقد لاذع وهجوم وفضح ودفاع عن الظلم.

على طاولات المحررين تزدهر المشـاعر.. وعلـى طاولات الرسامين الموظف النائم على مكتبـه وأم العيـال، التي تضم أطفالها، الكسالى على مقاهي النشـاط ودواويـن الحكومة وبيروقراطية المسئولين وتلكـؤ الطلبـات وتـأخر الشكاوى وانتظار الباص والبحث عن تاكسي والبحث عـن شقة للزواج والصراع بـين الأزواج ومرمطـة الشـغالات والعثور على البروتين في أطباق الفول وأقراص الطعميـة. الرسام حامل سيف تحته حصان له سيقان طويلة كمـا فـي لوحات دالي السيريالية.

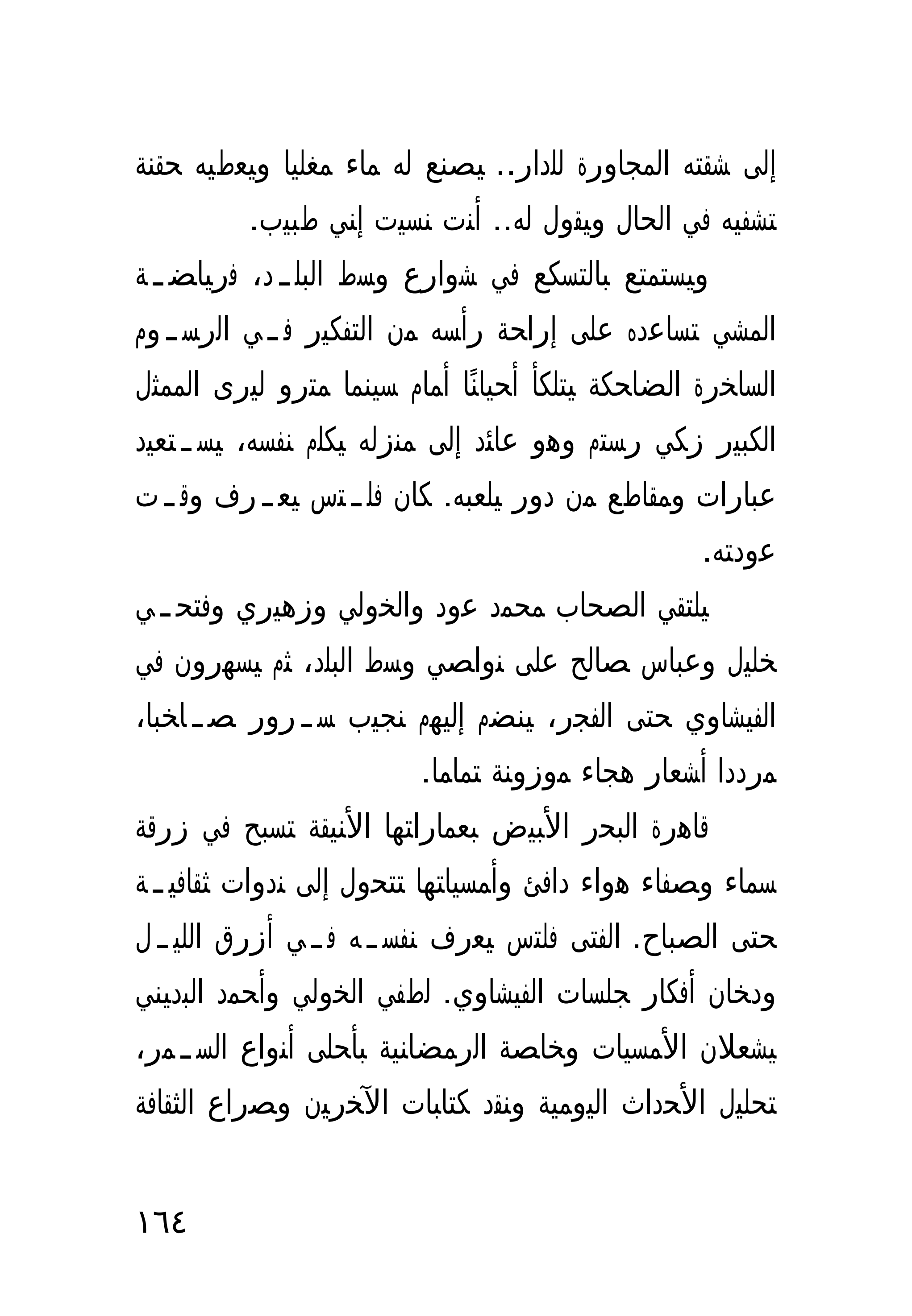
رسام المجلة عبد السميع قابع في أهم زواية من زويا غرفة الرسامين يقلب في عناوين الصحف وتفاصيل الأخبار فيخرج من ريشته حبر ثائر عنيف يزمجـر علـى الورقـة البيضاء ويكتب التعليق، ثم ينفجر في ضحكة تزلزل المكـان وتجعل رئيس التحرير يحضر فورا إلى موقع الحادث. ولادة

نكتة كاريكاتيرية سياسية تهجم على الحكومـة والأحـزاب متندرة، أغلبها على ألسنة الحيوان.

ذات اليوم يدخل في المساء رئيس التحرير ويقرأ على الرسوم الجديد مقاله لافتتاحية اليوم والغد، وفلتس ينصت في ترقب وخوف، إلا أن رئيس التحرير مبتسما يخاطبه: «انت (حوي) – يقصد أنت حر – لك أن توافق علـى مـا أكتبـه أو ترسم ضده».. فلتس يتعلم أول درس فـي الديمقراطيـة، فأجاد رسم المقال.

لطفي الخولي يتحدث وحوله لفيف من صحبة العمـر أحدهم يوسف إدريس يمزح ويسخر ويطوح بذراعـه فـي الهواء، فيتحرك كل ما حوله ويحكي أحلى القصص عنـدما كان مسجونا سياسيا يصعد إلى النافذة الحديدية ويمد ذراعـه إلى أحد عمال التراحيل الذي يمرض، فتذهب زوجته الفلاحة لتبحث عن جذور بطاطا فيعتدي عليهـا صـاحب الأرض. ومحمود أمين العالم يلقي الشعارات بحماس وتفاؤل أكثر من الحقيقة.

ويهمس فلتس بينهما بكلمات قليلة وهو يمسـك بقلـم وورقة ليرسمهما فتسقط الورقة من الإعياء فيأخذه إدريـس



إلى شقته المجاورة للدار.. يصنع له ماء مغليا ويعطيه حقنة تشفيه في الحال ويقول له.. أنت نسيت إني طبيب.

ويستمتع بالتسكع في شوارع وسط البلـد، فرياضـة المشي تساعده على إراحة رأسه من التفكير فـي الرسـوم الساخرة الضاحكة يتلكأ أحيانًا أمام سينما مترو ليرى الممثل الكبير زكي رستم وهو عائد إلى منزله يكلم نفسه، يسـتعيد عبارات ومقاطع من دور يلعبه. كان فلـتس يعـرف وقـت عودته.

يلتقي الصحاب محمد عود والخولي وزهيري وفتحـي خليل وعباس صالح على نواصي وسط البلد، ثم يسهرون في الفيشاوي حتى الفجر، ينضم إليهم نجيب سـرور صـاخبا، مرددا أشعار هجاء موزونة تماما.

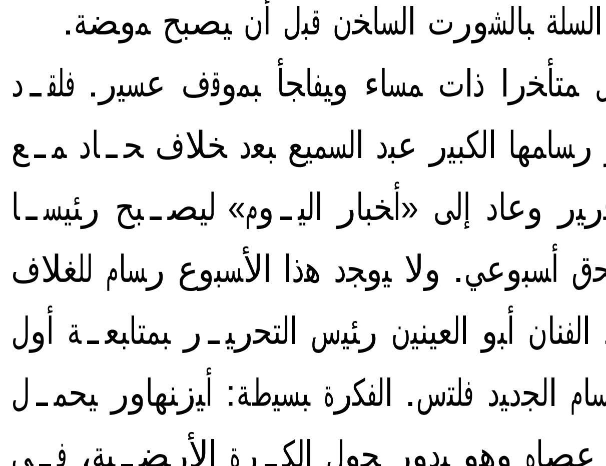
قاهرة البحر الأبيض بعماراتها الأنيقة تسبح في زرقة سماء وصفاء هواء دافئ وأمسياتها تتحول إلى ندوات ثقافيـة حتى الصباح. الفتى فلتس يعرف نفسـه فـي أزرق الليـل ودخان أفكار جلسات الفيشاوي. لطفي الخولي وأحمد البديني يشعلان الأمسيات وخاصة الرمضانية بأحلى أنواع السـمر، تحليل الأحداث اليومية ونقد كتابات الآخرين وصراع الثقافة

والتفاف الناس حول الثـورة وموجـة اليسـار وارتباطـه بالسوفييت ونقد ستالين.

فلتس حائر. كيف يستطيع تكوين وعي كامل. قالت له إحدى الشخصيات الكبيرة ذات مرة: رسـمك قـوي لكـن ينقصك الوعي السياسي. الريشة لا تكفي. يطول الوقت ليجد أسلوبه المميز، ولكن لا بد أن يكون له مسلك سياسي نابض بخفايا الأحداث وما وراء الأخبار والعناوين الضـخمة فـي الصحف يتذكر كلمات الجريدلي عن وعي الفنان ودفاعه عن القضايا الوطنية.

حوله الحاج حسن في قبقابه الموسيقي كما خشب الرق والطبل، في خطواته إيقاع يوقظ الشاب البدين المـرح فـي ركن بير السلم وأمامه شبكة الخطوط اللاسـلكية والهاتفيـة. كأن كل ركن في الصالة الكبيرة قطـار يجـري بعجـلات ودخان وزيت وبخـار، تخـرج الكلمـات وتهـبط الجمـل والمقالات في المحطات تلو المحطـات تـدور مـن جديـد قطارات الرأي، تضع النقاط فـوق الحـروف، والخطـوط المرسومة تضحك مع نفسها قبل أن تهبط في المحطات التي تليها.

يغلق رئيس التحرير ومعه السكرتير الفني أبو العينين باب غرفة الرسامين الذي يغلق بصعوبة ويصبح بداخلها ثلاثة: الاثنان الكبار، ووسطهما الرسام الناشئ الطالب القادم هذا المساء من كلية الفنون بعد وداعه لزملائه في مطعم بولاق مرورا بحديقة الجامعة الأمريكية متوقفا من خلف السور الحديدي ليتفرج على سيقان فتيات الجامعة اللاتي يلعبن كرة السلة بالشورت الساخن قبل أن يصبح موضة.

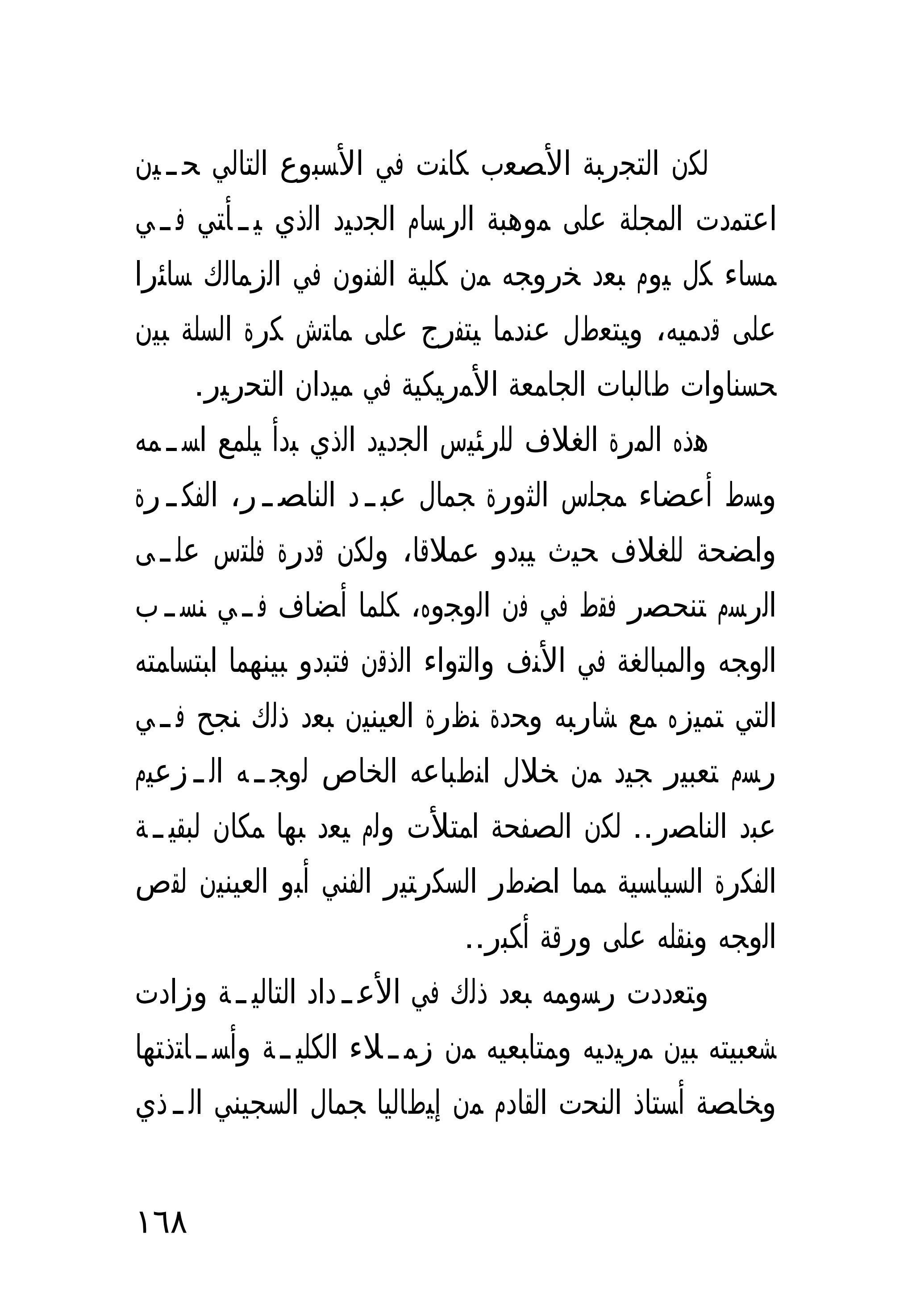


يصل متأخرا ذات مساء ويفاجأ بموقف عسير. فلقد غادر الدار رسامها الكبير عبد السميع بعد خلاف حاد مع رئيس التحرير وعاد إلى «أخبار اليوم» ليصبح رئيسا لتحرير ملحق أسبوعي. ولا يوجد هذا الأسبوع رسام للغلاف سواه. وعد الفنان أبو العينين رئيس التحرير بمتابعة أول غلاف للرسام الجديد فلتس. الفكرة بسيطة: أيزنهاور يحمل بؤجة على عصاه وهو يدور حول الكرة الأرضية، في البؤجة مشروع أيزنهاور في الشرق الأوسط، وكل ما يحمله على ظهره من استغلال واستعمار أمريكي يتمثل في العلم الأمريكي.

ارتبك فلتس واهتز القلم الرصاص في يده، والاثنـان يرقبان كل تفاصيل الرسم، وأحضـروا لـه صـورة مـن الأرشيف القديم لوجه الأمريكي. تذكر كلمات الجريدلي عـن الوعي السياسي.. وتذكر نعمة كامل التي كانت تنصحه دائما بالقراءة وأن الرسم وحده لا يكفي.

هنا وضع فلتس كل ما يملكه من قدرة التعبيـر علـى وجه أيزنهاور وقد مط في رأسه وفي صلعته وبطط في ذقنه فأصبحتا كأنهما الجزء الأسفل من ثمرة القرع الكبيرة عندما تسقط على الأرض وأضاف بعد ذلك خطا بالعرض فأصـبح الوجه له ابتسامة عريضة بلهاء، ثـم رسـم فوقهـا عينـين مفتوحتين مبحلقتين مع حاجبين شريرين.

اعتمد فلتس في قدرته على رسم الوجوه حتى يتميـز الغلاف الأول للمجلة بأسـلوبه الجديـد وخصوصـيته فـي التلخيص والاختزال. وكأنه طفل صغير، أحضر له الفنـان أبو العينين علبة الألوان وفرشاة وكوب ماء مع القهوة علـى كتف عم سيد.. تململ رئيس التحريـر صـاحب النظـارة السوداء.



لكن التجربة الأصعب كانت في الأسبوع التالي حـين اعتمدت المجلة على موهبة الرسام الجديد الذي يـأتي فـي مساء كل يوم بعد خروجه من كلية الفنون في الزمالك سائرا على قدميه، ويتعطل عندما يتفرج على ماتش كرة السلة بين حسناوات طالبات الجامعة الأمريكية في ميدان التحرير.

هذه المرة الغلاف للرئيس الجديد الذي بدأ يلمع اسـمه وسط أعضاء مجلس الثورة جمال عبـد الناصـر، الفكـرة واضحة للغلاف حيث يبدو عملاقا، ولكن قدرة فلتس علـى الرسم تنحصر فقط في فن الوجوه، كلما أضاف فـي نسـب الوجه والمبالغة في الأنف والتواء الذقن فتبدو بينهما ابتسامته التي تميزه مع شاربه وحدة نظرة العينين بعد ذلك نجح فـي رسم تعبير جيد من خلال انطباعه الخاص لوجـه الـزعيم عبد الناصر.. لكن الصفحة امتلأت ولم يعد بها مكان لبقيـة الفكرة السياسية مما اضطر السكرتير الفني أبو العينين لقص الوجه ونقله على ورقة أكبر..

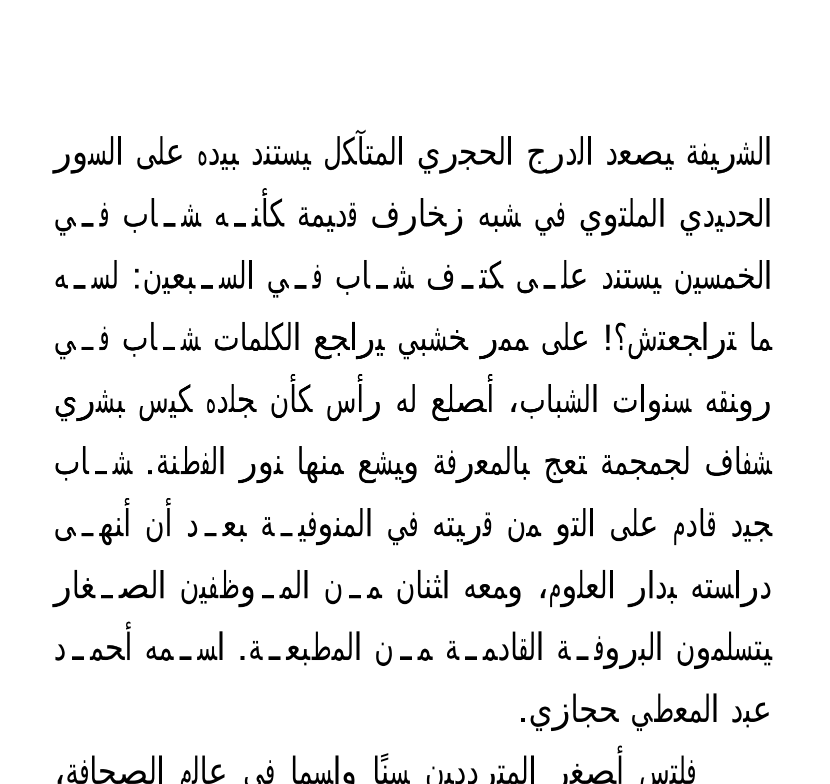
وتعددت رسومه بعد ذلك في الأعـداد التاليـة وزادت شعبيته بين مريديه ومتابعيه من زمـلاء الكليـة وأسـاتذتها وخاصة أستاذ النحت القادم من إيطاليا جمال السجيني الـذي

يستدعيه إلى قسم النحت ويطلب منه أن يرسمه بالأسلوب الجديد. كما أثارته وجوه عديدة حوله من شخصيات الكلية بادئا بشخصية سكرتيرها وحامل حقيبة البريد وأوراق التقديم ومواعيد واستمارات الموديلات الريفيات وعم حسنين.

يأتي المساء، لا أحد يغادر الدار فالسمر والفرح مستمران و «الست» - فاطمة اليوسف – جاءت هذه المرة خلفها إبراهيم السواق بشاربه الأصفر وعيونه الزرق وكرشه الوردي يعلوه ربطة عنق انحنت إلى الأمام بحسب ارتفاع الكرش وبروزه. في غلالاتها السماوية وبشرتها الوردية وتاج الفضة يحيط خصلات شعرها الكثيفة.

ويحضر البوفيه ممثلا في وجه عم سيد وبشرته الباهتة، ابتسامته بالعرض، وشاربه رفيع حول شفاه مصرية لابن بلد في الأربعين من العمر.. حاملا صينية القهوة.. يصب منها أمامه ولا يراه الرسام، ولكن عطر البن ودخان القهوة يصعد في جو الغرفة ويتناول «إحسان» وقوفا فنجانه ويتجه نحو صديقه «جمال كامل».

عندما ينتهي الأسطى حسن من صف حروف كلمات رئيس التحرير وآخرين من الكتاب أصحاب الكلمة الوطنية



الشريفة يصعد الدرج الحجري المتآكل يستند بيده على السور الحديدي الملتوي في شبه زخارف قديمة كأنه شاب في الخمسين يستند على كتف شاب في السبعين: لسه ما تراجعتش؟! على ممر خشبي يراجع الكلمات شاب في رونقه سنوات الشباب، أصلع له رأس كأن جلده كيس بشري شفاف لجمجمة تعج بالمعرفة ويشع منها نور الفطنة. شاب جيد قادم على التو من قريته في المنوفية بعد أن أنهى دراسته بدار العلوم، ومعه اثنان من الموظفين الصغار يتسلمون البروفة القادمة من المطبعة. اسمه أحمد عبد المعطي حجازي.

فلتس أصغر المترددين سنًا واسما في عالم الصحافة، يتمنى أن يغوص في مقعده المصنوع من جريد نخلته في أقاصي الصعيد، ولكن رئيس التحرير المنتعش بكوب بيرة مع الصحاب يريد أن يجعل فلتس المغمور شيئا ما فيؤكد ويلح ويفتح فلاشًا على وجهه ولهجته يقول:

- أنتو مش عايفين اليسام الجديد اللي بيبسم في يوزه.

يقبل على المقهى صديق جديد في لقاءات ما بعد الظهر. خطوط وجهه مع الرقبة والكتفين ورشاقة الجسم

النحيل كأنها خرجت على التو من جدران معبـد الأقصـر، يحمل نصف ابتسامة على شفتيه المكتنزتين، لونهما برونزي مائل إلى الطوبي، بشرته صهرتها شمس الصعيد فـي البـر الغربي وغاصت قدماه الطويلتان في قاع النيل، وخرج بهاء طاهر معجونا بطميه. يسير كأنه يقرأ في كتاب غير منظور، تتداعى حركات أصابعه النحيلة كأنه يمسك بقلـم لا يـرى . يهز كتفيه فتتحرك عظام الترقوة والصدر والظهر كأنه يتكلم بهما.

يلتقي الصحاب في مقهي استامبلوس اليوناني، سبيرو الجارسون، طفل في الستين، حاملا كنكة القهوة لنـا، نحيـل صغير في معطفه الأبيض المعلق نصفه في رقبته بحمـالتين معقدتين من الخلف، على وسطه يرفع الصينية وعليها القهوة المضبوطة وكوب الماء الطويل إلى أعلى رأسه. أرسمه وهو قادم وأرسمه وهو ذاهب، يمازحه بهاء والتشـكيليان حسـن سليمان ومصطفى أحمد وينضم إلينا موريس فريد وصـبري موسى ويوسف السيسي ونبيل زكي. نكتسي الشفاه بلون وجه القهوة البني الفاتح.

يتفتح زهر النرجس ويخرج مـن العنـق الأبـيض، ينفصل عن الغصن الأخضر ويتحول إلى فراشة تطير بلونها الأصفر، تطير كأنها ترقص، ثم تسير في خط متـواز مـع رءوس الورود كأنها سمكة صفراء تسبح في حديقة الحـب. وريقات الزهرة الحمراء المستديرة تنكمش كأنها تعود إلـى زنبقتها تغلق تماما رأسها كأنها تلتحف بحجاج الورد، تختبئ في خجل وتلملم غصنها المهتز تحت رأسها فتنام في دعـة اللذة واكتمال المتعة.

وجه مستطيل له خصلات من الشعر المنسـوج فـي خطوط متساقطة على الجبهة في بساطة، وحاجبان يرسـمان رقم ٨ وأنف حاد يقسم الوجه نصفين ويبدو أسـفلها شـفتان متساويتان لهما تحديد واضح. في حركة لقائهما وابتعادهمـا وظهور الأسنان يضحك ويقول عبارات جادة تنتهي بمفارقة. يعود يعلق على العدد الذي صدر ويبشر بمقالات العدد الذي سيصدر وأبو العينين، غارقا في أوراقـه، يجعلهـا تنحنـي لتصبح على زاوية معينة قريبة جدا من العين السليمة. يبتسم لرئيس التحرير دون أن يلتفت إليه.. يحيي الكاتـب الجديـد الذي تكتب عنه الصحف بأنه كاتب سـيناريو فـيلم جديـد

لروائي جديد اسمه نجيب محفوظ ولمخرج شاب قـادم مـن باريس اسمه توفيق صالح وأن الفيلم بدأ تصـويره واسـمه درب المهابيل.. الذي تهتم به الأوساط الثقافية.

ويقبل إحسان عبد القدوس في قميصه الأبيض وربطة العنق الساقطة من العروة المفتوحة في إهمال كأنه لا يـزال يسبح في كلمات تقول: لا أنام، ورجل في بيتي. لا تلتفت إليه العيون الغارقة في الأوراق والعوينات الساقطة كأنهـا فـي متعة إغماء، إلا أن حضوره يهـز الوجـدان، إنـه الأميـر والفارس والكاتب والرسام أيضا. وسط الرسـامين يصـبح توءمهم في الإبداع، لذلك لا يحيونه كرئيس ولا يقفـون لـه احتراما كمدير عام أو رئيس مجلس إدارة، تذوب كل الفروق ويصبح اللقاء حميما يتخلله حوار يفتح الشهية وولائـم مـن الكلمات.

يئن خشب الأرض تحت أقدام أصحاب الرأي وكـأن وزنهم الثقيل بوزن الكلمات، فتخرج مـن الأرض عـروق الخشب ولا تستوي مع ضلوعها فيصعب أحيانا السير.

حجرة الرسامين ملتقى الجميع – في ركنهـا البعيـد فنان، وخلف ضلفة الباب فنان، وعلى الوجه المقابل فنـان،

وعند النافذة فنان، وما بين فنان وفنان فنان. كلهم يضحكون دون أن ينظروا إلى بعضهم البعض. عيونهم في أوراقهم المرسومة، يعتدل أحدهم ليمنع عظام الظهر من الانحناء، والآخر يحتضن الورقة وقد سقطت عويناته عليها. أحدهم يرسم وآخر يقهقه، أحدهم يثرثر والآخر يرمي الخط من ريشته كأنه يبارز بسيفه خصما. فلتس يدقق وينمنم ويضع الزخارف الصغيرة، وصلاح الليثي يمزق الورقة ويعيد الكرة فتصبح أغلب أوراقه في سلة المهملات ويحتفظ بواحدة أو اثنتين للمطبعة.

عبد الحليم حافظ بث حزنه في الموسيقى، وفلتس في الرسم.. تبادلا أطراف حديث به بوح عن الحرمان من الحب منذ الرضاعة، كانت لقاءاتهما نادرة، تسحره صداقته برئيس التحرير إحسان الذي يسهر معه كل مساء غالبا، وصداقته مع فلتس الرسام هي صدفة متكررة.

يسهر الليل جالسا في مكتبه وحيدا، يبحث وسط الصالات المظلمة عن ضوء أباجورة صغيرة في غرفة الرسامين الثالثة على الشمال، تغمره الفرحة عندما يفاجأ به

يدخل الغرفة، يتلقفه بالأحضان، ثم يتركه عبد الحليم لإتمـام الرسوم التي لا بد أن تذهب قبل نهاية الليل إلى المطبعة.

أحيانا يحضر عبد الحليم وفي صحبته العملاق الملحن كمال الطويل. ويداعبه بحنان نابع من أجمل ما عنده، يدندن له على طاولة الرسم وسط ظلام المجلة.

يصحبه إلـى المعهـد العـالي للموسـيقى لحضـور البروفات. ومن خلف الكواليس يملأ الصفحات بالاسكتشـات للفرقة الماسية بقيادة صديقهم الثالث أحمد فؤاد حسن.

يتحنجل عبد الحليم خارجا معه من سينما راديو إلـى رصيف شارع سليمان باشا، ينتبه بعض المارين فيشـيرون بأصابعهم نحوه.. ويهتف أحدهم فيهتف لصديقه الذي يعانقـه بذراعه كأنهما ثنائي غرامي ويقول.. إني أعرفـك.. أنـت المغني الجديد.. يتجهان جنوبا نحـو مطعـم «الأمـريكين» الشهير، ويهمس فلتس إلى عبد الحلـيم.. مـا رأيـك فـي (كاسرولة) بودنج.

عبد الحليم يتحنجل وفلتس يزحف بجـواره يعبـران شارع فؤاد في اتجاه حارة سينما كايرو ومطاعم الفول تنفث روائحه الذكية من فوهات الأواني النحاسية السوداء المحترقة

وتمسح الأصابع الأطباق الشهية في بحيراته الزيتية الذهبية. وفجأة يصيح عبد الحليم مودعا صديقه الرسام وهـو يقفـز بجسده الصغير وينحني بكتفيه كأنه يغني أغنية جديدة، يوقف سيارة محمد عبد الوهاب، ويميل بجسـده علـى «كـابوت» السيارة العملاقة كسفينة في مياه حارة سينما كايرو ويـرى فلتس عبد الوهاب بمنديله الأبيض وأنفه الـذي يشـبه حبـة الكمثرى ينادي على عبد الحليم فيقفز الأخير داخل السـيارة مودعا.

يتطلع إلى تعبير الحاجبين السـاقطين تحـت عظمـة الجبهة صانعا ظلا باللون الأسود.. ويعود يتطلع إلى وجهـه ليجده في الطبيعة بلا حواجب. كيف رسمه بحواجب غليظـة بينما هو في الواقع بلا حواجب على الإطـلاق، ويكتشـف فلتس بأنه رسم الغور داخل ركن العينين، ثم يعود وينظـر، ويعود إلى الورقة ليرسم، ما بين الحـالتين يـرى الأصـل وينساه ويرى الصورة في حالة الاختزال. أعاد الحالة عـدة مرات.. وأهداه الرسم موقعا.

حمل عبد الحليم رسم صديقه لوجهه بطريقته الجديـدة وعاد إلى غرفة التحرير وخرج الثلاثة إلى كازينو الجلاء.

فلتس يغرق في عرقه من الخجل.. ذلك المرض الذي يلازمه منذ تربية الأسرة الملتزمة من وإلى الكنيسة تلك التي أورثته الخوف من كل شيء بحديثهما (الأسرة والكنيسة) عن الممنوعات الخلقية والنفوس الكهنوتية.

يرى عبد الحليم الحزن واليتيم في عيني فلـتس وهـو يرسم، فيراه في مرآته كأنه شقيق أو توءم، ويرى فلتس نفسه في مرآته بشعره الأشعث بلا نظام، المتساقط علـى الجبهـة والوجه الضامر، يتحدثان عن طفولتهما المتشابهة، ويفـيض حنان الصديق المغني الجديد كلما رأى تعبيـرات المعانـاة الملحوظة على وجه صديقه الرسام فلتس.

أذاب الصوت في الماء وسقى خشب طاولة الرسم بهذا الماء المعطر بأنفاس متهدجة من صوته ومدندنة:

توبة ان كنت أحبك تاني.. توبة.

أراد عبد الحليم أن يسمع صديقه فلـتس ولادة اللحـن الجديد.

***

جميل يحضر في زيارة قصيرة إلى مصر، يستقبله في المطار إخوته العشرة. في يومه الأول تتدحرج أقدامه علـى

زلطات حديقة الحيوان الملونة كأنها أزهـار منتظمـة فـي حركات دائرية وأفقية ورأسية وبيضاوية. في حديقة الشاي.. يطلب مع الفنجان الساخن الذي يرتشفه بلذة فطيرة من الخبز هلالية الشكل يسميها الكرواسان.. تعبث أصـابعه الطويلـة بلبابها ويقذفه في متعة إلى الإوزة العالية التي تمرق كغـزال وتغطي رأسها بالماء في حركة رشيقة كأنهـا أبـو هيـف اللطيف.. بيضاء كعروس في ليلة زفاف، تـزلط الحلـوى، تروح وتغدو. يسميها عنقاء العقاد. تعطيه ظهرها، ثم تغطس في الماء تنثني في دلال وترفس ساقها الورديـة بأصـابعها الثلاثة الماء الرقراق مرحبة بجميل العائد بعد طول غيـاب. فروع الأشجار تصيح، وتهتز النسمة مع ندى الصباح الـذي لم يجف مع أشعة الشمس الأولى التي سقطت وانعكست على سطح البحيرة.

تختال حبيبته عبر ماء البحيرة ، ترفع الجناح الأيمن، ثم الأيسر وتقفز قليلا، ثم كثيرا وكأنها تعرفه.. هذا القادم من بعيد.. من أمريكا مهاجرا، ثم زائرا.

يذهب الإخوة الكبار الثلاثة جميل وحنا وفلتس حاملين الهدايا إلى جميع أفراد الأسرة. أليس زوجة الأب تذبح بطـة

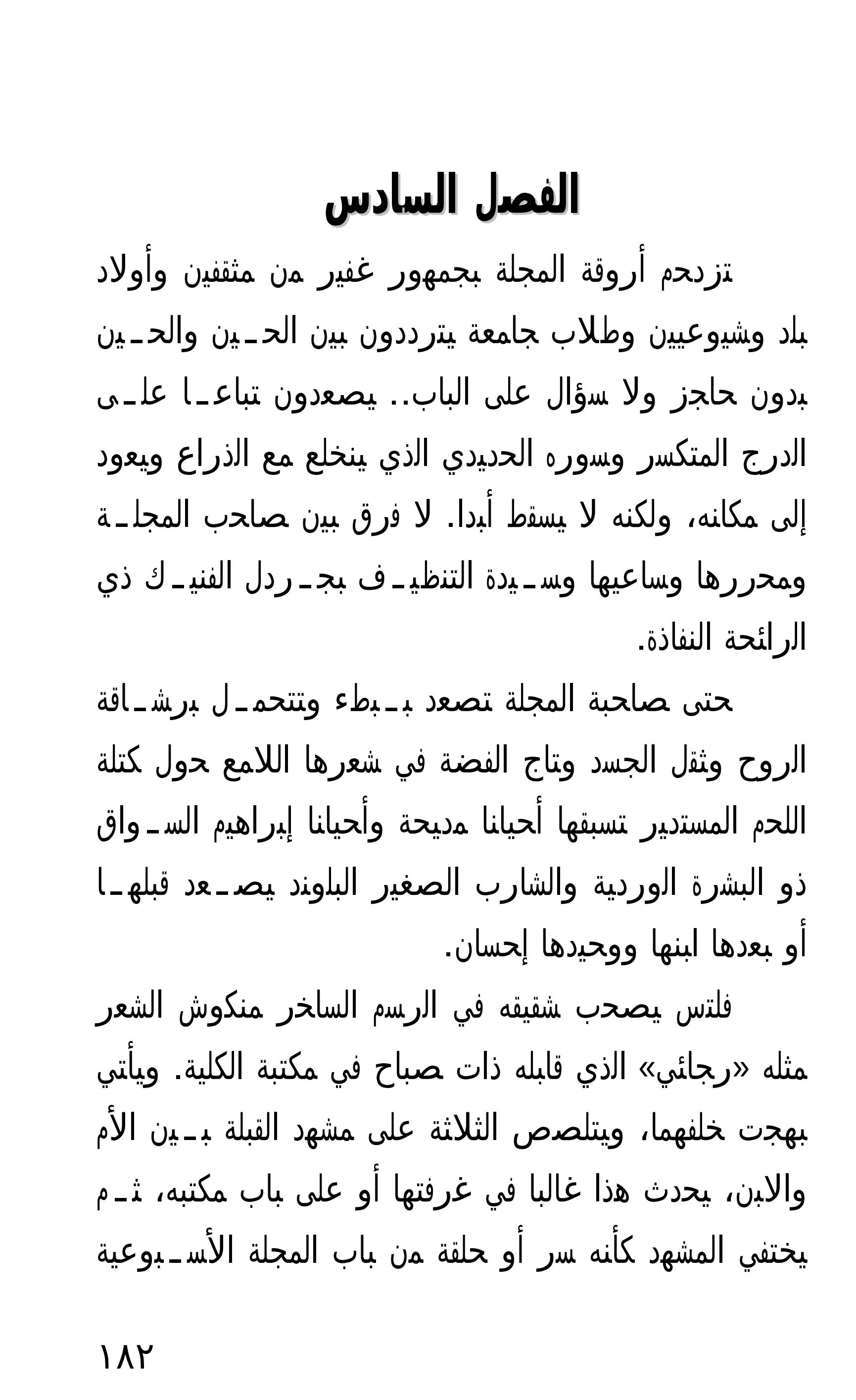
وتسوي كميات هائلة من الأرز الأبيض. ذات مساء بكت وقالت لزوجها:

- أنت جوهرة يا عبد المسيح.. لم أر قلبا أعذب منك. لقد أحببت الحياة كلها من خلالك.. انتظاري الطويل لإميل جعلني كالمجنونة أصرخ في أولادك الكبار من زوجتك رحمة.. لا تتصور مدى حبي لهم الآن، حتى الولد فلتس اللي هو كوم وكلهم كوم، ده ابني وأنا اللي ربيته.. أنت غيرت حياتي يا عبد المسيح. مش بس كده، غيرت حياة عيلتي كلها، حتى لويسه اختي اتجوزت لأنها جت منوف وعرفت لبيب المزارع الكريم اللي أنجبت منه ولد وبنت وعاشت حياتها في العزبة سعيدة جنب ابنها، وأختي الصغيرة العانس كمان اللي انت شجعتها في الدروس، ولقيت وظيفة ممرضة في مستشفى تساعد الأطفال المعوقين وتسهر على خدمتهم.. أنا كمان.. فاكر لما علمتني إزاي أكتب جوابات وأفك الحروف وأقرا الجرايد والكتب. أولادك جميل وحنا وفلتس وجورجيت دول في عينيه زي سيسيل وإديث ودوريس وإيزيس

وإيفلين وإميل. النهاردة الحد كلهم جايين... أنا بطبخ لهم الأكلة اللي بيحبوها دايما محشي ورق عنب مع البطة.. فاتت الأيام والسنين يا عبد المسيح وعرفنـا نربي البنات والأولاد ونكبرهم وياخدوا فرصتهم في الجامعات. أيام التعب والعذاب انتهت.. أولادك هـم أولادي واللي ساعدوا كمان اخوتهم. جميـل وحنـا بعتوا أوراق الهجرة من أمريكا لإميـل الصـغير.. البنات اتخرجوا من الجامعة كل واحدة اختارت كلية وشاطرين في الدراسة ونجحوا. جورجيت مع منيـر الطيار وبنتهم سوزي. سيسيل مـع مـوريس عـالم الجلاجوليا (تقصد الجيولجيا) وبنتهم أميرة. إيـديث مع أمير المهندس اللي كـان زميلهـا فـي الكليـة وأولادهم رائف وغادة. إيفلين المحامية مع صـديق طفولتها نزيه ابن القس بولس وخلفوا أدهـم وهبـة. إيزيس مع يوسف أولادهم وائل ونهى. وجانيت مـع مجدي فلاح المنوفية المثقف وأولادهم فادي ودينـا. كلهم جايين على الغدا بكره عيد سبعة يناير.. وكمان معاهم الواد اللي كنت بقول عليه كوم والبقيـة كـوم

فلتس.. وحيقعد مع الشاي اللي بعد الغدا يتسلي علينا بالرسم.

***

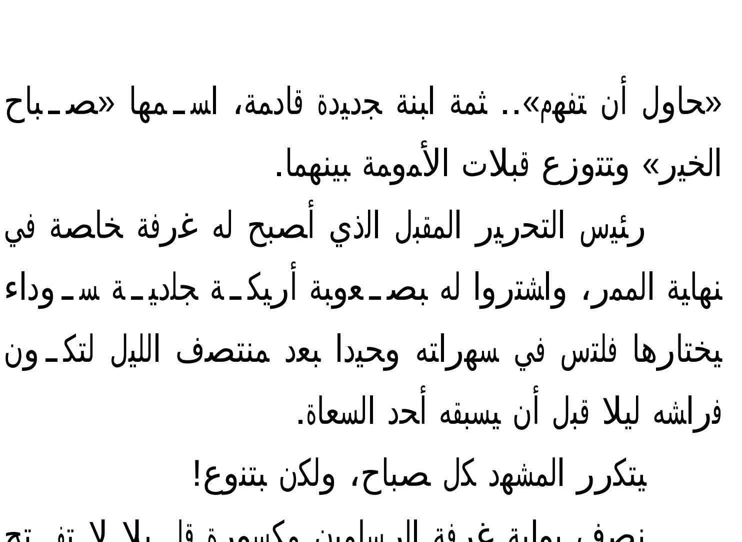


الفصل السادس

تزدحم أروقة المجلة بجمهور غفير من مثقفين وأولاد بلد وشيوعيين وطلاب جامعة يترددون بين الحين والحين بدون حاجز ولا سؤال على الباب.. يصعدون تباعا على الدرج المتكسر وسوره الحديدي الذي ينخلع مع الذراع ويعود إلى مكانه، ولكنه لا يسقط أبدا. لا فرق بين صاحب المجلة ومحررها وساعيها وسيدة التنظيف بجردل الفنيك ذي الرائحة النفاذة.

حتى صاحبة المجلة تصعد ببطء وتتحمل برشاقة الروح وثقل الجسد وتاج الفضة في شعرها اللامع حول كتلة اللحم المستدير تسبقها أحيانا مديحة وأحيانا إبراهيم السواق ذو البشرة الوردية والشارب الصغير البلوند يصعد قبلها أو بعدها ابنها ووحيدها إحسان.

فلتس يصحب شقيقه في الرسم الساخر منكوش الشعر مثله «رجائي» الذي قابله ذات صباح في مكتبة الكلية. ويأتي بهجت خلفهما، ويتلصص الثلاثة على مشهد القبلة بين الأم والابن، يحدث هذا غالبا في غرفتها أو على باب مكتبه، ثم يختفي المشهد كأنه سر أو حلقة من باب المجلة الأسبوعية



«حاول أن تفهم».. ثمة ابنة جديدة قادمة، اسـمها «صـباح الخير» وتتوزع قبلات الأمومة بينهما.

رئيس التحرير المقبل الذي أصبح له غرفة خاصة في نهاية الممر، واشتروا له بصـعوبة أريكـة جلديـة سـوداء يختارها فلتس في سهراته وحيدا بعد منتصف الليل لتكـون فراشه ليلا قبل أن يسبقه أحد السعاة.

يتكرر المشهد كل صباح، ولكن بتنوع!

نصف بوابة غرفة الرسامين مكسورة قلـيلا لا تفـتح ولا تغلق من كثرة الضيوف بين دخول وخروج ومن كثـرة انغلاقه بغضب من الزوار ضحايا ريشة فلتس ورجائي. وجه نرمين يقسم الباب المفتوح بنصف وجهها الملـون الجميـل، وكعادة كل صباح تبدأ بالنكتة كما على الورق. هـذا المـرة تحمل تعبيرا حادا أخرس القفشة على لسان فلتس الذي فهـم على التو أنها تحمل رسالة من رئيس التحرير علـى فمهـا رغم لون الكارمن في شفتيها.

نظرة وإشارة ومرور، تاركا ورقته ورسمته الأولـى هذا الصباح ويتجه نحو غرفة رئيس التحرير. يخـرج مـن وراء مكتبه صائحا وفي يده غلاف الأسبوع المطبوع: لماذا

رسمت عبد الناصر كبيرا وصلاح سالم بجـواره صـغيرا؟ تحب اجبهولك على التليفون وتسمع قاللي إيـه..!! الموقـف صعب جدا. ويلقي إحسان عبد القدوس بالمجلة أمامه وعليها الغلاف الثالث الذي رسمه: عبد الناصر كبيرا خلـف قبـة مجلس الشعب وصلاح سالم صغيرا معه فوطـة وجـردل، والمناسبة افتتاح المجلس لأول مرة بعـد الثـورة والتفـاخر بشعار الديمقراطية.

فلتس – بلاش الرسم في المجلة أنا حـارجع الفنـون الجميلة بكرة علشان أرسم عطيات الموديل بمزاجي وبـلاش رسم الشخصيات الكبيرة دي، بلاش سياسة اعمل معروف.

ويعود إحسان عبد القدوس لطيفا كعادتـه وقـد تـابع الوجه الذي يتحول إلى نصف ابتسامة: أنا ما باتكلمش عـن الفن.. انت رسمت صلاح سالم كويس أوي من الناحية الفنية لكن صغرته ليه جنب الريس عبد الناصر.. ده اللي أنا عاوز أفهمه.. وانت عارف أعضاء مجلس الثـورة دول يقـدروا يعملوا فيك إيه.. اتفضل روح أودة الرسم.

فيرد ملطفا الموقف: حاضر حاكبره في العدد الجاي.

وصوت في أعماقه يقول له: ولا يهمك.. حرية الكاريكاتير هي ميزان الديمقراطية. ويستعيد كلمة أستاذه: العب يا بني بالقلم.. العب بالقلم.

انتظر الجميع إلقاء شاب سمين لقصيدة جديدة، عندما جاء رئيس التحرير يتنهنه في ود، ويضحك قليلا فتتسع حركة الشفاه المرسومة التي تفسح المجال لرؤية طاقم أسنانه الناصعة البياض، يستند على مكتبه ويتسمع والقلم لا يزال في يده:

«أنا لوحدي مفيش حاجة/ مجرد اسم متشخبط على ورقة».

وينصت الجميع لهذا الشاب السمين الذي يسير بأقدام مبططة على الأرض كأنه راقص باليه وزنه مئة كيلو.. يدور رأسه المستدير في كرات الخدود التي تدخل فيها أحجام صغيرة متنوعة من أنف مكعب إلى شفاه مستديرة فوقها شارب أنيق والذقن كرة صغيرة مغروسة في لحم رقبة مستديرة أيضا.

تتفرس فيه الوجوه في ظلمة الممر ما بين بضعة مكاتب بسيطة لثلاثة محررين يتناوبونها ويتركها كل واحد

للآخر. أولهم أحمد بهاء الدين وثانيهم ممدوح رضا وثالثهم سامي الليثي. ينتظر الجميع قفلة الطقطوقة الشعرية للشباب القادم مع عمدة الفن الشعبي: زكريا الحجاوي.

«وأصبح اسم متعلق على اللوحه

تشوفه زمايلي في الجاية وفي الروحه».

وضحك الجميع وأكثرهم أحمد بهاء الدين الذي ترك سيجارته على طرف شفته وهو يشبكها بأسنانه، وتتحول ضحكته إلى كركرة كما قلة الماء وقت الأصيل.

أبو العينين يتوقف بالماكيت في غرفة الرسامين وكلمات صلاح جاهين ترن كلمة كلمة:

«القمح مش زي الدهب

القمح زي الفلاحين»

يدخل هذا الشاب غرفة الرسامين يجد فلتس وحيدا في ركن الغرفة يرسم رسوما ثلاثة. يجلس خلفه بدون حركة بينما تنتقل ريشة فلتس من الرسم الأول إلى الثاني إلى الثالث. رغم أن الشاب السمين الذي لا يعرفه بعد ولم يقدم نفسه ولم يحيه على الإطلاق أثار الغيظ في أعماق فلتس وأصبح حضوره يزعجه، رغم أنه استمع إلى كلماته

بإعجاب. إلا أنه أثاره أكثر عندما دخلت يده السمينة المغطاة بشعر كثيف واتجهت إلى الرسوم الثلاثة، وقال:

الرسمة الأولى ممتازة – الثانية جيدة – الثالثة متوسطة وخرج من الغرفة دون أن ينتظر أي تعقيب.

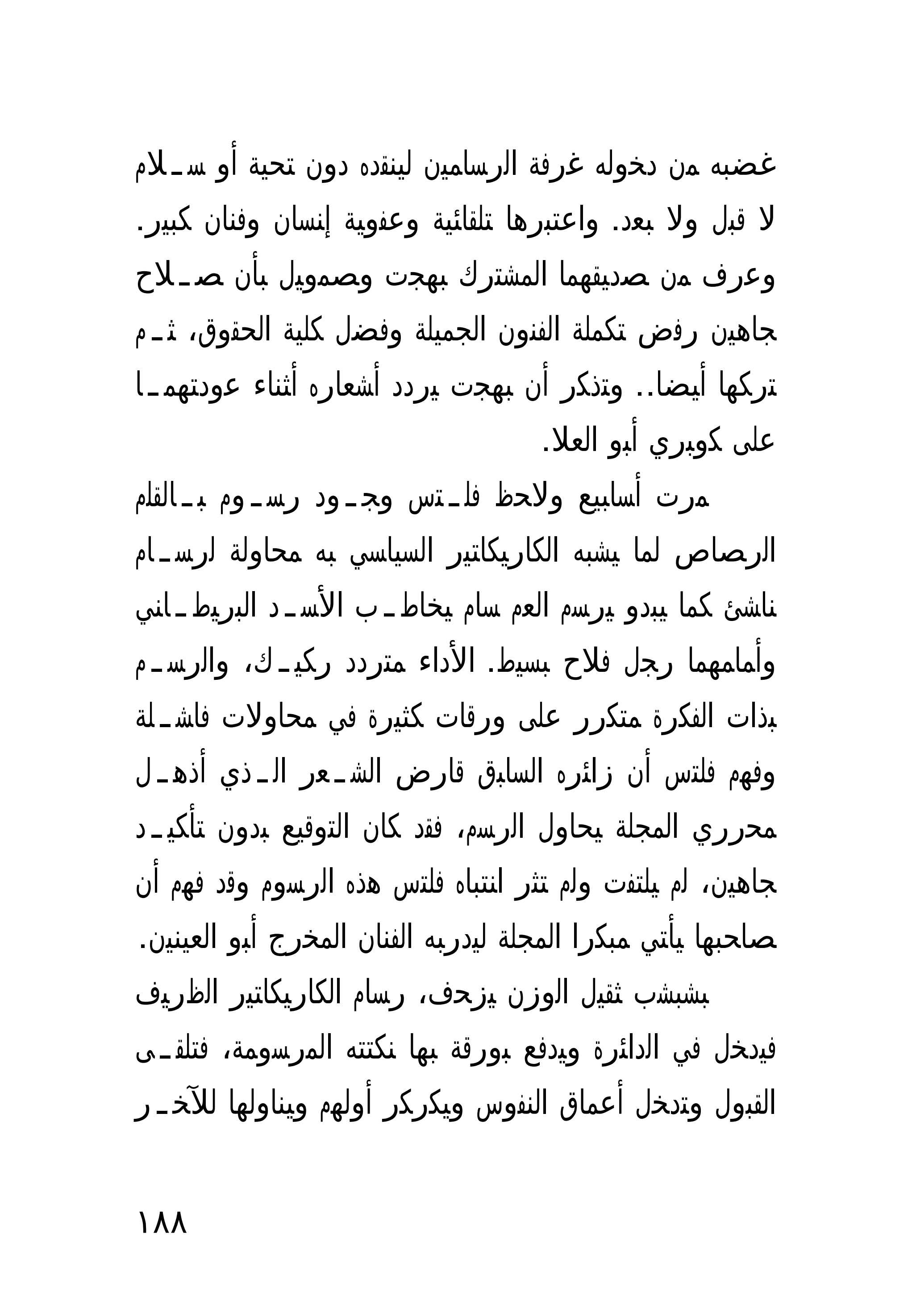
وفلتس يتملكه الغيظ قبل الغضب.

ومرت شهور، لم يره فيها، حتى طالع فـي صـحيفة مسائية جديدة اسمها القاهرة رسوما صغيرة طبق الأصل لما لمحه في لحظات لقائه الأول حيث يتحول الوجه إلـى كـرة أو مثلث أو معين أو مربع والجسم كـرة أيضـا، والقـدمان خطين فقط كأنهما قاعدة لتمثال ماريونيت.

لاحظ فلتس أن هذه الرسوم تحمل توقيع ص. ج كأنـه لا يريد أن يفصح عن اسمه كاملا إلا أن أداءها ركيك وكأن صاحبها لا يعرف استعمال سن التحبير.. إلى أن لاقاه فجـأة في الطريق. (وكان الطريق مشـتركا بـين روز اليوسـف وجريدة القاهرة) قال له الشاب الألمعي.

- أنا باقلد خطوطك.. بس مش عارف.

هنا خفق قلب فلتس له وشعر بأنه أمام شخص غيـر عادي بتلقائيته المحببة، وبدأ يفهم طريقة تلقيه للأمور فـزال



غضبه من دخوله غرفة الرسامين لينقده دون تحية أو سـلام لا قبل ولا بعد. واعتبرها تلقائية وعفوية إنسان وفنان كبير. وعرف من صديقهما المشترك بهجت وصمويل بأن صـلاح جاهين رفض تكملة الفنون الجميلة وفضل كلية الحقوق، ثـم تركها أيضا.. وتذكر أن بهجت يردد أشعاره أثناء عودتهمـا على كوبري أبو العلا.

مرت أسابيع ولاحظ فلـتس وجـود رسـوم بـالقلم الرصاص لما يشبه الكاريكاتير السياسي به محاولة لرسـام ناشئ كما يبدو يرسم العم سام يخاطـب الأسـد البريطـاني وأمامهما رجل فلاح بسيط. الأداء متردد ركيـك، والرسـم بذات الفكرة متكرر على ورقات كثيرة في محاولات فاشـلة وفهم فلتس أن زائره السابق قارض الشـعر الـذي أذهـل محرري المجلة يحاول الرسم، فقد كان التوقيع بدون تأكيـد جاهين، لم يلتفت ولم تثر انتباه فلتس هذه الرسوم وقد فهم أن صاحبها يأتي مبكرا المجلة ليدربه الفنان المخرج أبو العينين.

بشبشب ثقيل الوزن يزحف، رسام الكاريكاتير الظريف فيدخل في الدائرة ويدفع بورقة بها نكتته المرسومة، فتلقـى القبول وتدخل أعماق النفوس ويكركر أولهم ويناولها للآخـر

وهو لا ينطق بكلمة. في كل مرة ينهي صلاح جاهين رسمته يعرضها على كل من حوله في المجلة ليتأكد أنهـا سـوف تضحكهم.

***

ذات مساء تحت شجرة الجوافة فـي حديقـة العمـة أمسكت الخالة أم ثابت طاقم أسنانها وهي تفتح فمها متجهـة إلى ابن خالتها فلتس وهي تسأله: قلتلك ابني ثابت ما عندوش شغل.. خده المجلة يشتغل جامع حروف في المطبعـة، هـو اتعلم قبل كده في مطبعة صغيرة.. خده يـا بنـي المسـيح يباركك، ابني الصغير يتيم، أبوه سابهولي وهوه لسه بيرضع. ويتذكر فلتس أنها هي التي سرقت عمها جرجس البخيل.

كل صباح عندما يدخل الرسام الجديـد فلـتس الـدار مرورا بالمطبعة يواجهه ببشاشة كالمعتاد الحاج حسن مشوحا بيديه ومهللا وبجواره الصبي الصغير ثابت قريبه في ملابسه الرثة بحكم عمله مع الزيت والحبر: الـواد وعلمناهولـك.. بيعلب دلوقتي بالحروف وبيـرص تعليقـات النكـت اللـي بترسمها. ويرد فلتس: أنا بافتخر إن ليه قريب مـن عمـال

المطبعة... بس هو اللي بيتكسف لما يدخل مكتـب رئـيس التحرير وفي إيده البروفة ويلاقيني عنده.

أبو العينين يطلب من فلتس وبهجت ورجائي وحجازي إعادة الرسم. يظن الرسام أنه أخطـأ، ولكنـه اكتشـف أن المخرج الفني يعمل كمخرج الأفلام. يطلب إعادة الأداء فـي أغلب الأحيان، ورغم ضيق فلتس بإعادة الرسم إلا أنه يفهـم بعد سنوات طويلة من العمل الصحفي أنه يريد التجويد وأنه لا يكتفي بتعبير واحد للوجه أو الشخصية التـي يرسـمها، ولكنه يجمع الرسوم العديدة المكررة ليختار أفضلها للنشر.

وتمضي الأيام في «محمد سـعيد».. هـذه الجـدران المنحنية والأبواب التي لا تغلـق إلا بصـعوبة والكراسـي المصابة سيقانها بشلل الأطفال، وفلتس يكد ليل نار للبحـث عن رسم جيد بأسلوب له خصوصية. حتـى سـمع السـيدة صاحبة المجلة وهو جالس خلف باب رئيس التحرير. استدار وجهها أكثر من الدائرة وتكورت خصلات الفضة في شعرها أكثر من كرة التريكو الحريرية.. يتدلى من أذنيها قرطان في حجم البلية البللورية الناصعة بداخلها وجه مصغر لها، كأنها مرآة ترانزيستور تعكس ملامح السيدة الجميلة فـي السـتين

وهي تحرر المجلة بطريقة شفهية.. تقول: طول عمرها مجلتنا تستضيف الأقلام الجريئة واليسارية بشكل خاص ويكفيني متاعب الأحزاب في عصر الملك، ولكني أرجوك أن تكتب لي عشرة نصائح لجمال عبد الناصر سأتلوها عليك وتتلو السيدة النصائح العشرة يدونها الابن إحسان على مكتبه بينما تجلس على أريكة جلدية سوداء مريحة، وتمد ساقها اليسرى على مقعد آخر، تدخل بين الحين والآخر السكرتيرة المتألقة دائما في عطورها المتنوعة من هدايا المحلات التي تكتب عنها في صفحتها التي دربها عليها رئيس التحرير «تحياتي إلى زوجك العزيز».

كتب عنوان المقال الافتتاحي. إلى ابني جمال، عشرة نصائح بقلم السيدة فاطمة اليوسف، ثم انتقلت إلى أحاديث مختلفة عن المواضيع السياسية وقالت: الجديدة، ثم جاءت مناسبة الحديث عن الكاريكاتير فقالت:

- عبد السميع مدرسة صاروخان ورخا.. لكن فلتس الجديد له مدرسة وأسلوب لوحده.

يطل وجهها المستدير كالقمر المنير، نصفه غامق بسبب ضلفة الباب الخشبي الهزيل، تتجه ببصرها نحوه. انتفض فلتس عندما التقت عيناه بعيني صاحبة الدار، وعند النظرة الثانية خرجت أصابعها البضة الطيبة السمينة لتشير لزائرها أن يتبعها، فيسير خلفها مبتسما ، إنه الشاب المعروف الذي يغني في الراديو والسينما: فريد الأطرش.. يتذكره على التو وتذهله المفاجأة لكنها تسعده بشده. إنه الآن أمام الفنان الذي طالما لم يجد قروشا كافية لمشاهدة فيلمه «حبيب العمر» في دار من دور العرض الفخمة، فدخل سينما شبرا بالاس وجلس مع عمال الحي ليتفرجوا وليهللوا عندما ظهرت سامية جمال يموج جسدها الطري حول أنغامه وكلماته فتهتز كل أطرافه في مقعده الخشبي القاسي على مؤخرته.

تبتسم أخيرا فيتحول القمر الضخم إلى طبق من اللبن الحليب وفي وسطه حبتا كرز بلون العينين فتقول: عاوزاك ترسم الفنان الكبير.. عندنا صفحة كاملة لفيلمه الأخير الذي يعرض في صالات السينما الأسبوع المقبل.

يستعير فلتس مقعدا ليجلس عليه الضيف وتتركهمـا. المهمة انتهت، الضيف الكبير عند الرسام. العـريس ذهـب وحده إلى مصور الأفراح بدون عروسـه.. وكـأن فلـتس يتساءل لماذا لم تحضر معه العروسة التي يتزوجها في نهاية كل فيلم. يسرح بخياله الضاحك قليلا فيتخيلها ترقص أمامـه وهو يغني لها كما في الفيلم الذي رآه من مقاعـد الدرجـة الثالثة بخمسة قروش.

لم يأت غرفة الرسامين ذلك الصباح الباكر أحد مـن الزملاء لا بهجت ولا صلاح ولا أحمد ولا الكبيـر جمـال كامل الذي تذكر أنه يستطيع أن يقدم له بورتريها أفضل منه بخبرته ومهارته في فن الوجه يبدو أن صاحبة المجلة لم تجد من الرسامين سواه واعتبرت أن المسألة صدفة ليس إلا.

فلتس يبدأ باستعادة ثقته بنفسه مـع الموديـل الجديـد المشهور فهو ليس الفلاح هيكل وابنته فاطمة، ولكنه اعتبـر الموقف عاديا فأخرج من صفوف الأوراق البيضاء التي تعلو حافة الطاولة صفحة كبيرة بحجم الطاولة ذاتها وأخرج قلمـه كعادته، وراح يدور في الورقة من أعلاها إلى أسـفلها إلـى

جوانبها فتتشابك الخطوط وتفصح عن رؤيته، ونسي للحظـة أهمية الشخص الجالس أمامه الـذي كـان مطيعـا هادئـا لا يتحرك ويترك للرسام فرصته في الأداء.

ينسى فلتس عمله في المجلـة ويتـذكر أبحاثـه فـي الخطوط الفنية بغض النظر عـن إدراك التشـابه السـطحي السريع للملامح، ولا تجميل النجم الجالس أمامه، ولا ترضية صاحبة المجلة التي طلبت منه أن يؤدي عمله المعتاد. يطول الوقت والرسام المستجد فلتس يبحث عن خطوط جديدة يبـدأ بالعينين يجعلهما كما عيني الضفدعة، لهما حارسان ثقـيلان من الحواجب الغليظة السوداء، ثم رسـم الأنـف صـغيرا مغروسا وسط الوجه الذي اسـتدارت خطوطـه الخارجيـة فأصبحت عيناه كما أدوات المطبخ من الملعقـة أو المغرفـة وسط حلة هائلة مستطيلة. يعود يهندس كثافة الشعر الأسـود بعناية خاصة كأنه التسريحة المميزة. تقترب مـن الطبيعـة ويتصور في نهاية الأمر أنه قد سـجل الملامـح الرئيسـية لوجهه رغم المبالغة المهولة. مغفلاً أن فريد جميل وأنه الفتى الأول، وكيوبيد الذي تحبه النجمات وخاصة عنـدما تلمـس أطراف أصابعه أوتار العود.

تنتهي الورقة عند الحدود والأطراف ولم تسع ربطـة العنق ولا الكتفين، ولكنه يعود خطوة إلى الوراء دافعا مقعده ليصبح واقفا مبربشًا كما تعلم من أستاذه بيكار، لا بد أن يرى العمل من بعيد ليتحكم في درجات الأسود والأبيض وتناسـق الخطوط والظلال.

في لحظة إغلاق إحدى عينيه وفتحها يفاجـأ بتعبيـر الغضب يرتسم على وجه الموديل. وبأنه قـد دفـع مقعـده بسرعة وبإهمال، ولا يرى سوى ظهره مغادرا الغرفـة دون كلمة..

يسقط القلم من يده ويتولاه اليأس والإحبـاط وتصـبح الدنيا أمامه دوامة تدير رأسه.. ربما يضيع عمله في المجلة ولا يحصل على مرتبه الصغير.

يعود ليرتاح في مقعده وقد امتدت ساقاه في انفراجـة اليأس، وتسقط ذراعاه من خلف الكرسي كملاكم ناشئ انهزم في جولته الأولى والدم ينزف من أنفه، ولا يجد من يغسله له والضحية الورقة المرسومة ملقاة تزحزحت من على سـطح المكتب وسقطت بظلالها وخطوطها.

لا يرى السيدة صاحبة المجلة بعد ذلك، ولكن سكرتيرتها مديحة جاءت بعطورها الكثيرة وكأنها ترفه عنه وهي تزف له الخبر، لقد ألغى فريد الأطرش عقدا لإعلان الصفحة عن فيلمه، وأن المجلة خسرت مئة جنيه مرة واحدة. كل هذا بسببه.. وأن عليه أن يرسم خمسة شهور مجانا لتغطية الخسارة.

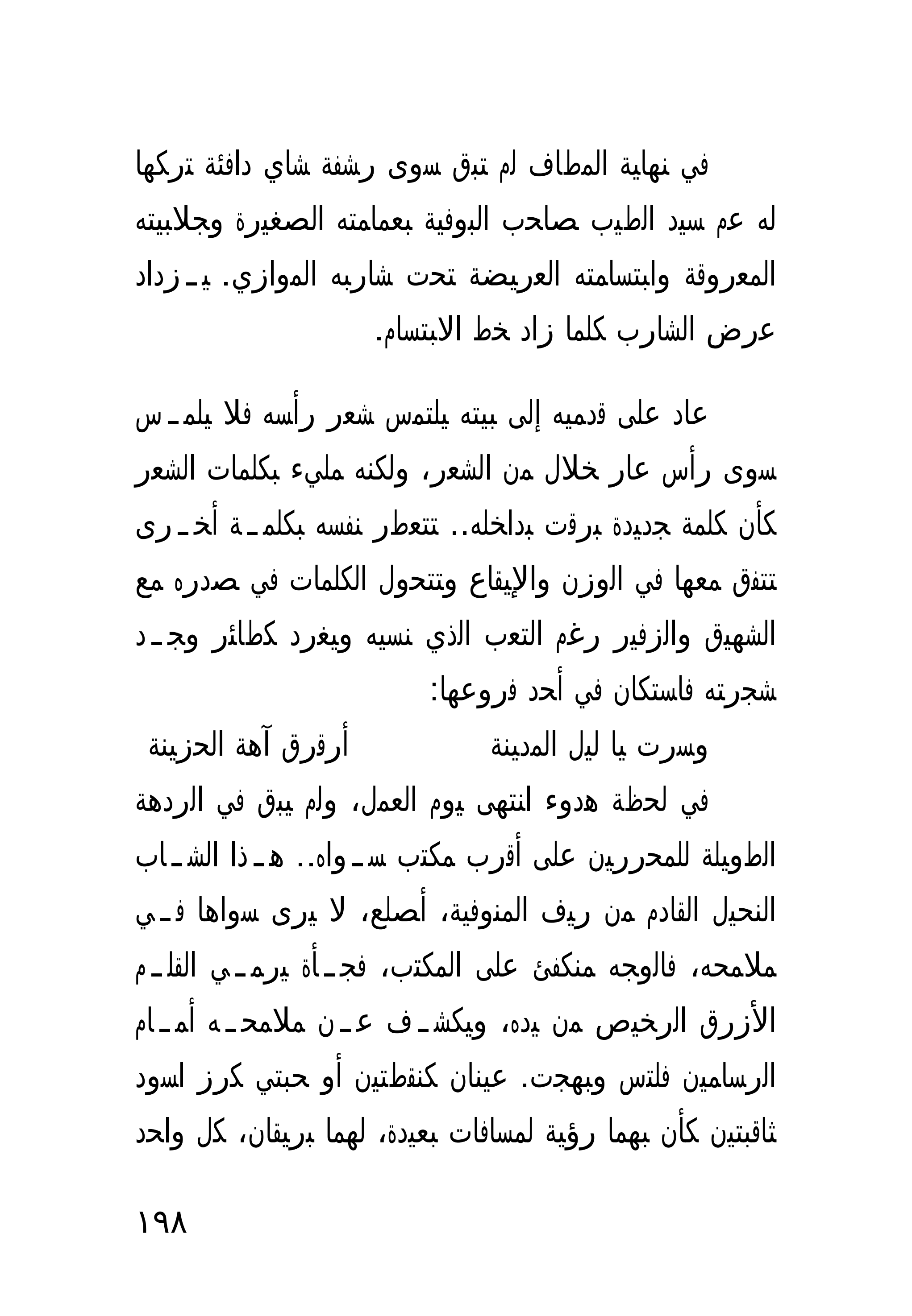
جسد ضئيل وعنق قصير يحمل رأسا كبيرا ليس به سوى عينين مفتوحتين في اندهاش. ما بين الحيرة والمعرفة بالمسئولية. ما بين صعوده الدرجات القديمة وعددها اثنتان وعشرون بالتحديد، وما بين ضياعه في ظلام الزقاق بين مكاتب المحررين الذين عادوا إلى منازلهم ولم يبق منهم سوى واحد.

يختفي في الظلام الدهليزي ويسير في اتجاهه الصحيح إلى عمق المنظور أمامه وتبقى عيناه الواسعتان تلمعان وسط ظلام الممر الضيق بين المكاتب كقط يعرف اتجاهه في حارة صغيرة قريبة من مسكنه.

الممر الطويل بين مكاتب المجلة، زقاق في حارة سكانها محررون.

على المكتب الأخير نور لمبة رخيص يجلس عليه شاب نحيل يفحص كلمات وسط أوراق صفراء مبتلة خارجة على التو من بروفات المكن الذي يئز ليل نهار بلا توقف تحته في الطابق الأرضي.

الصبي الصغير يحمل أوراقا جديدة إليه، يخطو خطواته الصغيرة بعد صعوده الدرج المهشم. هذا المساء يصعد مرتين ويهبط مرتين، مرة ليحمل هذه الأوراق المكتوبة بحروف المطبعة والمرة الثانية يتسلمها بعد التصحيح. رغم كل ذلك يبقى في حركته البطيئة متأملا كيف يعمل وهو في الخامسة بجسده الضئيل، وبشرة جلده، وقماش قميصه الصغير، وبنطاله بلون الزيت الأزرق، وحبر المطبعة.. وكيف تعهد إليه مهمة كهذه. أرسله الحاج حسن والأسطى محمد إبراهيم.. يكفيه أن يرى وجهيهما وهما يبتسمان ويتمتمان بكلمات الشكر والوفاء.. بارك ا فيك يا بني..



في نهاية المطاف لم تبق سوى رشفة شاي دافئة تركها له عم سيد الطيب صاحب البوفية بعمامته الصغيرة وجلابيته المعروقة وابتسامته العريضة تحت شاربه الموازي. يـزداد عرض الشارب كلما زاد خط الابتسام.

عاد على قدميه إلى بيته يلتمس شعر رأسه فلا يلمـس سوى رأس عار خلال من الشعر، ولكنه مليء بكلمات الشعر كأن كلمة جديدة برقت بداخله.. تتعطر نفسه بكلمـة أخـرى تتفق معها في الوزن والإيقاع وتتحول الكلمات في صدره مع الشهيق والزفير رغم التعب الذي نسيه ويغرد كطائر وجـد شجرته فاستكان في أحد فروعها:

وسرت يا ليل المدينة   أرقرق آهة الحزينة

في لحظة هدوء انتهى يوم العمل، ولم يبق في الردهة الطويلة للمحررين على أقرب مكتب سـواه.. هـذا الشـاب النحيل القادم من ريف المنوفية، أصلع، لا يرى سواها فـي ملامحه، فالوجه منكفئ على المكتب، فجـأة يرمـي القلـم الأزرق الرخيص من يده، ويكشـف عـن ملامحـه أمـام الرسامين فلتس وبهجت. عينان كنقطتين أو حبتي كرز اسود ثاقبتين كأن بهما رؤية لمسافات بعيدة، لهما بريقان، كل واحد

في اتجاه، والأنف مخروطي يقترب من المثلث الحاد، والفكان عريضان لا شارب ولا لحية، ولكن الفم خط بسيط أفقي معتدل بلا شفاه، والذقن مكعب في مركزها حفرة أو نغزة.

يتجه إلى الرسوم على طاولات جمال كامل وجاهين وحجازي، يتناول واحده تلو الأخرى وهو يضحك ويفرح ويهلل.. وكأن الشكل في الفن يحتاج لتعويض معنى الكلمات التي كان يتعامل معها منذ لحظات. يتذكر كلمات كان يغنيها بداخله ويرسل أصابعه في اتجاهات ريح لا نعرفها ويصبح كراقص باليه يقف على أطراف قدم واحدة وترتفع رقبته الحاملة لهذا الرأس العاري بلا شعيرات وبلا ملامح مباشرة، ولكن كل ما في الوجه سطح واحد كأنه رغيف خبز جاف عادت إليه حرارة الفرن، يضغط على صدغي الوجه تحت الأذنين وينفرج الخط المحدد للفم فيصبح فاغرا في نداء أو صرخة أو عاطفة حب ويقول وكأن القول لهما فقط:

«أصدقائي

نحن قد نغفو قليلاً

بينما الساعة في الميدان تمضي

ثم نصحو.. فإذا الركب يمر

وإذا نحن تغيرنا كثيرا

وتركنا عامنا السادس عشر..»

فلتس ينصت ونور الكلمات الشعرية يدخل قلبه. رنين موسيقي بدلا من العود المفقود.

***

شوارع وسط البلد حدائق وفترينات ورخام وزجـاج. كل شيء يلمع كما الربيع ذاته والرصيف أنيق وثمة لافتـات هنا وهناك وبريق من بعيد بالنيون، الاختراع الجديد، يرسـم الخطوط وينشر الدعوة ويجذب الجمهور، دار سـينما علـى اليمين، ودار سينما أخرى على الشـمال، وأسـماؤها كمـا الأحلام راديو وريفولي وروكسي وديانا وكورسال.

كل ناصية لها عطر وترتيب خاص. السيارات قليلـة تتوقف أحيانا أو تسير ببطء لا تتوقف إلا عند إشارة مـرور واحدة، وعسكري مرور واحد، كأنهم في حفلة نهايـة العـام

الدراسي وجمهور يتفرج ويصفق متكدسا في أزياء جميلـة، ترى سيقان الفاتنات وزوجات الربيع وتشم عطـور السـان لوران. تمرق سيارة واحدة عند ناصية سليمان، ممر بهاـر بالتحديد، ويتوقف طابور الفتيات الصغيرات فـي تنـوراتهم الملونة وفي وسطهن فلتس الذي تفاجئه سيارة ووجـه عـم إبراهيم سائق السيدة صاحبة المجلة وهي تضحك في الخلف تفتح زجاج النافذة ويطل وجهها الكبير المستدير الذي يحبـه وتناديه مازحة:

- انت مش رسام المجلة.. بتعمل إيه في الشارع روح المجلة حالا زمان إحسان وأبـو العينـين بيـدوروا عليك.

الكل يستمع إليه عندما يبدأ حديثه، صوته كما موجـه جاءت من بعيد وسط موجات أخرى من أعماق نهـر النيـل تنتهي الجملة تماما كارتطامها بطمي النيـل عنـد الشـاطئ فتتوقف الحنجرة عن التحرك وسط عضلات الرقبـة ويهـدأ وتلتفت العيون وتصغي الآذان إلى الموجة التالية من حديثـه ويطول الكلام ويزداد متعة وكأن نبتة جديدة مع الفجر تبزغ

في انتظار ضوء أول شعاع. هذا هو كامل الشـناوي بعـد خروجه من كازينو بديعة.

تتميز رسوم بهجت بالسخرية من الأصوات الإذاعيـة وآذان الحمار، وصوت حنفية مفتوحة تكركـر، وبكائيـات الأطـرش وتكـرار الجملـة عنـد أم كلثـوم، ووسوسـة عبد الوهاب، المنديل عند الأنـف، ومشـاجرات أم كلثـوم وعبد الحليم أيهما يغني أولا، ويحتار بين كل هـؤلاء فنـان كبير هو القصبجي، وملحن تاريخي هو السنباطي، وصـاعد هو بليغ حمدي، وفنان يزهو المـوجي. وتتـوزع الكلمـات ما بين الشناوي ومرسي جميل عزيز وصلاح جاهين ويظهر عبد الوهاب محمد ومحمد حمزة ويتـألق الأبنـودي وسـيد حجاب.

التف حول فلتس الأصدقاء وتلقفه أستاذ عملاق جـاء إلى المجلة ليصبح الأب الروحي لفنون مجلة صباح الخيـر الجديدة: الإخراج الذي أحـدث انقلابـا جديـدا فـي عـالم الصحافة، والأوراق الملونة والزوايا الكاريكاتورية الموزعة في رشاقة. أصبح الفنان حسن فؤاد صاحب نظرية جديدة في الإخراج الصحفي.

وكبرت الأسرة الصحفية في المجلة وأصبح أحمد بهاء الدين هو العقل المفكر لتيار جديد أطلقوا عليه «العقول الشابة والقلوب المتحررة» وهو تعليق مجموعة من الرسامين لتغيير الشعار الأصلي «القلوب الشابة والعقول المتحررة» .

ويوم ولادة المجلة سهر الجميع داخل سـيارة قديمـة يقودها إبراهيم خليل (ماسك الخزنة المتواضعة التي بـدأت تنتعش بعد ذلك) دارت عجلات السيارة طيلة ليلـة كاملـة، حاملة الصحفي لويس جـريس، والكاتـب محمـد عـودة، وأبو العينين، وفلتس إلى حلوان مرورا بـالجيزة والمعـادي ليسمع الجميع وهم نصف نيام صوت البائع ينادي لأول مرة: أقرأ «صباح الخير» يلوح البائع بمجموعة من النسخ الجديدة بغلاف الرسام زهدي: الغلاف عبارة عن زوج يعـود فـي الصباح سكران إلى بيته، وزوجته تستقبله بالمقشة. ويقـول لها بهذه الطريقة: صباح الخير.

بلا نوم في السيارة العائدة من حلوان تستقبلهم السـيدة صاحبة المجلتين في شقتها المطلة على حديقة الحيوان لتناول الإفطار مرتدية ثلاثة قمصان نوم مرسوم عليهم وردة ثلاثية صغيرة زرقاء متكررة تصب لكل واحد الشاي واللبن.

يصبح رساما لجميلة الجميلات ليلى فوزي يتأمل صورتها في سيماها الأرستقراطية المحببة، ونقاء طرف أنفها ودقته كما طائر أسطوري، تجلس أمامه فيرسمها بالمعدول والشقلوب حسب اتجاه الخطوط التي تطورت بين أصابعه، وتصبح هي الشخصية المميزة في باب جديد للشخصيات.

***

اصطحب فلتس صديقه الصحفي المختص بأخبار الرئاسة بعد أن سمع عنه أنه سريع في لقطاته للوجوه، ولم يجد في ذلك المساء مصورا فوتوغرافيا) إلى إحدى جلسات مجلس الشعب الحارة ليلتقط تعبيرات وجوه الأعضاء والوزراء والشخصيات الهامة.

ينفجر خط قلمه على الورقة بطريقة سيالة لم يعرفها من قبل إلا في مرات نادرة.. يرسم شقيق الرئيس الأكبر في محياه العام، عملاق أسمر كما الإفريقي الأسود، ويختلف أنفه في حدته عن أنف الرئيس الذي يحبه بأنه الطويل المنحرف نحو الذقن.

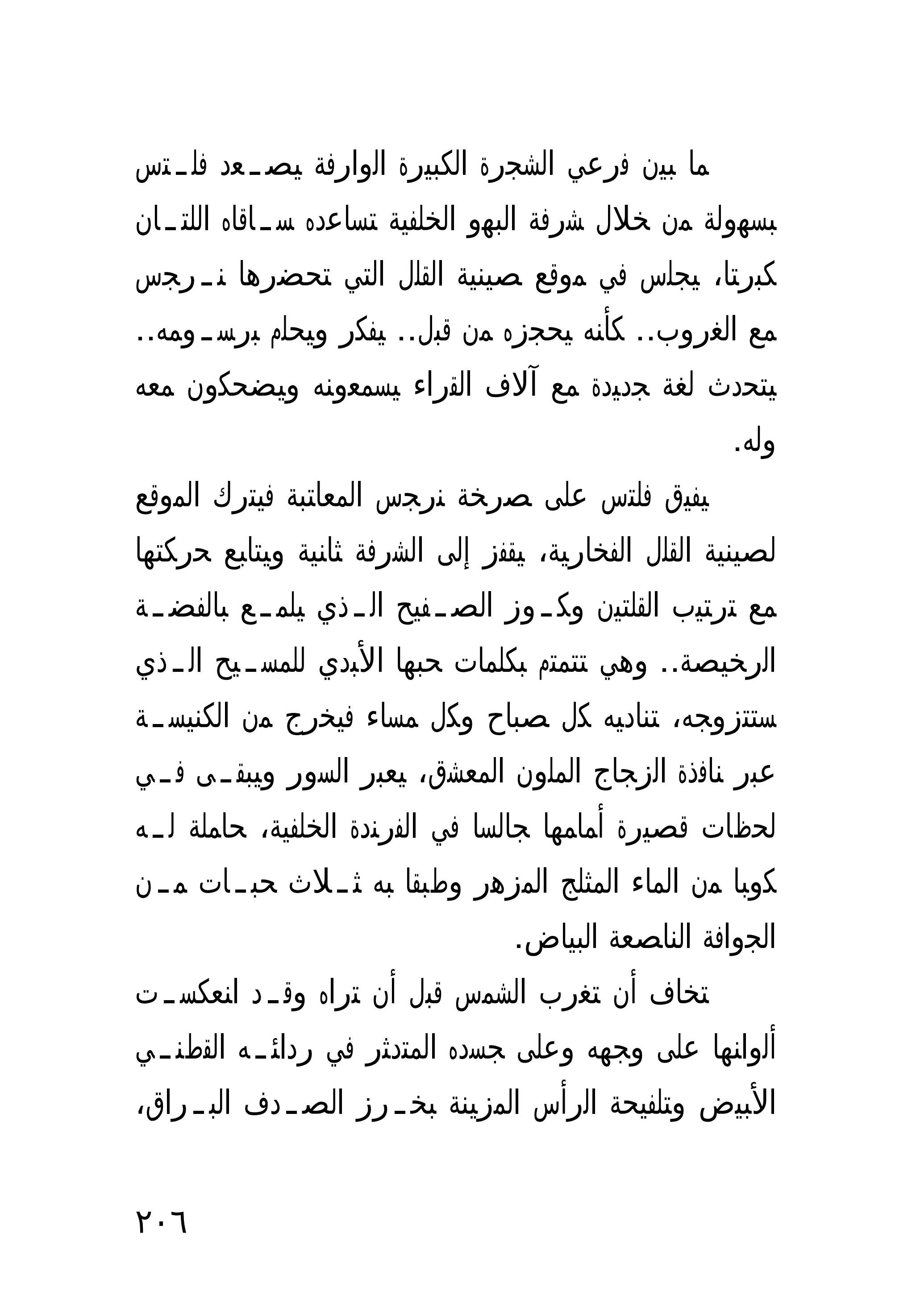
يتذكر حادثة البهو الفرعوني مع الليثي عبد الناصر.. إنه أمام شخصية ليس لها علاقة بالشقيق الـرئيس.. يلتـوي الخط ليرسم الأنف ويستدير عند العين البـارزة والحـاجبين الثقيلين والشارب الغليظ. يجلس بجواره محافظ الفيوم محيي أبو العز. يتأملهما في جلستهما سويا فـي المقاعـد الـوثيرة ويشتعل الإلهام فجأة فيشهر قلمه كسيف في مبارزة ويخطف الخط كأنه ينزعه من بين ضلوعهم ويقدم الرسمين في أقـل من الثانية وهو مبتسم كطفل برئ.

يكرمش أحدهما الرسم ويرميه فـي سـلة المهمـلات المجاورة، ويفعل نفس الشيء زميله الآخر البدين، وكأنهمـا يلعبان الفلبيرز في مقهى ويضيف الليثي عبد الناصر عبارته وهو يعتقد أنها مزحة لطيفة:

- دي حكمنا عليها بالإعدام.

ويردد نفس العبارة صديقه المحافظ، وتتكرر الحادثـة أكثر من ثلاث مرات بينما الصحفي يسأل ويكتب عن مجلس الشعب.





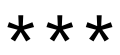
ما بين فرعي الشجرة الكبيرة الوارفة يصعد فلتس بسهولة من خلال شرفة البهو الخلفية تساعده ساقاه اللتان كبرتا، يجلس في موقع صينية القال التي تحضرها نرجس مع الغروب.. كأنه يحجزه من قبل.. يفكر ويحلم برسومه.. يتحدث لغة جديدة مع آلاف القراء يسمعونه ويضحكون معه وله.

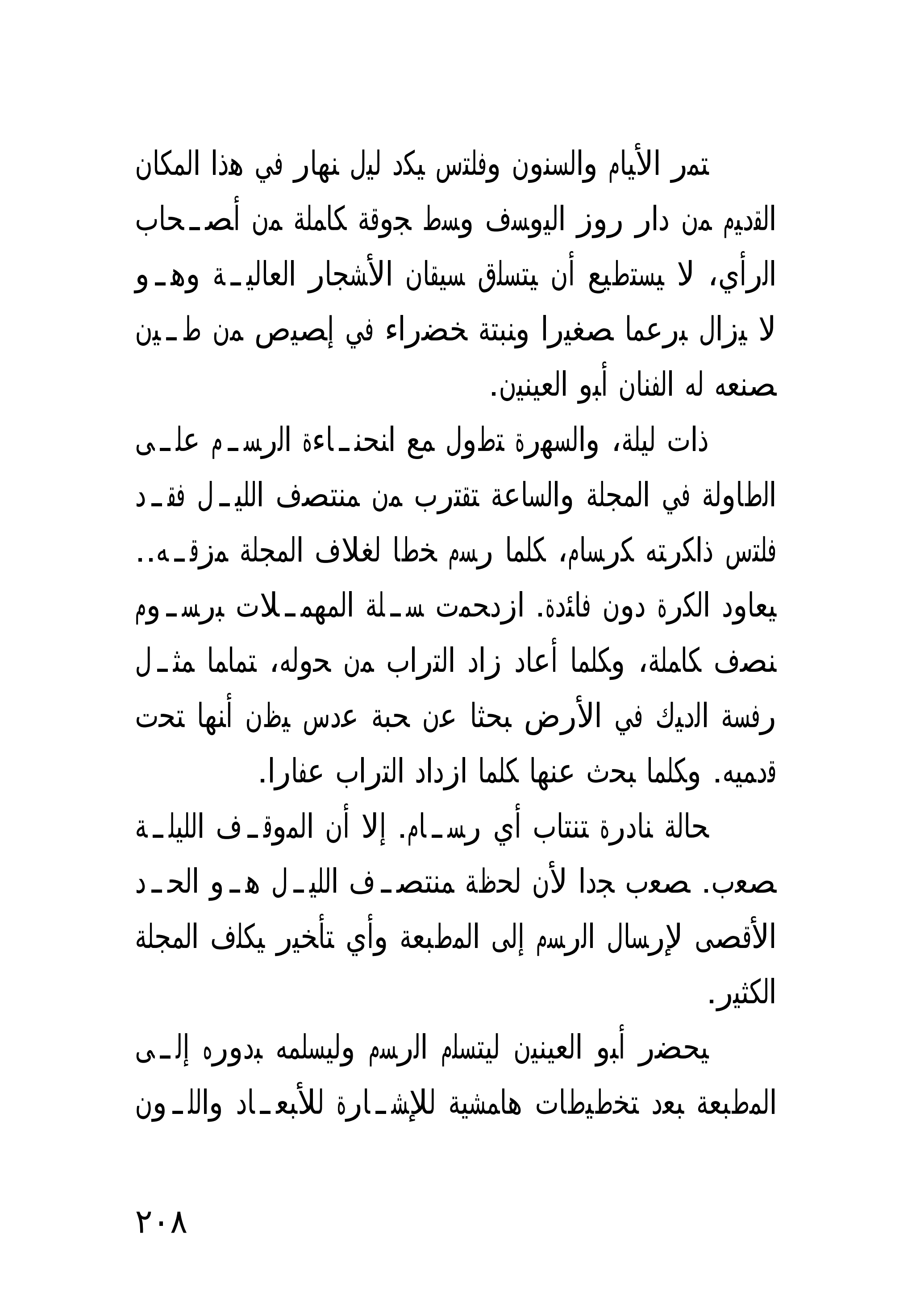
يفيق فلتس على صرخة نرجس المعاتبة فيترك الموقع لصينية القال الفخارية، يقفز إلى الشرفة ثانية ويتابع حركتها مع ترتيب القلتين وكوز الصفيح الذي يلمع بالفضة الرخيصة.. وهي تتمتم بكلمات حبها الأبدي للمسيح الذي ستتزوجه، تناديه كل صباح وكل مساء فيخرج من الكنيسة عبر نافذة الزجاج الملون المعشق، يعبر السور ويبقى في لحظات قصيرة أمامها جالسا في الفرندة الخلفية، حاملة له كوبا من الماء المثلج المزهر وطبقا به ثلاث حبات من الجوافة الناصعة البياض.

تخاف أن تغرب الشمس قبل أن تراه وقد انعكست ألوانها على وجهه وعلى جسده المتدثر في ردائه القطني الأبيض وتلفيحة الرأس المزينة بخرز الصدف البراق،

وحوله أعمدة من دخان معطرة بالمر واللبان. تناديه من جديد بعد التمتمة والهمس، قائلة أنا نرجس سوسنة حدائق القبة لقد تزينت من أجلك. عثرت على صورة مطبوعة للوحة الموناليزا في إحدى المجلات، فأطلقت خصلات شعري مثلها، وارتديت ردائي مثلها مفتوحا ديكولتيه عند الصدر، وتركت جزءا من الصدر العاري محاطا بإفريز من خيوط وكشكشة الرداء عند فتحة الثديين. ضاق الرداء عند البطن حتى أخمص القدمين.. تزينت من أجلك. ينعكس نورك مع وهج غروب الشمس على ردائي الذي يكسو جسدي الذي ينتفض لرؤياك جالسا في الفرندة وتحت قدميك بلاطات بيضاء لها إفريز أزرق. أحمل إليك سعفة من نخلة حديقتنا بيضاء كقلبك وردائك الذي يلف جسدك الأبيض الذي تعذب على الصليب.. كم أبكي لما حدث لك.

أتسلق خشبة الصليب العمودية لأصعد إليك أضمد جروحك وأتحسس بشرتك الناعمة وأخفف آلامك بقبلاتي وأوقف نزيف الدم بخصلات شعري وردائي. وأرتل لك إحدى تراتيل اليازجي.




تمر الأيام والسنون وفلتس يكد ليل نهار في هذا المكان القديم من دار روز اليوسف وسط جوقة كاملة من أصـحاب الرأي، لا يستطيع أن يتسلق سيقان الأشجار العاليـة وهـو لا يزال برعما صغيرا ونبتة خضراء في إصيص من طـين صنعه له الفنان أبو العينين.

ذات ليلة، والسهرة تطول مع انحنـاءة الرسـم علـى الطاولة في المجلة والساعة تقترب من منتصف الليـل فقـد فلتس ذاكرته كرسام، كلما رسم خطا لغلاف المجلة مزقـه.. يعاود الكرة دون فائدة. ازدحمت سـلة المهمـلات برسـوم نصف كاملة، وكلما أعاد زاد التراب من حوله، تماما مثـل رفسة الديك في الأرض بحثا عن حبة عدس يظن أنها تحت قدميه. وكلما بحث عنها كلما ازداد التراب عفارا.

حالة نادرة تنتاب أي رسـام. إلا أن الموقـف الليلـة صعب. صعب جدا لأن لحظة منتصـف الليـل هـو الحـد الأقصى لإرسال الرسم إلى المطبعة وأي تأخير يكلف المجلة الكثير.

يحضر أبو العينين ليتسلم الرسم وليسلمه بدوره إلـى المطبعة بعد تخطيطات هامشية للإشـارة للأبعـاد واللـون

والتعليق وموضع ترويسة المجلة، فيفاجأ بالحالة التي تنتـاب فلتس. لا يغضب ولا يعاقب، ولكنه يطلـب مـن المطبعـة الانتظار ساعتين إضافيتين ويصحب فلتس في سيارة أجـرة إلى كاباريه البيروكية وسط البلد. فيتحول من حال إلى حال مع كأس كونياك والراقصة اللولبية التي تؤدي نمرتها فـوق رأسه، يضحك الاثنان ويعودان في التاكسـي إلـى المجلـة يضيئان أنوار غرفة الرسم فيرسم فلتس كما لم يرسـم فـي حياته ويخرج العدد في اليوم التالي وعليه لوحته الضـاحكة وتبتسم الأيقونة في كفه.

يصبح مقهى ريش وسط البلد ملتقى أصـحاب الفكـر والحرية وتسحره نوادر عباس الأسواني وعبثيـات نجيـب سرور، ويستمع لأول مرة إلى شاعر قادم من الخرطوم اسمه محمد الفيتوري: «قلها لا تجبن.. لا تجبن! قلها فـي وجـه البشرية.. أنا زنجي.. وأبي زنجي. أنا أسود.. أسود لكنـي أمتلك الحرية».

يتفوق الرسام الجديد رجائي ونيس القـادم مـن بنـي سويف في رسمه للأشخاص على شخوص فلـتس السـاخرة وخاصة عندما أقيمت مباراة في الرسم تحت موضوع واحـد

قدم شخصية البورتريه للممثلة صوفيا لورين في تشكيل جديد لم يسبقه أحد. في تعويجة الشفاه تحت الأنف الطائر والتـواء الذقن التي اختفت تحت الأنف وفوق أعلى الرقبة. أما رسـم فلتس لصوفيا لورين فبدت خطوطه زخرفيـة كأنـه يسـقط كمراهق ومعجب بها فأعماه عشقه لجمالها عن السخرية بها.

يتذكر فلتس بداياته للرسم الصـحفي عنـدما أعطـاه أبو العينين لأول مرة بروفة من المطبعـة لبـاب حكايـات سياسية عن باشوات الأحزاب وبها فراغات لثلاث موتيفات. فلتس يخرج في الشارع ليرسم اسكتشات لاثنين يتلاقيان لهما كرشان ويتدرب على الحركة وتعبير الوجهين، عندما وصل المجلة في اليوم التالي أعطى سكرتير التحرير عشرة رسوم ليختار ثلاثة..

هذه المرة يقف بجواره فنان ورئيس تحرير له عيـون واعية للشكل.

استقبل مثقفو المجلة ومحرروها رسم فلتس الأول على غلاف المجلة الشهيرة صاحبة التاريخ النضالي الكبير منـذ ريشات رخا وصاروخان.

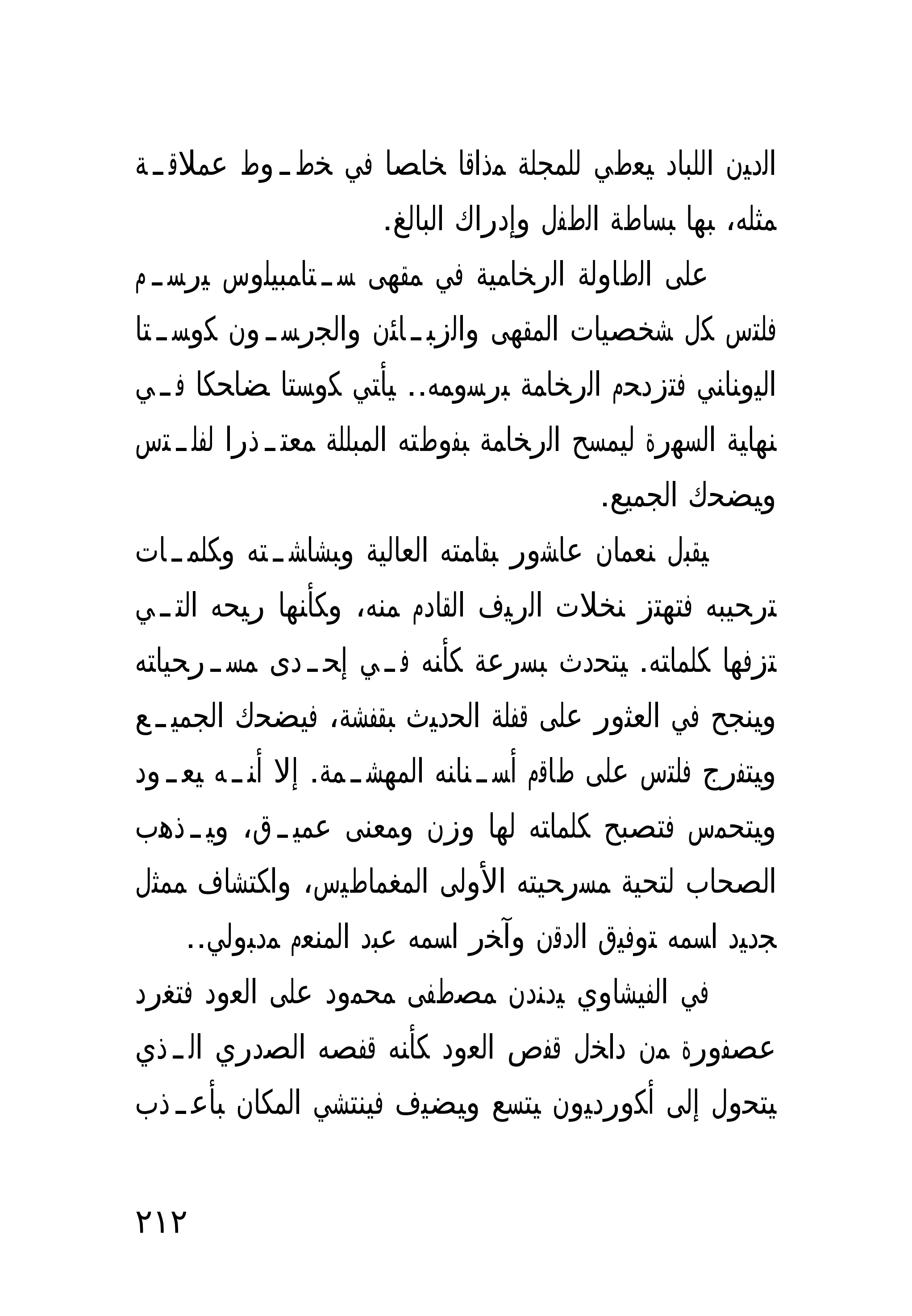
وكأنه يقرر أن يسير خلفه.

غرفة رئيس التحرير تصبح مرسما مؤقتًا لفلتس فبين الحين والحين يناديه رئيس التحرير ليرسم ضيفه: من رمسيس نجيب إلى حسن الإمام إلى صباح ولبنى عبد العزيز وزبيدة ثروت إضافة إلى عبد الحليم وكمال الطويل وهما الوحيدان اللذان يحبان رسومه.

يخطئ في كل مرة يخرج من مكتب رئيس التحرير فبدلا من الخروج من الباب الذي دخل منه مع السكرتيرة نرمين يفتح باب الحمام الجديدة فيعتذر ويغلقه بعد أن يرى المنظر فيرتبك أكثر ويتظاهر رئيس التحرير بأنه مستغرق في مقاله، ولكن مع الغيظ الشديد.


***

بدأ حجازي يرسم بأسلوبه الأنيق البسيط المتكامل عن الأسرة وتعدد النسل والبنت الشغالة وموظفي المكاتب الرتيبة. ليثي المصري يسخر من تقدم المنزل الحديث ولأول مرة تظهر في الرسم الثلاجة والغسالة الكهربائية.. وتصبح ريشته السريعة كفتيل القنبلة المنطلقة في عبث تحمل في أعماقها أفكارا رائدة لحب الشعب والدفاع عن فقره. محيي



الدين اللباد يعطي للمجلة مذاقا خاصا في خطـوط عملاقـة مثله، بها بساطة الطفل وإدراك البالغ.

على الطاولة الرخامية في مقهى سـتامبيلوس يرسـم فلتس كل شخصيات المقهى والزبـائن والجرسـون كوسـتا اليوناني فتزدحم الرخامة برسومه.. يأتي كوستا ضاحكا فـي نهاية السهرة ليمسح الرخامة بفوطته المبللة معتـذرا لفلـتس ويضحك الجميع.

يقبل نعمان عاشور بقامته العالية وبشاشـته وكلمـات ترحيبه فتهتز نخلات الريف القادم منه، وكأنها ريحه التـي تزفها كلماته. يتحدث بسرعة كأنه فـي إحـدى مسـرحياته وينجح في العثور على قفلة الحديث بقفشة، فيضحك الجميـع ويتفرج فلتس على طاقم أسـنانه المهشـمة. إلا أنـه يعـود ويتحمس فتصبح كلماته لها وزن ومعنى عميـق، ويـذهب الصحاب لتحية مسرحيته الأولى المغماطيس، واكتشاف ممثل جديد اسمه توفيق الدقن وآخر اسمه عبد المنعم مدبولي..

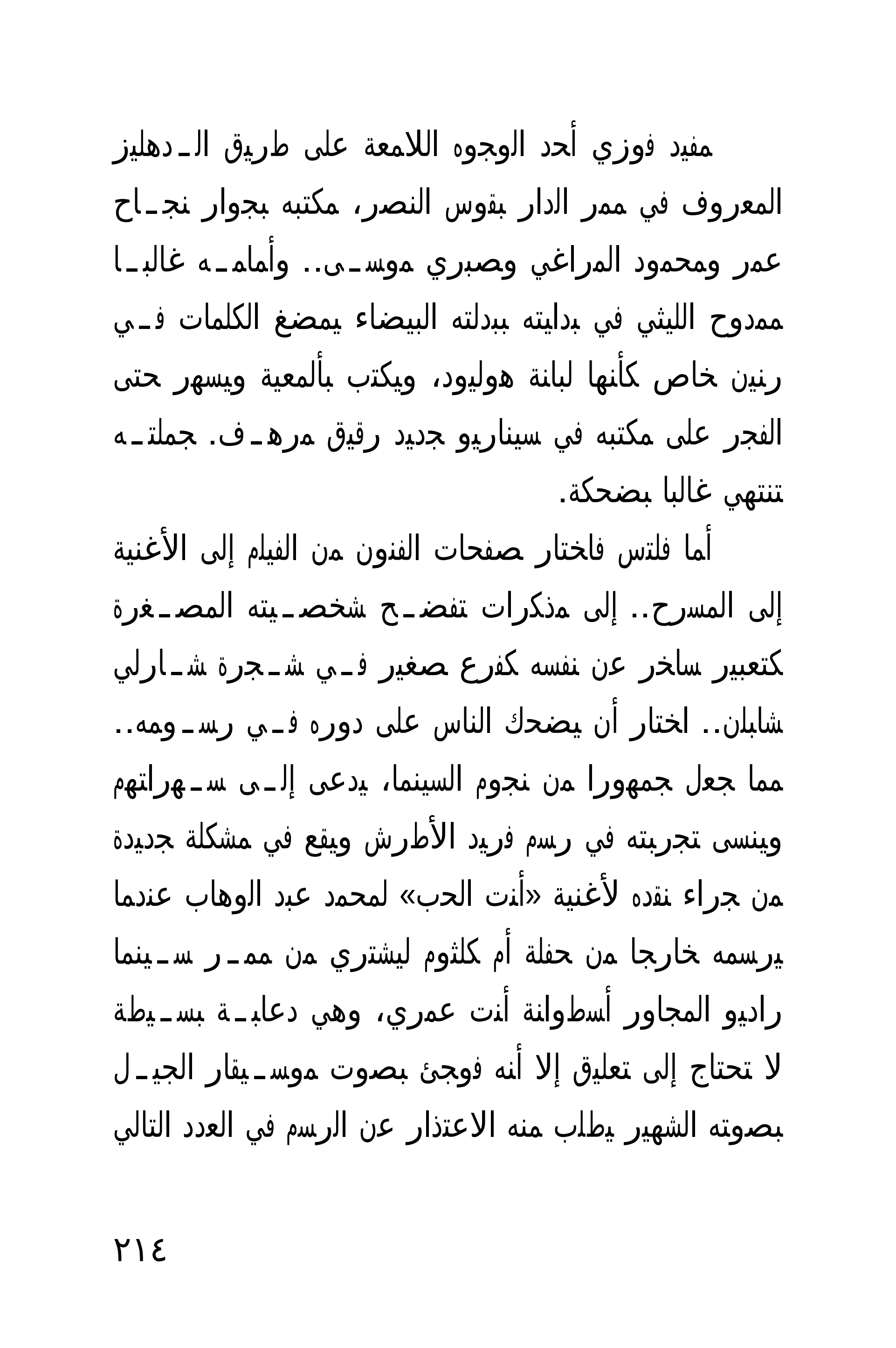
في الفيشاوي يدندن مصطفى محمود على العود فتغرد عصفورة من داخل قفص العود كأنه قفصه الصدري الـذي يتحول إلى أكورديون يتسع ويضيف فينتشي المكان بأعـذب

الألحان.. ويصفق جمال كامل.. ويردد عبد المنعم القصاص كلمات الكورال وتضحك مديحة ويرقص فلتس إلا أنه يلحظ بين القادمات في السهرة تحية كاريوكا فـيجلس فـي ركـن ويختفي عن الأنظار.

تصبح خديجة ذات الضفائر الذهبيـة ملهمـة فلـتس، بردائها الطويل تختال مع لكنتها الخاصة وسمرتها البرونزية وسط المكاتب يتسلق فلتس ضفائرها كأنها درج.

يرن جرس التليفون في مكتـب السـكرتيرة فتسـمع صوت إحسان: نرمين ما تنسيش زي كل يـوم.. تصـحي أبو العينين لأنه بيسهر، وتوصلي الجرايـد للرسـام فلـتس علشان يفهم السياسة، ويلاقي فكرة نكتة الغلاف.

مفيد فوزي مع فلتس في رحلات متتابعة كسياسة مجلة صباح الخير الجديدة لأدب الرحلات. لقد علمه السفر ولقـاء الشخصيات الهامة. كاتب ورسام في لبنان. كاتب ورسام في اليابان. كاتب ورسام في اليونان. كاتب ورسام فـي الـيمن. كاتب ورسام في المجر. الهند.. وروسيا.. رحلة في مركـب على نهر النيل.. رحلة إلى الواحات.. وهكذا.



مفيد فوزي أحد الوجوه اللامعة على طريق الدهليز المعروف في ممر الدار بقوس النصر، مكتبه بجوار نجاح عمر ومحمود المراغي وصبري موسى.. وأمامه غالبا ممدوح الليثي في بدايته ببدلته البيضاء يمضغ الكلمات في رنين خاص كأنها لبانة هوليود، ويكتب بألمعية ويسهر حتى الفجر على مكتبه في سيناريو جديد رقيق مرهف. جملته تنتهي غالبا بضحكة.

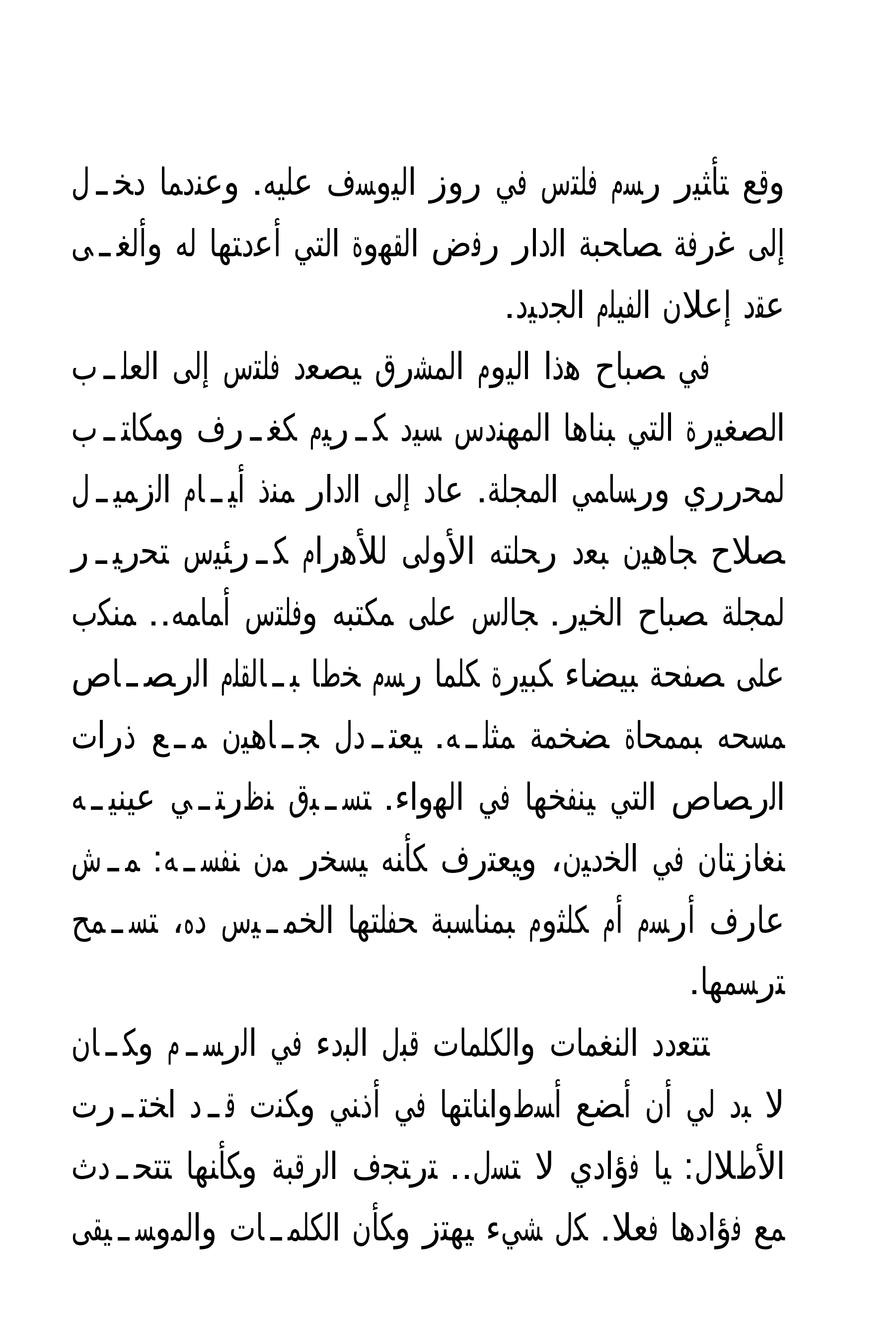
أما فلتس فاختار صفحات الفنون من الفيلم إلى الأغنية إلى المسرح.. إلى مذكرات تفضح شخصيته المصغرة كتعبير ساخر عن نفسه كفرع صغير في شجرة شارلي شابلن.. اختار أن يضحك الناس على دوره في رسومه.. مما جعل جمهورا من نجوم السينما، يدعى إلى سهراتهم وينسى تجربته في رسم فريد الأطرش ويقع في مشكلة جديدة من جراء نقده لأغنية «أنت الحب» لمحمد عبد الوهاب عندما يرسمه خارجا من حفلة أم كلثوم ليشتري من ممر سينما راديو المجاور أسطوانة أنت عمري، وهي دعابة بسيطة لا تحتاج إلى تعليق إلا أنه فوجئ بصوت موسيقار الجيل بصوته الشهير يطلب منه الاعتذار عن الرسم في العدد التالي

من مجلة صباح الخير.. وبات ليلة كاملة دون العثور على النعاس الذي تعود عليه وهو يغني، ليصبح مصدر قلقه هو صوت موسيقار الجيل عندما قال له: الست زعلانة من الرسم..

كيف ينام وسيدة الغناء الشرقي غاضبة منه.. إنها تستطيع أن تفصله من المجلة في آهة واحدة من التي توزعها وسط مئات الكوبليهات من أغانيها. لقد رسم نفسه نائما في حفلتها في إحدى نكاته، ورسمها للغلاف صدفة..

كيف ينام وموسيقار الجيل غاضب منه ويطلب منه الاعتذار في العدد التالي.. لا يزال صوته يرن في أذنيه معاتبا..

كيف يأتي إليه النعاس وفريد الأطرش النجم الذائع الصيت أمام لوحته يغضبه بهذا الشكل.. لقد قام من أمامه دون استئذان وبلا تحية وبلا شكر لمجرد أنه رأى دوائر الرسام على الورقة الكبيرة التي أراد أن يكرمه عليها بدلا من الرسم على ورقة صغيرة ليست على قد المقام. خرج دون أن يلتفت إليه، حمل غضبه في صدره وسار بطريقة كما في الأفلام وكأن عبد السلام النابلسي يجري خلفه ليخفف



وقع تأثير رسم فلتس في روز اليوسف عليه. وعندما دخـل إلى غرفة صاحبة الدار رفض القهوة التي أعدتها له وألغـى عقد إعلان الفيلم الجديد.

في صباح هذا اليوم المشرق يصعد فلتس إلى العلـب الصغيرة التي بناها المهندس سيد كـريم كغـرف ومكاتـب لمحرري ورسامي المجلة. عاد إلى الدار منذ أيـام الزميـل صلاح جاهين بعد رحلته الأولى للأهرام كـرئيس تحريـر لمجلة صباح الخير. جالس على مكتبه وفلتس أمامه.. منكب على صفحة بيضاء كبيرة كلما رسم خطا بـالقلم الرصـاص مسحه بممحاة ضخمة مثلـه. يعتـدل جـاهين مـع ذرات الرصاص التي ينفخها في الهواء. تسـبق نظرتـي عينيـه نغازتان في الخدين، ويعترف كأنه يسخر من نفسـه: مـش عارف أرسم أم كلثوم بمناسبة حفلتها الخمـيس ده، تسـمح ترسمها.

تتعدد النغمات والكلمات قبل البدء في الرسـم وكـان لا بد لي أن أضع أسطواناتها في أذني وكنت قـد اختـرت الأطلال: يا فؤادي لا تسل.. ترتجف الرقبة وكأنها تتحـدث مع فؤادها فعلا. كل شيء يهتز وكأن الكلمـات والموسـيقى

ريح يهز شجرة هائلة اسمها أم كلثـوم، وتتعـدد النغمـات والآهات بعد ذلك كأن النجوم تتناثر حولها في حب، وأسـمع في أذني رعد التصفيق في الصالة فتتمايل خطوط الجسد مع الروح وتصعد الأصابع مع المنديل كأن الريح يهـز الأوراق والأغصان والثمار والكرة الأرضية.

اخترت فتحة الفم أولا، ثم الملامح ثانيا فأصبحت الكرة والأنف مثلثًا والعيون رموش أزهار والنجفـة مـن اليمـين والشمال تسقط من الأذنين المنتعشين بالأشعار، وقد شـرب منديلها عرق أصابعها. يتذكر وهو يرسمها أغانيها الوطنيـة ونداءها الريفي خاف مزارع طماي الخضراء لجمال الزعيم وللجندي وللعاشق الحبيب الحر.

تحية وسلام مع الموسـيقار الكبيـر عبـد الوهـاب واشمئناط لرؤية فلتس في بيته وهو الذي هاتفه لإصلاح نكته أنت عمري.

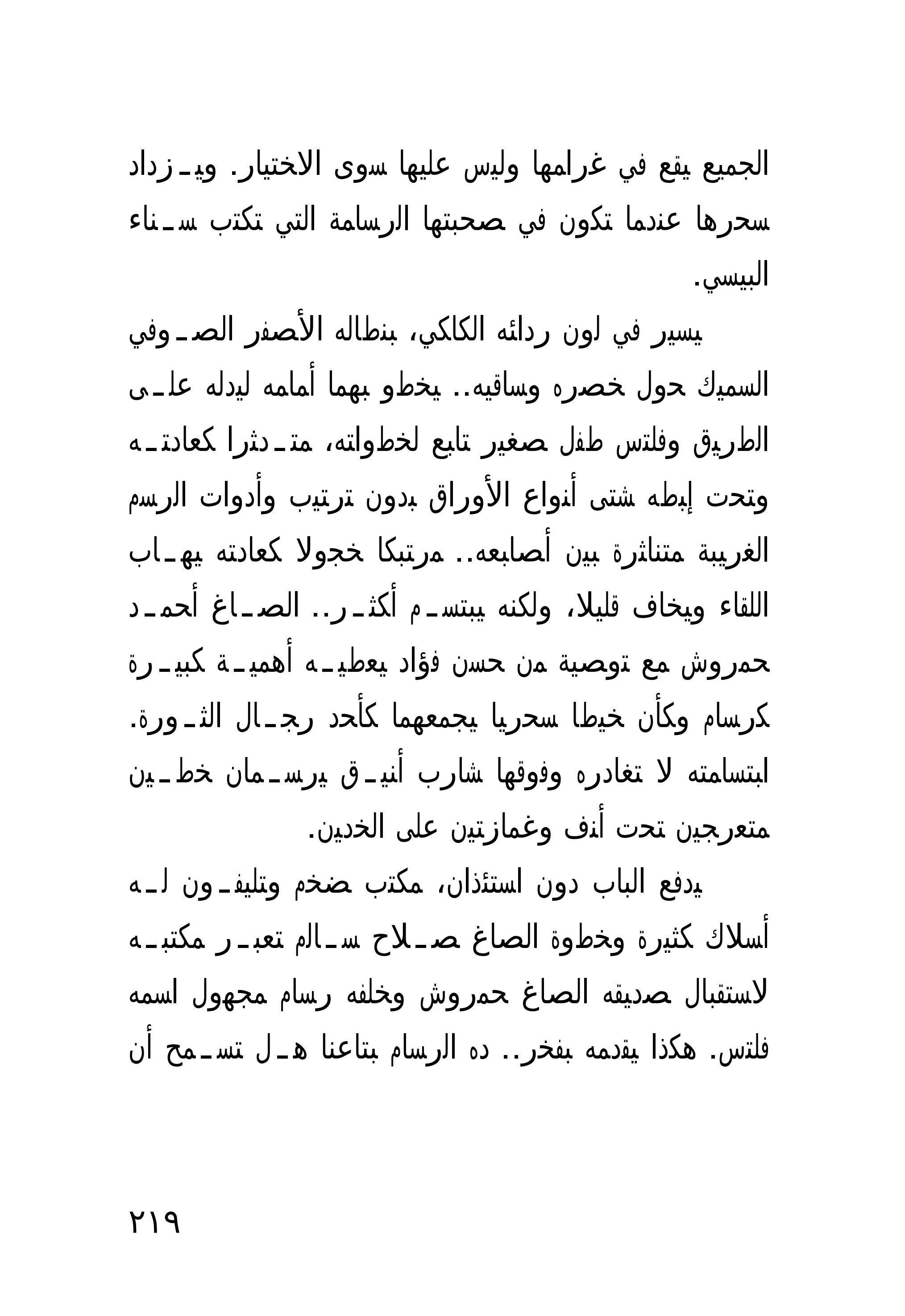
كيف يأتي هذه المرة ليرسمه. أعطاه أثنـاء الحـوار بروفيله الذي يعده دائما لكاميرا التليفزيـون ولأي مصـور أو رسام مثله، ولكن فلتس يحتار ويدور حوله يتحـرك فـي أرجاء الصالة الواسعة المشبكة بخرز المشربية الشرقي وهو

في الروب دي شامبر الشهير، يهز إحدى ركبتيه التي ركبت على الأخرى في دندنة خفية.

وفلتس يـدور ويكتشـف البروفيـل الثـاني.. لكـن عبد الوهاب يتلفت وينتبه ويغتاظ. رسم أكثـر مـن عشـرة رسوم.. لم تنشر أية واحدة منها في المجلة، والسبب بسـيط لأنه هاتف المجلة وطلب من رئيس التحرير عدم نشر رسوم فلتس، فاختار رئيس التحرير صورة فوتوغرافية وبورتريها قديما بريشة جمال كامل وموتيفة بريشـة فلـتس للبروفيـل الممنوع.

وازدهرت لحظات هامة في تجديد شباب مجلة «صباح الخير» بهامات جديدة من ألمع ما أخرجتهم كلية الآداب عين شمس والقاهرة.

هادئة حالمة تسير كأنها طيف، خطوات أقدامها كمـا عارضة أزياء على الممر الطويل. تهفو مع أطراف ردائهـا الهفهاف وتبتسم دائما ولا تتكلم إلا قليلا.. عندما تتوقف أمام شخص آخر تلمس أصابعها أصابع الصديق ويغرق الآخـر في سحر نظرات العينين الواسعتين في لـون مـاء مرسـي مطروح. زينب صادق إحدى علامات شباب هذه المجلـة..



الجميع يقع في غرامها وليس عليها سوى الاختيار. ويـزداد سحرها عندما تكون في صحبتها الرسامة التي تكتب سـناء البيسي.

يسير في لون ردائه الكاكي، بنطاله الأصفر الصـوفي السميك حول خصره وساقيه.. يخطو بهما أمامه ليدله علـى الطريق وفلتس طفل صغير تابع لخطواته، متـدثرا كعادتـه وتحت إبطه شتى أنواع الأوراق بدون ترتيب وأدوات الرسم الغريبة متناثرة بين أصابعه.. مرتبكا خجولا كعادته يهـاب اللقاء ويخاف قليلا، ولكنه يبتسـم أكثـر.. الصـاغ أحمـد حمروش مع توصية من حسن فؤاد يعطيـه أهميـة كبيـرة كرسام وكأن خيطا سحريا يجمعهما كأحد رجـال الثـورة. ابتسامته لا تغادره وفوقها شارب أنيـق يرسـمان خطـين متعرجين تحت أنف وغمازتين على الخدين.

يدفع الباب دون استئذان، مكتب ضخم وتليفـون لـه أسلاك كثيرة وخطوة الصاغ صـلاح سـالم تعبـر مكتبـه لاستقبال صديقه الصاغ حمروش وخلفه رسام مجهول اسمه فلتس. هكذا يقدمه بفخر.. ده الرسام بتاعنا هـل تسـمح أن

يرسمك في ثانية واحدة. ويشهر فلتس القلم في وجـه أحـد رجال الثورة كأنه يقطع عليه طريق صلاح سالم الشهير.

وتتتابع زيارات فلتس مع حمروش وأقدامهما أصـبحتا متشابهتين في الخطوة العسكرية هذه المرة.. أمامه سـترات كاكية مخيفة لضباط التعبئة الكبار وهم بداخلها.. في نهايـة كل رسم يعتذر حمروش للضابط الذي وصل في لقاء أخيـر إلى رتب أعلى وأعلى ولم يعد الخوف متمكنا من روح فلتس الضعيفة، ولكنه يتشجع وينسى التقديم الأول، ولا يهاب الاسم المكتوب بالنحاس على الباب وعلى المكتب بالداخل.. وكأنه يقول لنفسه المرة القادمه يصحبني صديقي الكبير حمـروش إلى البكباشي جمال عبد الناصر.

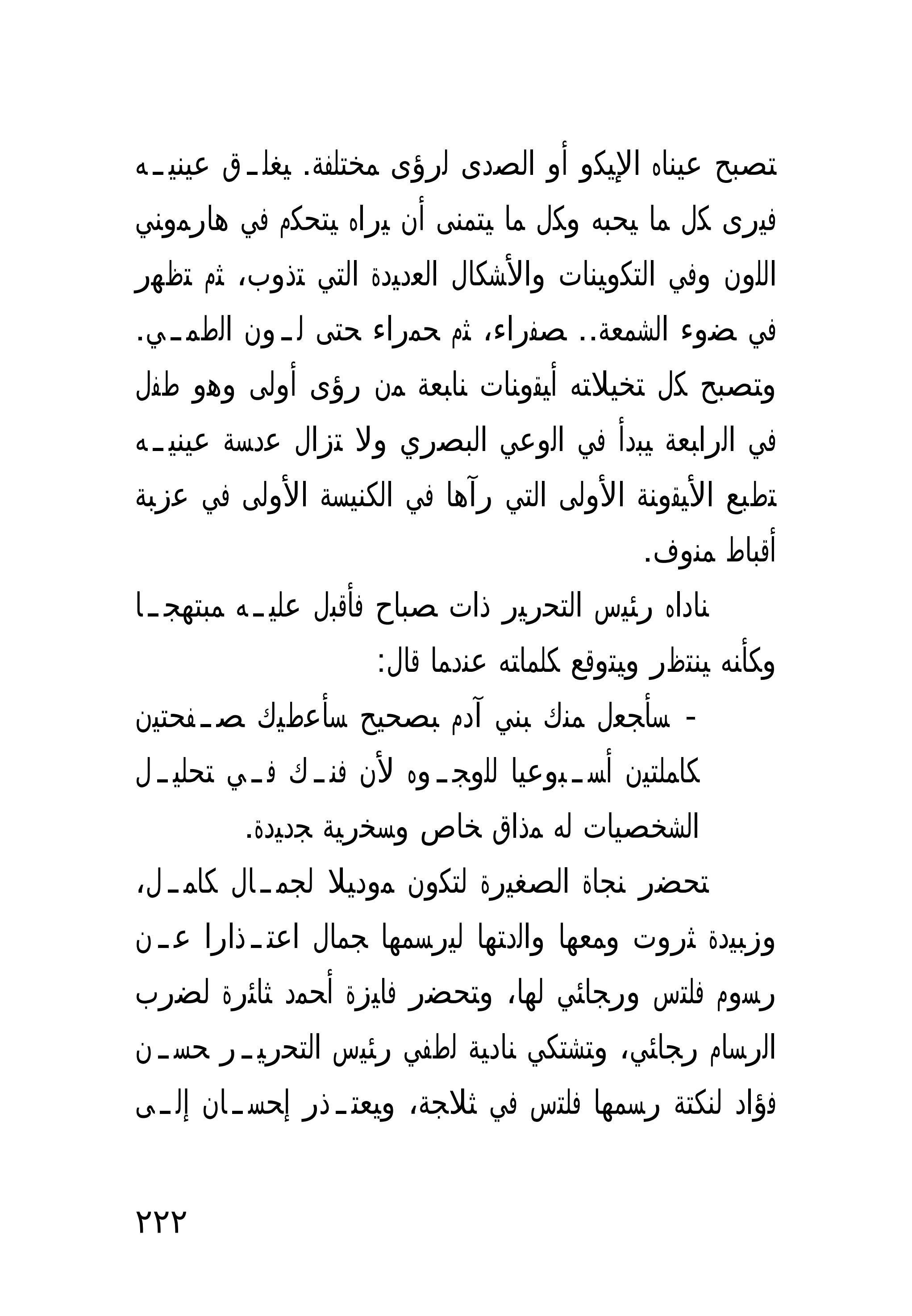
لكن اعتذار حمروش عن ريشة صديقه فلتس لا يقنـع ولا يضيف إلى الموقـف أيـة علامـة أو تقـدير للرسـم الكاريكاتوري الذي رسمه لضابط غليظ وملامحه تضـخمت على صفحة الورقة فقد انبعجت الأنف وتقلصـت فـرائص الضابط المرسوم وهي تتنكر لحادثة الرسم من هذا الشـاب الصغير الذي جاء في صحبة الحمـروش.. فـي رشـاقته وابتسامته الخاطفة قال حمروش مخاطبـا الضـابط الكبيـر

الضخم الرابض على مكتبه كأسـد قصـر النيـل، الأزرار النحاسية على الصدر والكرش وثمـة شـارات مزركشـة منسوجة من خيوط ملونة فوق أزرار الجيـوب: ده رسـام جديد حيزوقلنا مجلـة «الهـدف» بتاعتنـا بـدل الصـورة الفوتوغرافية. إنه صاحب أسلوب جديد في الرسم.

جلس أحمد حمروش أمام كمال الدين حسين وبجـواره فلتس يهرش في جيوبه يبحث عن قلمه الفلوماستر الشـهير من اليابان ويحدد بنظراته الثاقبة الصغيرة المختبئـة تحـت عظمة الجبهة ليلتقط عدة رسوم لوزير التربية والتعليم.

وفجأة يلمح كمال الدين حسين أن فلتس يرسم سـاعة مربعة تقريبا لها نقطتان هما عينان ولها عقربان هما شاربه، فيتغير تعبير وجهه موجها نظره إلى صديقه أحمد حمـروش فيعتذر ببشاشة وابتسامة وخفة ظل رقيقة لتقديم فلتس كأحـد الرسامين والنابهين رغم صغر سنة فيهدأ كمال الدين حسين ويعاود الحوار.

تنطفئ فيه الشمس فيشعل شمعه تحترق بداخله كالنار وتصبح جمرة، يملأ نفسه بالأشياء التي يراها وبالوجوه التي يصافحها كل صباح ومساء، ووسطهما عندما يغفل القيلولـة



تصبح عيناه الإيكو أو الصدى لرؤى مختلفة. يغلـق عينيـه فيرى كل ما يحبه وكل ما يتمنى أن يراه يتحكم في هارموني اللون وفي التكوينات والأشكال العديدة التي تذوب، ثم تظهر في ضوء الشمعة.. صفراء، ثم حمراء حتى لـون الطمـي. وتصبح كل تخيلاته أيقونات نابعة من رؤى أولى وهو طفل في الرابعة يبدأ في الوعي البصري ولا تزال عدسة عينيـه تطبع الأيقونة الأولى التي رآها في الكنيسة الأولى في عزبة أقباط منوف.

ناداه رئيس التحرير ذات صباح فأقبل عليـه مبتهجـا وكأنه ينتظر ويتوقع كلماته عندما قال:

- سأجعل منك بني آدم بصحيح سأعطيك صـفحتين كاملتين أسـبوعيا للوجـوه لأن فنـك فـي تحليـل الشخصيات له مذاق خاص وسخرية جديدة.

تحضر نجاة الصغيرة لتكون موديلا لجمـال كامـل، وزبيدة ثروت ومعها والدتها ليرسمها جمال اعتـذارا عـن رسوم فلتس ورجائي لها، وتحضر فايزة أحمد ثائرة لضرب الرسام رجائي، وتشتكي نادية لطفي رئيس التحريـر حسـن فؤاد لنكتة رسمها فلتس في ثلاجة، ويعتـذر إحسـان إلـى

رمسيس نجيب لنكتة رسمها ضده فلتس أيضا.. أما بهجت فقد تعب منه فريق كامل من مطربي الجيل محرم فؤاد وفريد الأطرش ومحمد فوزي، وأحمد فؤاد حسن لأنه يقود الفرقة بظهره.

يحتار فلتس ويشعر بازدياد الخناق حوله وأن زملاءه يبدعون رسوما أكثر تألقًا بسبب التورية التي لا يجيدها. أبرزهم صلاح الليثي الذي يعطي للنكتة ازدواجية حادة إحداها تفوت على رئيس التحرير والرقيب والثانية يشمها على ظهر يده القارئ الذكي.

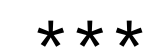
أفكار حجازي، انفجارات صغيرة وكبيرة للوعي السياسي الذي يمرق وسط التيارات ويلتف حوله معجبون من مثقفي جيله يفهمون قفشته المتخفية ما بين الخطوط والتعليق فتتفق رسومه مع أشعار أحمد فؤاد نجم والشيخ إمام، يسهرون حتى الصباح في بيته وسط أزقة حوش آدم ودخان الكلمات والجوزة، يصبح العقل حصانًا يصهل ويثور ويركض بفعل كلمات نجم وأنغام إمام.

وتأتي سلوى حسناء كلية الآداب قسم الصحافة لتتدرب مع هذه المجموعة مفتونة بغرفة الرسامين. يستعير لها مقعدا

هزازا من كثرة الاستعمال، ويحتفل بالقد الجميل الجالس على الكرسي ويستعير كلمة يكتبها في نوتة صلاح جاهين سقطت صدفة في درج مكتبه وهو يستعد لدراسة أغنية عن المولـد يسميها الليلة الكبيرة.. يستعير كلمة «يـا ورد قاعـد علـى الكراسي» فتضحك سلوى وجمال وبهجت ورجـائي.. أمـا أحمد حجازي فهو يراقب كل شيء وتخـرج منـه نصـف ضحكة خاطفة، ثم يعود إلى ورقة ليرسم نكاته الجديدة التـي تضيف كل يوم إعجابا من كل زميل في الغرفة.

تلتفت سلوى التي تتحدث بحرف الغاء بدلا من الـراء إلى صديقها الأول الذي اختارته فلتس فتراه غير مبال وعيناه في ورقة الرسم.. ساعات طويلة لا يلتفـت إليهـا فتحمـل مقعدها الخيزران إلى الجانب الآخر لتختار هذه المرة الرسام حجازي القادم من ريف طنطا ويتابع فلتس عناق الساقين في جلستها بجواره ويرسمها، ثم يرسمهما. وتتكـرر اللقـاءات الصامتة بينها وبين حجازي والمتفرج فلتس بينهما.. تنتهـي العلاقة بالزواج.. كما تصبح الحسناء خديجة خريجة الآداب صحافة هي الجالسة بضفيرتها الطويلة بجوار فلـتس حتـى تلتقي بالصحفي كامل زهيري فلا يفترقان.

وتأتي حسناء أخرى قادمة من جامعات أمريكا يقدمها له رئيس التحرير أحمد بهاء الدين. يتأملها فلتس في الجوب الكاروهات ذي الثنيات فوق الركبة ويسمع اسمها لأول مـرة صافيناز كاظم فيرسمها ويتابعهما جاهين بنغازتيه ضاحكا.

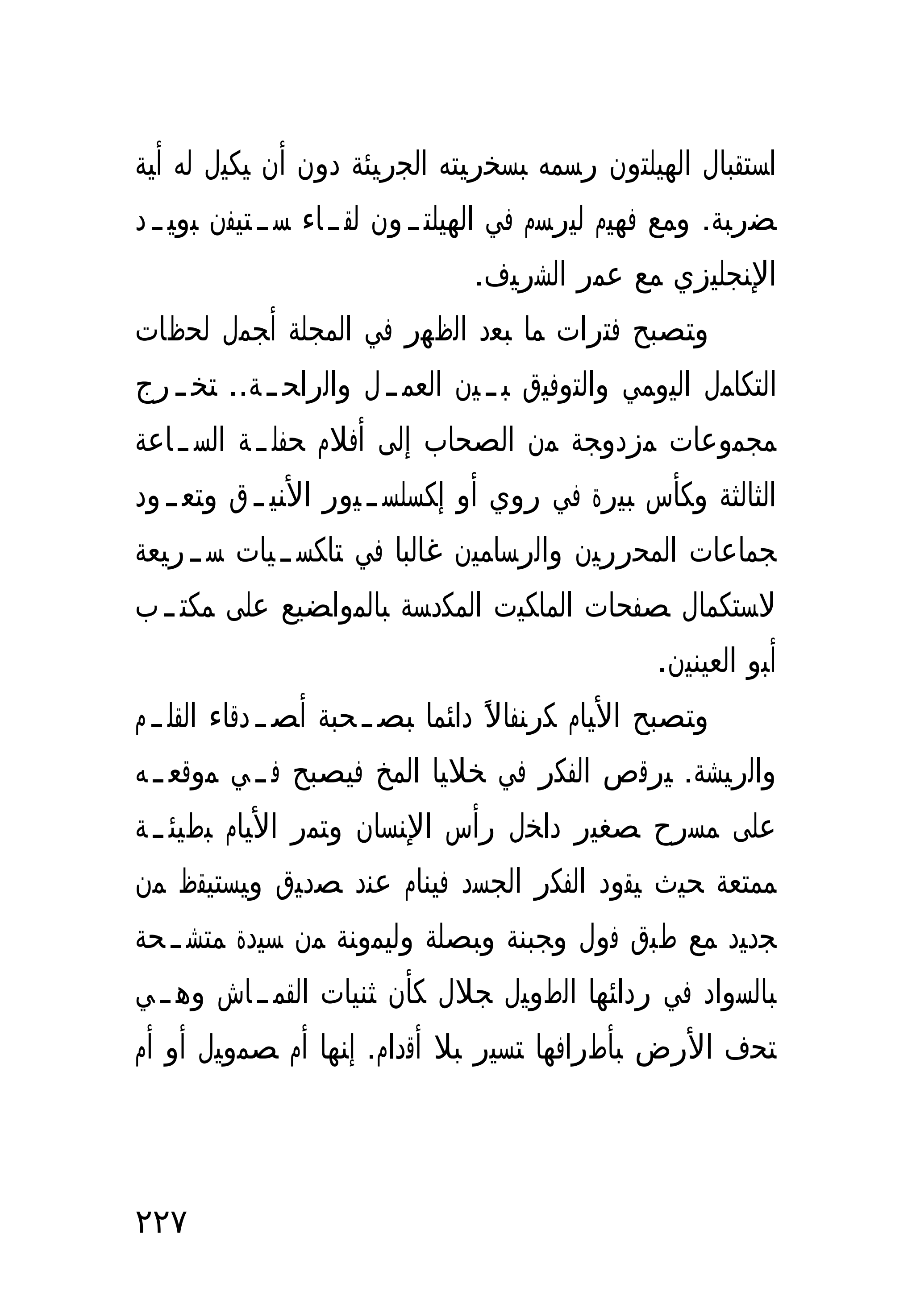


يحتفل الرسام فلتس بصداقته الجديدة مع محـرر بـدأ يوفق في مجموعة لقاءات صحفية مشتركة قدم فكرتها حسن فؤاد، هو رءوف توفيق، أولهما زيارة للنجم إسماعيل يس في سنوات كهولته، وزيارة لقسم بوليس لرسم مجـرمين خلـف القضبان في إمبابة، ومتابعة ماتش ملاكمـة علـى مسـتوى البطولة في أحد النوادي الرياضية، فتـنجح الريبورتاجـات المرسومة ويليها لقاء جيمس بوند في مهرجان الإسـكندرية السينمائي، روجر مور يرسمه فلتس مغرورا وتافها، ويتألق الرسام إيهاب في موضوعات أخرى مع محـررين آخـرين وتتحول أروقة وغرف الدار إلى ناد وملهـى وخليـة نحـل للعمل ليل نهار، لا فارق بين اليقظة والنوم وبـين الكتابـة والرسم وبين رئيس التحرير والفراش حسين.

يذهب فريق الترفيه في فترات ما بعد الظهر إلى مقهى علي بابا للمنافسة الحرة في لعبة الطاولة وتشتد المنافسة بين فتحي غانم وجمال كامل بعد خسارة بهاء الدين وأبو العينين ويصمد في المباراة قبل النهائية للخصم الأكبر راجي عنايت الذي يفوز على جمال كامل بالكأس الذهبية والفضية وتعلـق الكئوس في غرفة الرسم في حفل صغير يحضـره رئـيس التحرير.

يصيح في وجهه كعادته بحب شـديد صـديقه محمـد تبارك ليقول له في حفلة افتتاح هيلتون النيل.. جميع نجـوم هوليود غدا هنا في القاهرة. يتحول إلى رسام سريع يجـري خلفهم بالورقة والقلم ليخطف ملامـح جـين راسـل وفـان جونسون ومارتاهير وكيم نوفاك أما اللحظـة الكبـرى فـي حياته عندما جلست على أريكة وثيرة سيدة الشاشة الأولى.. متزينة في كل طرف من وجهها وأصابعها وجسـمها، إنهـا جلوريا سوانسون في الثمانين من العمر.

يصحبه أحمد الجندي المخرج إلى صحراء الهرم أثناء لقطات تصوير فيلم وسترن بين روبرت تايلور وانيتا اكبرج. ومرة أخرى عندما يجلس أمامه محمد علي كلاي في قاعـة



استقبال الهيلتون رسمه بسخريته الجريئة دون أن يكيل له أية ضربة. ومع فهيم ليرسم في الهيلتـون لقـاء سـتيفن بويـد الإنجليزي مع عمر الشريف.

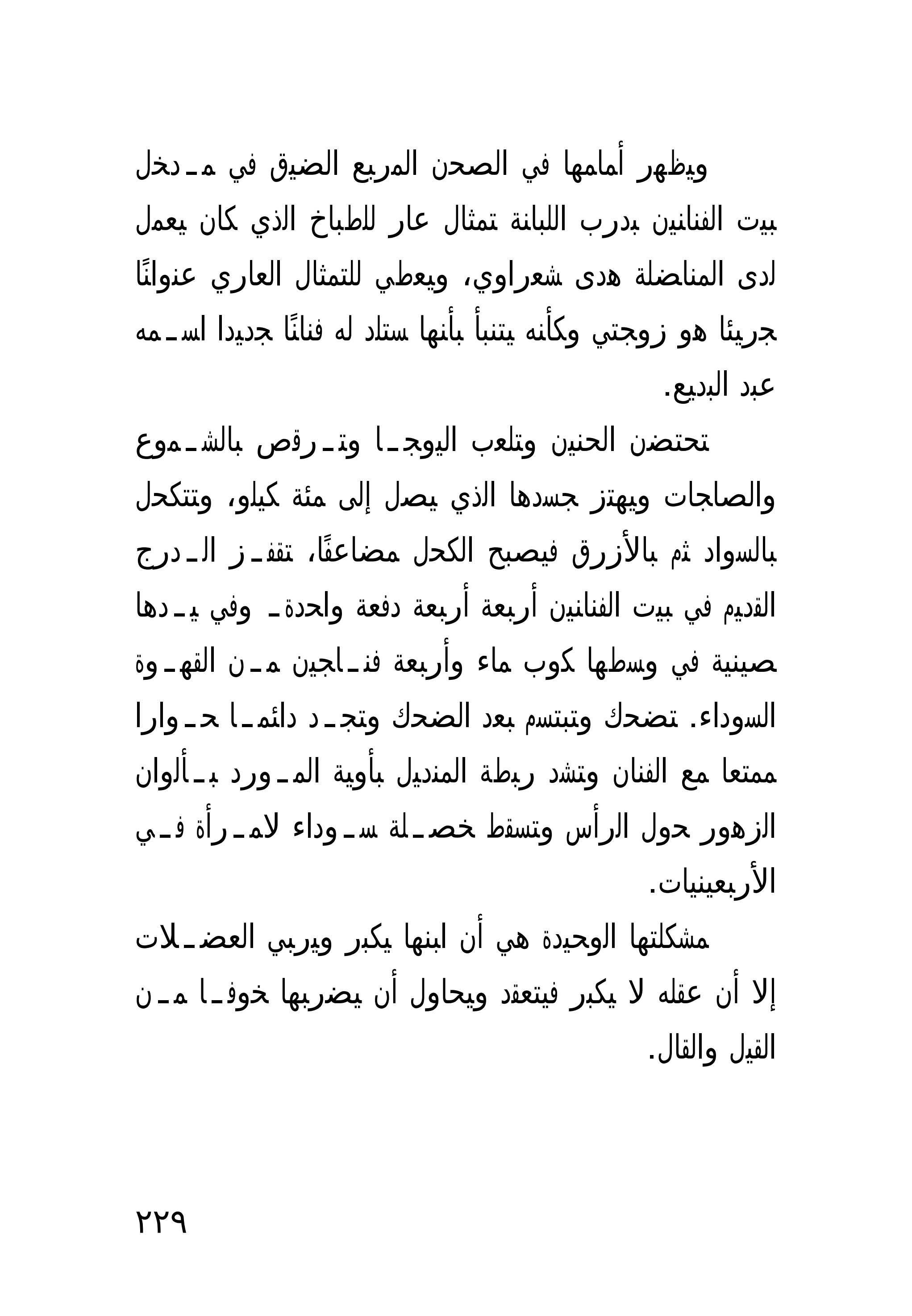
وتصبح فترات ما بعد الظهر في المجلة أجمل لحظات التكامل اليومي والتوفيق بـين العمـل والراحـة.. تخـرج مجموعات مزدوجة من الصحاب إلى أفلام حفلـة السـاعة الثالثة وكأس بيرة في روي أو إكسلسـيور الأنيـق وتعـود جماعات المحررين والرسامين غالبا في تاكسـيات سـريعة لاستكمال صفحات الماكيت المكدسة بالمواضيع على مكتـب أبو العينين.

وتصبح الأيام كرنفالاً دائما بصـحبة أصـدقاء القلـم والريشة. يرقص الفكر في خلايا المخ فيصبح فـي موقعـه على مسرح صغير داخل رأس الإنسان وتمر الأيام بطيئـة ممتعة حيث يقود الفكر الجسد فينام عند صديق ويستيقظ من جديد مع طبق فول وجبنة وبصلة وليمونة من سيدة متشـحة بالسواد في ردائها الطويل جلال كأن ثنيات القمـاش وهـي تحف الأرض بأطرافها تسير بلا أقدام. إنها أم صمويل أو أم

بهجت. والجميع ينتظر حضور العمدة الجليل والد ممدوح القادم من الريف، مرة كل عام يدعوهم عند كبابجي الحسين.

***

تجلس القرفصاء ساعات طويلة حول جسمها رداء تنتهي أطرافة بالكرانيش ويتدلى من أذنيها قرطان يبدوان كأنهما عدة أقراط. تسبح في خيالات الفن وحب الحياة، ويزحف حولها طفلها الرضيع تحمله على كتفها، ثم تعطيه لبنها، وتدخل ركن المطبع الصغير وسط مثلثات المشربيات وعناقيد الخشب البني الغامق وقد تعانقت رأس القلة مع غطائها النحاسي اللامع فيزهو لونه الأصفر وتنعكس عليه حليات المشربية كأنه مرآة حلزونية تشرب من القلة. وتعود ومعها إبريق الشاي يسرسق وبه عبير النعناع وتصبه كما العرقسوس من منقار الإبريق الذي يبتعد ويقترب من الفنجان، له وسط صغير يتسع عند الفخذ ويتجلى فيه بخط صغير مستدير يلون الذهب الرخيص. ترتشف وتغني، مع كل رشفة تمصمص وتستحلب قطرات الشاي الساخن داخل الجسد المستدير الضخم الجالس على طقطوقة.. وتدخل إليها ابنتها هنية تشرب معها بعد أن تتوقف عن طرقعة القبقاب.



ويظهر أمامها في الصحن المربع الضيق في مـدخل بيت الفنانين بدرب اللبانة تمثال عار للطباخ الذي كان يعمل لدى المناضلة هدى شعراوي، ويعطي للتمثال العاري عنوانًا جريئا هو زوجتي وكأنه يتنبأ بأنها ستلد له فنانًا جديدا اسـمه عبد البديع.

تحتضن الحنين وتلعب اليوجـا وتـرقص بالشـموع والصاجات ويهتز جسدها الذي يصل إلى مئة كيلو، وتتكحل بالسواد ثم بالأزرق فيصبح الكحل مضاعفًا، تقفـز الـدرج القديم في بيت الفنانين أربعة أربعة دفعة واحدةـ وفي يـدها صينية في وسطها كوب ماء وأربعة فنـاجين مـن القهـوة السوداء. تضحك وتبتسم بعد الضحك وتجـد دائمـا حـوارا ممتعا مع الفنان وتشد ربطة المنديل بأوية المـورد بـألوان الزهور حول الرأس وتسقط خصـلة سـوداء لامـرأة فـي الأربعينيات.

مشكلتها الوحيدة هي أن ابنها يكبر ويربي العضـلات إلا أن عقله لا يكبر فيتعقد ويحاول أن يضربها خوفـا مـن القيل والقال.

الحبر مداد ينسكب علـى الأوراق وسـط الممـرات المنكوبة والمكبوتة والمشحونة بالمشاعر، وبرايات وشعلات الثوار، ونداءات باعة الورق تملأ المكان، وصهيل حصـان يبحث عن فارسه، ومرور الفـارس الأول إحسـان يعبـر الطرقات ولا يلتفت إلى الزملاء، ولكنه يراهم بكتفيـه أثنـاء مروره.. سارحا في رواياته الأخيرة وإكليل الغار فوق رأسه وسماحة وجهه وبساطة شخصه، سابحا في الهواء خارجا من غرفته وفي يده ورقة بها كلمات تموج في يده كحمامة صيف أو منديل يلوح بالحب والحرية.

ينحرف إلى اليمين فتلتقط أنفاسه أنفاس الآخرين. الكل منكب على مكتبه يكتب ويرسم.. هذه المرة يعبر دهليزا آخر للوصول إلى غرفة أحمد بهاء.

يختفي إحسان وراء ظلام القضـبان حـاملا ورقتـه الطائرة.

الأسطى حسن في قبقابه الموسيقي يسير ويختال فـي سترته الزيتية الملطخة بالحبر يصعد الـدرج وسـط تآكـل الجدران لا يصرخ ولا يغضب. يحمل قلبه بيـد وبـالأخرى

بروفة ساخنة طازجة معروقة ببصمات العمال الجدعان أولاد المجلة.

يخرج رئيس التحرير من السجن السياسي، على وجهه بعض الأسى لكن هامته أكثر ارتفاعا.

تصبح سهرة الجمعة مع نهاية آخر الصفحات وليمـة على عربة الفول التي دخلت الدار القديمة المتهالكة تـدفعها السيدة صاحبة المجلة.

يتخيل فلتس الساندوتشات المستديرة الملفوفة الدافئة في أوراقها المبقعة بالزيت، وجوها لرؤساء العالم قابعـة علـى طاولة الرسم. يقضم ويرسم وابتسامة السيدة صاحبة الـدار لاتفارقه في دائرتها الوردية ولمعة القرطين فـي الأذنـين. ويدخل الابن إحسان في قميصه الأبـيض وربطـة العنـق المفتوحة وكأنه يعض قلمه بأسنانه فكلماتـه الشـفهية أكثـر سحرا من كلماته المكتوبة، ويدخل مطرب شاب لـه حركـة كتفين تدفع أو تطبطب على أذنيه كأنهمـا يسـاعدانه علـى الاستماع إلى نغم ولحن متداع في أعماقه ويخرج من حنجرة مبحوحة كأنها تمر على أحزاننا وطفولتنا وأيامنا. قليل الحجم

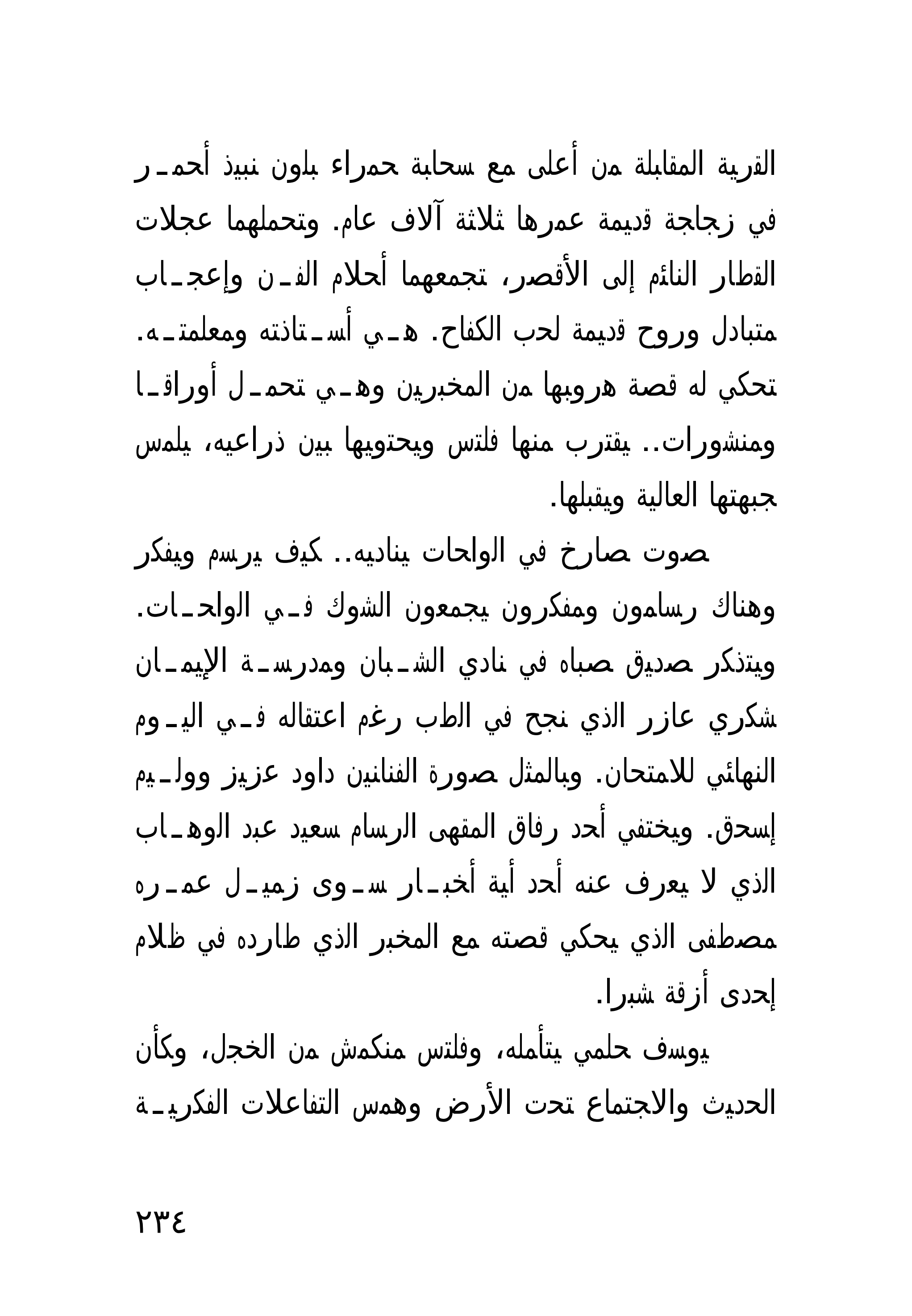
دائم الابتسام وكأنه يخفي وراء انفراج الشفتين مأساة غـور العينين فيبدو الابتسام ظاهرا مبهجا.

تتابع أحداث الصحاب كحواديت أسرة واحـدة، فيقـع صبري موسى بعد نجاح روايته «فساد الأمكنة» في غـرام ابنة مدير الحسابات، ولويس جريس مع سيدة المسرح سـناء جميل، وتحضر مع عبد ا الطوخي فتحية العسال، وتنكسر عظمة الترقوة في صدر مفيد فوزي في حادث سـيارة فـي ميدان التحرير يقودها زميله الشاعر صلاح عبـد الصـبور الذي يتزوج بدوره للمرة الثانيـة مـن سـميحة المخرجـة بالتليفزيون، ويتزوج صلاح جاهين من سوسن الرسامة التي قدمتها له هبة عنايت صدفة، وتلد له طفلا اسمه بهاء إعجابا بصديقه رئيس التحرير كما يتزوج هو بدوره إحدى قارئاتـه «ديزي» ويلتصق محمود المراغي بنجاح عمر لا يفارقهـا أبدا، ويغار عليها من نظرات المحررين زملائـه، وينجـب رئيس التحرير إحسان ولدين أحدهما الأصغر يضحك علـى طول الخط والأكبر محمد يكتئب ويكشر على طول الخـط.. وتتردد الفنانة رعاية النمر بين مكتب جمـال كامـل وأبـو العينين الذي ترتبط بحياتها معه، كما يرتبط جمال بالمخرجة

منى مجاهد، ويرقص ويغني محمود شكوكو في عيد مـيلاد إحسان. ويستقبل مصطفى محمود معجباته علـى التليفـون بالصياح والفرح، ويغازل بهجت بلاطـف نـرمين، وتتـألق محررات مجلة صباح الخير مهجة عثمان وفاطمة العطـرا وماجدة الجندي ومنى سراج وكريمة كمال وزينب منتصـر، وتصحب فوزية مهران شابا خجولاً تقدمه على أنه زوجهـا، وتعود نهاد جاد مع سمير سرحان من أمريكا، وتنجب سعاد زهير ابنها لينين الرملي.

***

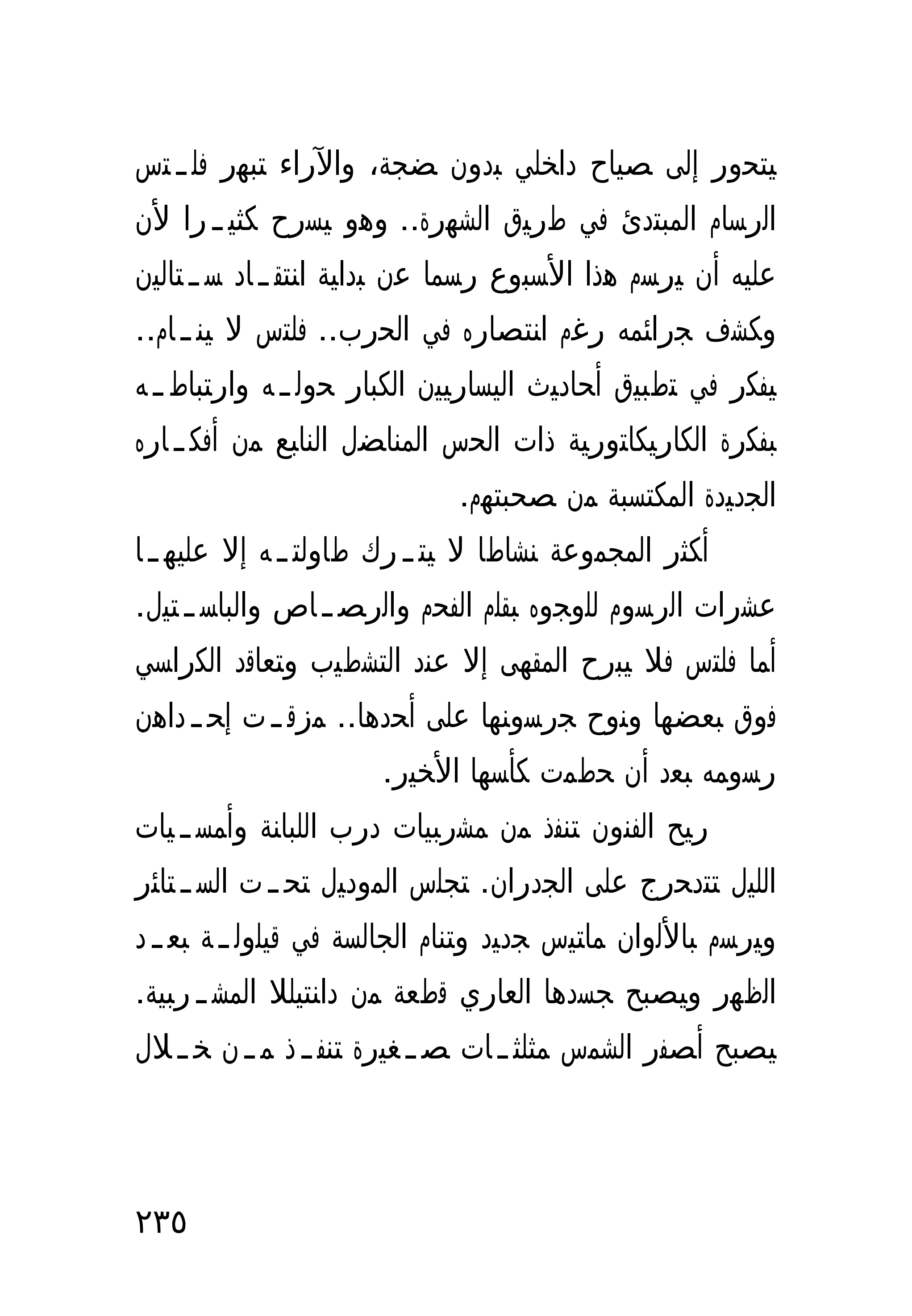
فجأة نظرت من النافذة مع ضوء الفجر الجديد وجبال القرنة أمامها على الجانب الآخر من النيل.. لونها بنفسـجي وردي قبل احتراق الشمس في الظهيـرة. صـرخت إنجـي أفلاطون: «أريد أن أعضه.. سأرسمه معك غـدا صـباحا» واحتواهما الحنطور، نام في أطراف ردائها وطرق السـوط ورقص الحصان مع إيقاع أقدامه، إلى أن وصلا إلى الجبـل بعد العرق وسط زحام الفلاحين والفلاحات الصعايدة. تتطلع في لهفة إلى كل عمامة وكل وجه، وتدون في نوتتهـا كـل ما تراه ويصعدان اليوم التالي سطح إدفو يتعبدان، يرسـمان



القرية المقابلة من أعلى مع سحابة حمراء بلون نبيذ أحمـر في زجاجة قديمة عمرها ثلاثة آلاف عام. وتحملهما عجلات القطار النائم إلى الأقصر، تجمعهما أحلام الفـن وإعجـاب متبادل وروح قديمة لحب الكفاح. هـي أسـتاذته ومعلمتـه. تحكي له قصة هروبها من المخبرين وهـي تحمـل أوراقـا ومنشورات.. يقترب منها فلتس ويحتويها بين ذراعيه، يلمس جبهتها العالية ويقبلها.

صوت صارخ في الواحات يناديه.. كيف يرسم ويفكر وهناك رسامون ومفكرون يجمعون الشوك فـي الواحـات. ويتذكر صديق صباه في نادي الشـبان ومدرسـة الإيمـان شكري عازر الذي نجح في الطب رغم اعتقاله فـي اليـوم النهائي للامتحان. وبالمثل صورة الفنانين داود عزيز وولـيم إسحق. ويختفي أحد رفاق المقهى الرسام سعيد عبد الوهـاب الذي لا يعرف عنه أحد أية أخبـار سـوى زميـل عمـره مصطفى الذي يحكي قصته مع المخبر الذي طارده في ظلام إحدى أزقة شبرا.

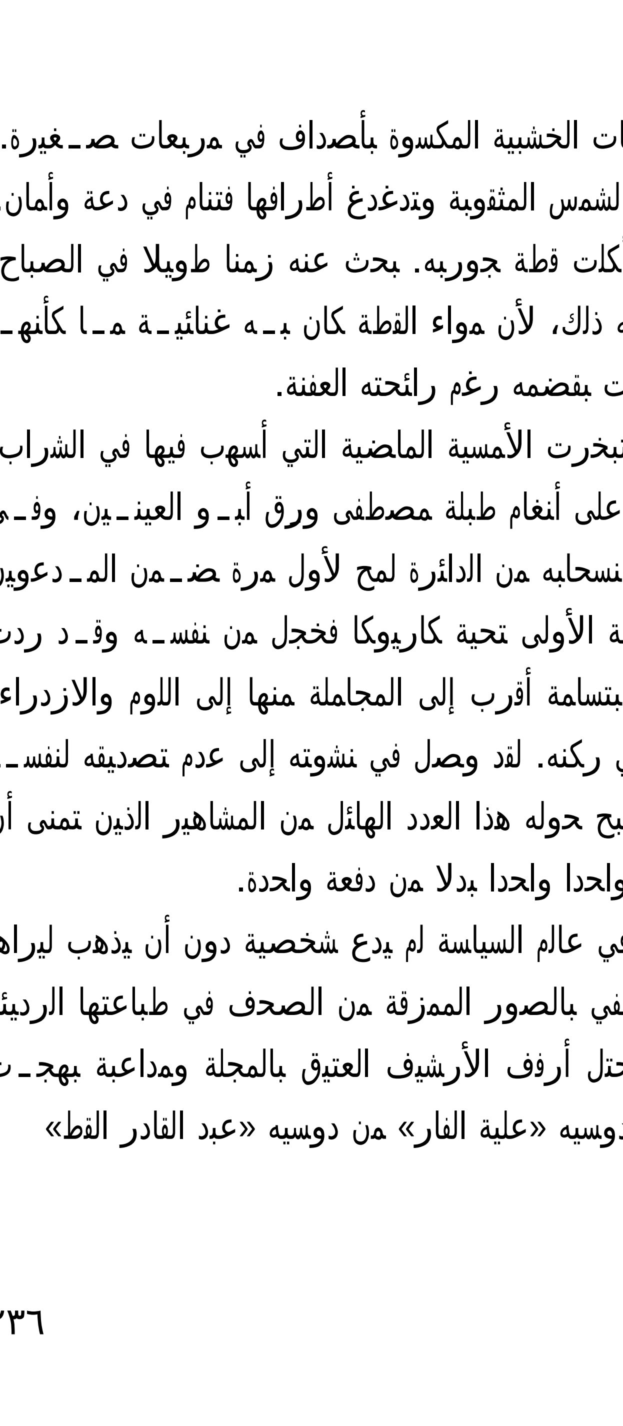
يوسف حلمي يتأمله، وفلتس منكمش من الخجل، وكأن الحديث والاجتماع تحت الأرض وهمس التفاعلات الفكريـة



يتحور إلى صياح داخلي بدون ضجة، والآراء تبهر فلـتس الرسام المبتدئ في طريق الشهرة.. وهو يسرح كثيـرا لأن عليه أن يرسم هذا الأسبوع رسما عن بداية انتقـاد سـتالين وكشف جرائمه رغم انتصاره في الحرب.. فلتس لا ينـام.. يفكر في تطبيق أحاديث اليساريين الكبار حولـه وارتباطـه بفكرة الكاريكاتورية ذات الحس المناضل النابع من أفكـاره الجديدة المكتسبة من صحبتهم.

أكثر المجموعة نشاطا لا يتـرك طاولتـه إلا عليهـا عشرات الرسوم للوجوه بقلم الفحم والرصـاص والباسـتيل. أما فلتس فلا يبرح المقهى إلا عند التشطيب وتعاقد الكراسي فوق بعضها ونوح جرسونها على أحدها.. مزقـت إحـداهن رسومه بعد أن حطمت كأسها الأخير.

ريح الفنون تنفذ من مشربيات درب اللبانة وأمسـيات الليل تتدحرج على الجدران. تجلس الموديل تحـت السـتائر ويرسم بالألوان ماتيس جديد وتنام الجالسة في قيلولـة بعـد الظهر ويصبح جسدها العاري قطعة من دانتيللا المشـربية. يصبح أصفر الشمس مثلثـات صـغيرة تنفـذ مـن خـلال

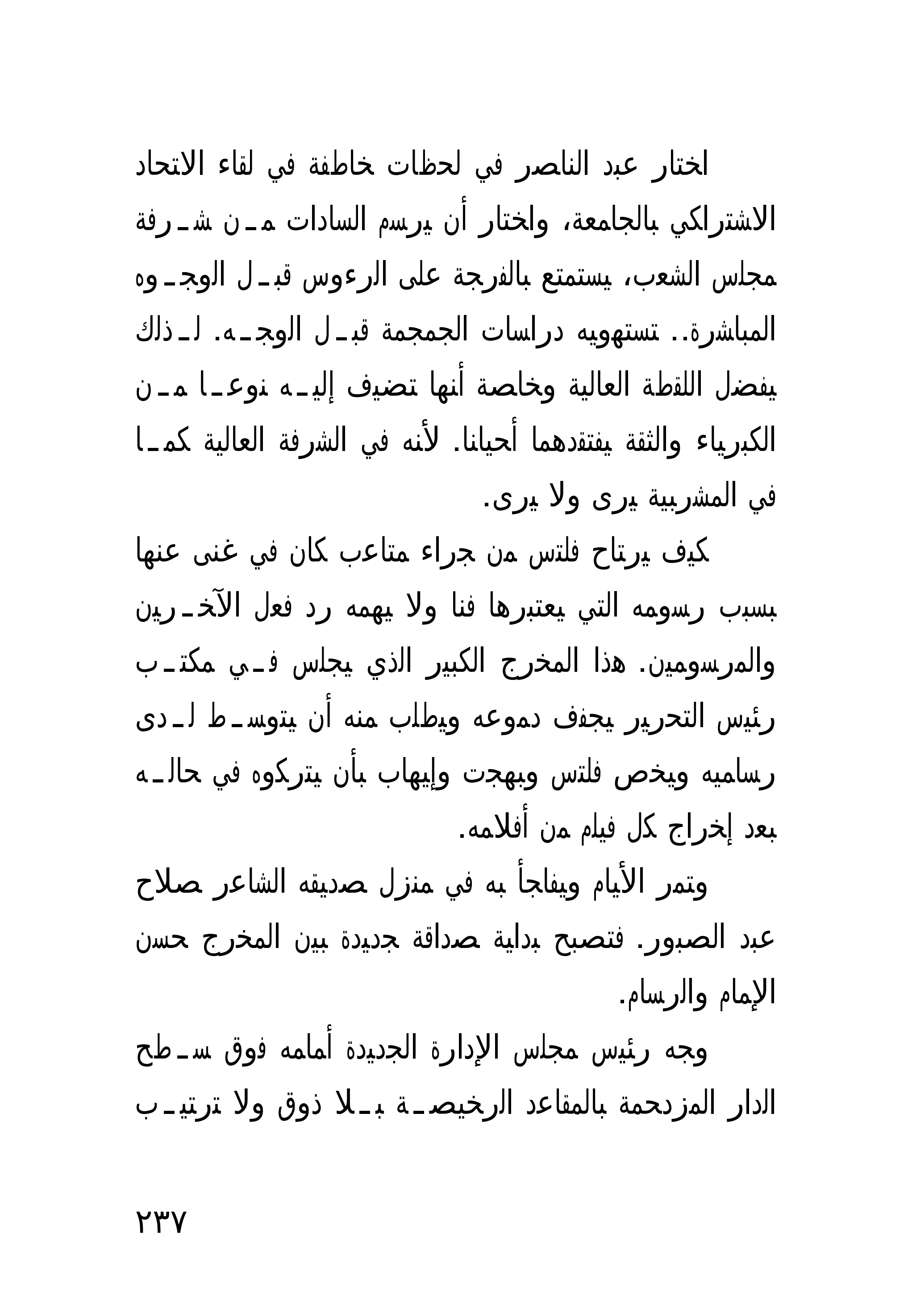


المنمنمات الخشبية المكسوة بأصداف في مربعات صغيرة.. تدفئها الشمس المثقوبة وتدغدغ أطرافها فتنام في دعة وأمان.

أكلت قطة جوربه. بحث عنه زمنا طويلا في الصباح، فتأكد له ذلك، لأن مواء القطة كان به غنائية ما كأنها استمتعت بقضمه رغم رائحته العفنة.

تبخرت الأمسية الماضية التي أسهب فيها في الشراب، رقص على أنغام طبلة مصطفى ورق أبو العينين، وفي لحظة انسحابه من الدائرة لمح لأول مرة ضمن المدعوين الراقصة الأولى تحية كاريوكا فخجل من نفسه وقد ردت عليه بابتسامة أقرب إلى المجاملة منها إلى اللوم والازدراء. فقبع في ركنه. لقد وصل في نشوته إلى عدم تصديقه لنفسه أن يصبح حوله هذا العدد الهائل من المشاهير الذين تمنى أن يلقاهم واحدا واحدا بدلا من دفعة واحدة.

في عالم السياسة لم يدع شخصية دون أن يذهب ليراها ولا يكتفي بالصور الممزقة من الصحف في طباعتها الرديئة التي تحتل أرفف الأرشيف العتيق بالمجلة ومداعبة ببهجت بإبعاد دوسيه «علية الفار» من دوسيه «عبد القادر القط»



اختار عبد الناصر في لحظات خاطفة في لقاء الاتحاد الاشتراكي بالجامعة، واختار أن يرسم السادات مـن شـرفة مجلس الشعب، يستمتع بالفرجة على الرءوس قبـل الوجـوه المباشرة.. تستهويه دراسات الجمجمة قبـل الوجـه. لـذلك يفضل اللقطة العالية وخاصة أنها تضيف إليـه نوعـا مـن الكبرياء والثقة يفتقدهما أحيانا. لأنه في الشرفة العالية كمـا في المشربية يرى ولا يرى.

كيف يرتاح فلتس من جراء متاعب كان في غنى عنها بسبب رسومه التي يعتبرها فنا ولا يهمه رد فعل الآخـرين والمرسومين. هذا المخرج الكبير الذي يجلس فـي مكتـب رئيس التحرير يجفف دموعه ويطلب منه أن يتوسـط لـدى رساميه ويخص فلتس وبهجت وإيهاب بأن يتركوه في حالـه بعد إخراج كل فيلم من أفلامه.

وتمر الأيام ويفاجأ به في منزل صديقه الشاعر صلاح عبد الصبور. فتصبح بداية صداقة جديدة بين المخرج حسن الإمام والرسام.

وجه رئيس مجلس الإدارة الجديدة أمامه فوق سـطح الدار المزدحمة بالمقاعد الرخيصـة بـلا ذوق ولا ترتيـب

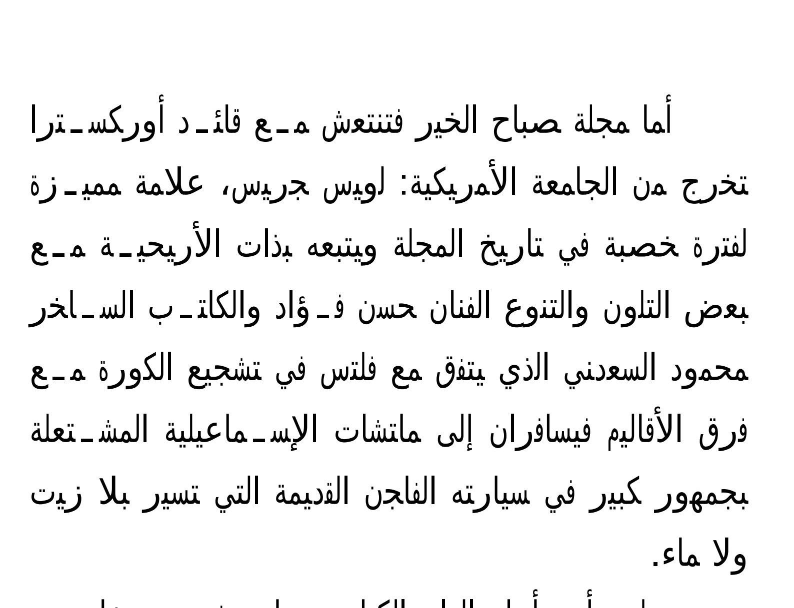
بالإضافة إلى لهجة حضرته الفاشية، كلها تهديـد ووعيـد، يتململ فلتس في مقعده، يريد أن يهرب من الحـديث ومـن المكان، الموقف الذي تغير لا يجعـل فلـتس الرسـام فـي المجلتين يرتاح إليه، تستفزه عبارات رئيس الدار الجديد الذي يكشر عن أنيابه أمام الحاضرين. إنـه أديـب مـن سـلاح الفرسان يرتدي عوينات شمسية سوداء وتسقط خصلة شقراء على جبهته. تتحرك عضلات الوجه عند الكلام كأنها تمتعض أو تتهتك مع الكلمات أو تتمزق إلى أجزاء كأنه يبحث عـن سجع أو تفعيلة واحدة. يتصـدى لـه الصـحفي مصـطفى الحسيني في شجاعة رأي ومعارضة، ولكنه يفشل بعد قليـل بسبب إغلاق باب الديمقراطية في وجه الحوار الحر وتتكرر المأساة بعد قرار التأميم الذي أفقد حرية الرأي منطقها.

يظهر شاب مثقف ذو عوينات يلازم مجموعة أدبـاء وفناني المؤسسة بصفة الرقيب. في رقته وتهذيبه نوع آخـر جديد من الرقيب الطيب المعشر الذي يجلس بالصدفة بجوار طاولة رسم فلتس يضحك على نكاتها السياسية والاجتماعيـة وهو يقول لهم معجبا ومحددا لنفسه وظيفته وبالتعبير الدارج ضاحكا: تعدي.. تفوت.. ما فيهاش حاجة.. حتى لـو تـأزم

الموقف مع الرسم والرسام. يمسك بسماعة التليفـون ليأخـذ الموافقة مع الإقناع. يتحول «منير حافظ» إلى واحد من أسرة المجلة يحب الفن والفنانين ووظيفته كرقيـب تحولـت إلـى وظيفة جديدة كما في الكيمياء: عامل مساعد.

يبرق وجه رءوف عيـاد وكأنـه يـئس مـن إقنـاع المسئولين في المجلة بأسلوبه يعود من جديد إلى مجموعتـه من خريجي معهد السينما، تلتقي كل صباح في مقهى لاباس وسط البلد، مجموعة لم تأخذ فرصتها بعد في عالم السـينما وهم عادل إمام وأحمد زكي وصلاح السعدني ومعهم مهندس الديكور الرسام نهاد بهجت وأحيانا ينضم إلى المائدة الشاعر صلاح عبد الصبور وعبد الوهاب البياتي وأمل دنقل وسـيد حجاب والأبنودي وعلي سالم وجميل شفيق وعدلي رزق ا وصلاح عناني وجودة خليفة وسيد خميس ونجيـب شـهاب الدين وسمير عبد الباقي وعز العرب.

إلا أن سنوات التأميم تمر، ويحـدث تكـافؤ وتوفيـق عندما يرأس المؤسسة عبد الرحمن الشرقاوي. إلا أن الأسرة الأولى تفككت بعد تبدل وتغير المقاعد والأشخاص وتصـبح ديمقراطية الكلمة تابعة وليست حرة تماما.



أما مجلة صباح الخير فتنتعش مع قائد أوركسترا تخرج من الجامعة الأمريكية: لويس جريس، علامة مميزة لفترة خصبة في تاريخ المجلة ويتبعه بذات الأريحية مع بعض التلون والتنوع الفنان حسن فؤاد والكاتب الساخر محمود السعدني الذي يتفق مع فلتس في تشجيع الكورة مع فرق الأقاليم فيسافران إلى ماتشات الإسماعيلية المشتعلة بجمهور كبير في سيارته الفاجن القديمة التي تسير بلا زيت ولا ماء.

ويلمع أحد أبناء الدار الكبار، يمتاز بشعبية خاصة وثقافة عالية وحب متدفق للحرية والإنسان وعشق للفنون التشكيلية بجوار القلم السياسي والاجتماعي. في فترة قصيرة أصبح الشخص في المؤسسة، في كتلة جسمه الضخمة رشاقة نادرة وفي استيعابه لأي موقف يختار المرح أولا، ثم الحل والقرار: كامل زهيري.

***

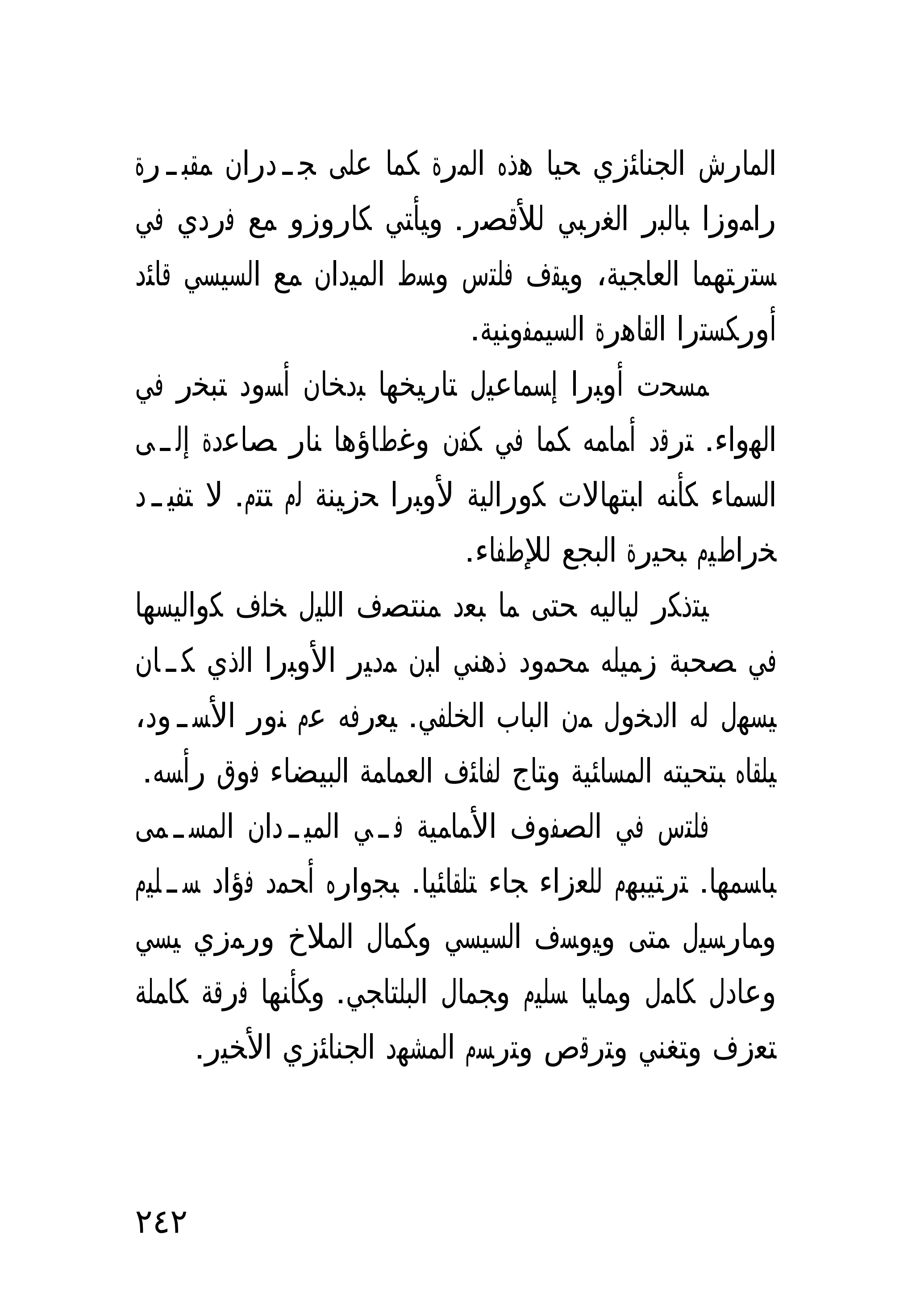
ذات صباح حزين تجتمع الأسرة الكبيرة حول جسدها الراقد وسطهم، أصابعهم منعقدة على ردائها الهفهاف

تودعها، ودموع إحسان قطرات ندى لا تفارقها حتى نهايـة المساء. اليوم هو وداع الأم روز اليوسف!

فجأة يصرخ الجميع الأوبرا تحترق.

تتكئ القطعة الخشبية على الجدار المنقوش بزخـارف دانتيللا لويس الرابع عشر، وتسقط ستائر الإهمال فوق ألسنة النار الصارخة، وأمام خضرة حدائق الأزبكية الذابلة إصـبع إبراهيم باشا الفارس فوق حصانه يشير إلى الشرق بعـد أن كان يشير في اتجاه الغرب.

تختنق القطعة الخشبية بالدخان وهي مشـتعلة علـى إحدى قمم المبنى، قطعة بقيت من وقت بناء قصر الأوبـرا دليلا على زيارة ملك فرنسا والموسيقار فردي وصوت عايدة الحبشية، وينشد الحب والحرية في هذه اللحظات الحاسمة من حريق الأوبرا، وتعود الآهات لـ «لاترفياتا» ودون جيوفاني وكسارة البندق، يصيحون بأعلى درجة حتى تتمزق حبـالهم الصوتية، وتعزف الآلات لحنها الأخير، وألسنة النار تلـتهم الأوتار فيئن خشب الورد، الكمان والعود والبزق والمزمـار والقانون والكونترباس والفيلونسيل والرق والطبـل. تبكـي عازفة «الهارب» الفرعونية في لوحـة للعازفـات ويعـود


المارش الجنائزي حيا هذه المرة كما على جـدران مقبـرة راموزا بالبر الغربي للأقصر. ويأتي كاروزو مع فردي في سترتهما العاجية، ويقف فلتس وسط الميدان مع السيسي قائد أوركسترا القاهرة السيمفونية.

مسحت أوبرا إسماعيل تاريخها بدخان أسود تبخر في الهواء. ترقد أمامه كما في كفن وغطاؤها نار صاعدة إلـى السماء كأنه ابتهالات كورالية لأوبرا حزينة لم تتم. لا تفيـد خراطيم بحيرة البجع للإطفاء.

يتذكر لياليه حتى ما بعد منتصف الليل خاف كواليسها في صحبة زميله محمود ذهني ابن مدير الأوبرا الذي كـان يسهل له الدخول من الباب الخلفي. يعرفه عم نور الأسـود، يلقاه بتحيته المسائية وتاج لفائف العمامة البيضاء فوق رأسه.

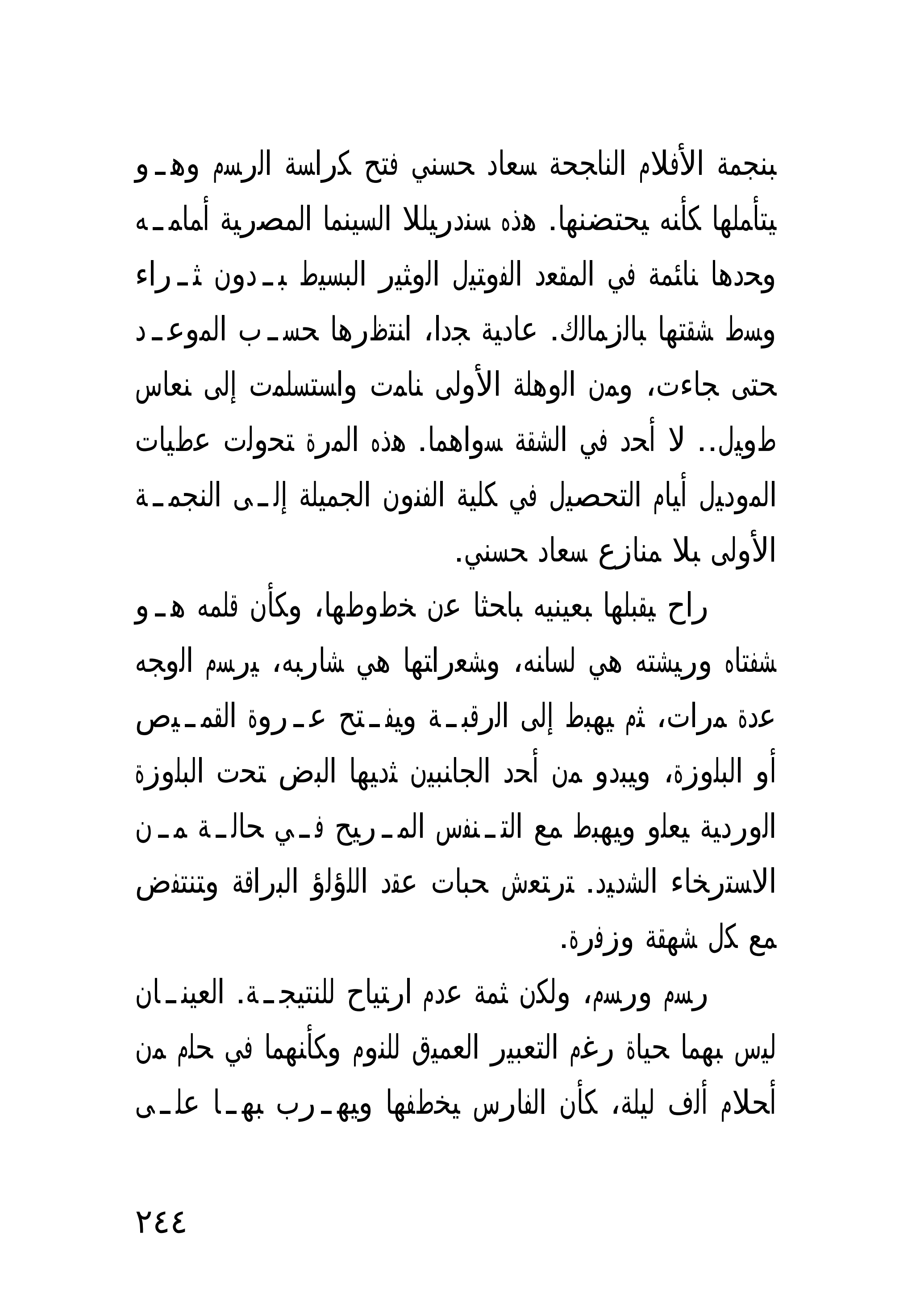
فلتس في الصفوف الأمامية فـي الميـدان المسـمى باسمها. ترتيبهم للعزاء جاء تلقائيا. بجواره أحمد فؤاد سـليم ومارسيل متى ويوسف السيسي وكمال الملاخ ورمزي يسي وعادل كامل ومايا سليم وجمال البلتاجي. وكأنها فرقة كاملة تعزف وتغني وترقص وترسم المشهد الجنائزي الأخير.

جلس معه على مقاعد (لاباس) كواحد مـن ملايـين المعجبين بفنه: محمد عبد المطلب ممسكا بالسبحة فـي أيـام رمضان في انتظار مدفع الإفطار، يحكـي بنغمـة صـوته المعروفة وبأسلوبه الشعبي كما في أساطير أبو زيد الهلالي، وفلتس يترجم لكنته الشعبية الصميمة، بينما تتبـرطش أنفـه وينبعج خداه فتصبح ذقنه قرصا يتوسطه فتحة. يهمس فلتس بظل صامت بالقلم الرصاص على الورقة، هذه المـرة دون سخرية.

- «ابني عاوزك تطلعهولي رسام زيك.. أنـا دخلتـه الفنون الجميلة» .

يرسمه وهو يتذكر ميل الطربوش وانعراجه كلما أنهى عبارته الممطوطة في حبه وعشقه للناس، حوله هذه المـرة يصبح فلتس هو الجمهور وهو الصديق وهو جليس وحدتـه وذكرياته، دخان سيجارة لم يشربها ولم يشعلها أبدا، ولكنـه بخار السهرات الطويلة حتى الفجر وسط التصفيق والتهليـل لمواويله الشهيرة.

تنام بعد عودتها من الاسـتوديو وكأنهـا تقـول لـه: ارحمني إني متعبة أريد أن أنام. لكن فلـتس الـذي ارتـبط



بنجمة الأفلام الناجحة سعاد حسني فتح كراسة الرسم وهـو يتأملها كأنه يحتضنها. هذه سندريللا السينما المصرية أمامـه وحدها نائمة في المقعد الفوتيل الوثير البسيط بـدون ثـراء وسط شقتها بالزمالك. عادية جدا، انتظرها حسـب الموعـد حتى جاءت، ومن الوهلة الأولى نامت واستسلمت إلى نعاس طويل.. لا أحد في الشقة سواهما. هذه المرة تحولت عطيات الموديل أيام التحصيل في كلية الفنون الجميلة إلـى النجمـة الأولى بلا منازع سعاد حسني.

راح يقبلها بعينيه باحثا عن خطوطها، وكأن قلمه هـو شفتاه وريشته هي لسانه، وشعراتها هي شاربه، يرسم الوجه عدة مرات، ثم يهبط إلى الرقبـة ويفـتح عـروة القمـيص أو البلوزة، ويبدو من أحد الجانبين ثديها البض تحت البلوزة الوردية يعلو ويهبط مع التـنفس المـريح فـي حالـة مـن الاسترخاء الشديد. ترتعش حبات عقد اللؤلؤ البراقة وتنتفض مع كل شهقة وزفرة.

رسم ورسم، ولكن ثمة عدم ارتياح للنتيجـة. العينـان ليس بهما حياة رغم التعبير العميق للنوم وكأنهما في حلم من أحلام ألف ليلة، كأن الفارس يخطفها ويهـرب بهـا علـى

حصانه. فشل فلتس ليس له نظير، تعبير العينين بلا حيـاة، ثمة ظلال سوداء جافة صناعية تفسد اللوحة.

استيقظت سعاد بعد أكثر من نصف ساعة تململت قليلا ولم تنزعج وتذكرت أنها أمامه فقبلته هـذه المـرة كعادتهـا عندما تراه.. لكن حركة بسيطة كشفت لفلتس المشكلة.. لقـد دخلت الحمام في لحظات وتركت الباب مفتوحا على جانـب من الصالة، راح يتابعها بنظراته.. لمست رمـوش عينيهـا بأصابعها، ثم عادت.. بدون الرموش الصناعية التي نسـيت خلعها منذ لقطات الاستوديو أمام الكاميرا.

وإن كان فشل فلتس في رسمه لوجـه سـعاد حسـني لسبب لم يعرفه إلا بعد دخولها الحمام.. فإن فشله في رسـم عبد الوهاب لغز أغاظه كثيرا، إضافة إلى خيبة أمله مع فريد الأطرش.

يصحو من نومه ذات صباح فنان شعبي كبيـر يمـلأ عالم المسرح الفكاهي ويعرفه طوب الأرض وترابهـا فـي مصر حتى أصبح النموذج الأول للأراجوز، ينـادى باسـمه بائع القلل بعد أن نحتوا له تمثالاً من الفخار: محمود شكوكو في لحظة ارتشافه للقهوة يقلب في الصحف حوله، فيجد على

الصفحة الثانية لوحة ملونة له بريشة فلتس.. فيخـرج علـى التو إلى محل براويز ليصنع لها إطارا بعد أن فصـلها مـن المجلة وكتب عليها كلمة رقيقة «شـكر وإعجـاب للرسـام ورئيس التحرير».

يدخل ذات الصباح حجرة رئـيس التحريـر لـويس جريس فيجد شكوكو في انتظاره يقدم له الهدية بالأحضان.

عادل إمام تصبح أحاديثه وقفشاته العذبة المتتالية على طاولة الفن بمقهى لاباس مصدرا ينهل منه فلتس في كراسته التي ازدحمت بتعبيرات وجهه.. يفرح عادل ويسميه بأجمـل من رسمه.. في ذلك الوقت كان رمسيس نجيب لا يقبله سوى في الدور الثاني (السنيدة).

أحمد زكي المرفوض من المخرجين بسـبب غمقـان أو سمار أو دكانة لون بشرته يجلس متذمرا يحكـي لفلـتس بينما يبحث فلتس عن تعبيرات عينيه وملامح وجهه الـذكي فعلا ويقول له بالحرف الواحد كأنه يتنبأ: وجهك رائع وغني بالتعبيرات.. ستكون النجم الأول لأفلام عديدة مقبلة.

نور الشريف استدعاه فلـتس إلـى المجلـة ليرسـمه كشخصية الأسبوع الفنية وهو لا يزال يمثل دوره الأول فـي «القاهرة والناس» من إخراج محمد فاضل.

يذهب إلى المسرح القومي ليرسم زكي طليمات الـذي أبدع في تعبيرات وجهه الدرامية العنيفة وتضادها مع نعومة بشرته وملامحه. وسميحة أيوب التي لا يمكن تلخيصها فـي خطوط مختزلة على طريقته ولابد له أن يعود إلـى الرسـم المنهجي للتعبير عنها، وعشرات الرسوم لسناء جميل لسهولة ملامحها، وأثناء خروجه من المسرح يلتقي بالممثل القـدير فاخر فاخر خارجا من قمرته أثناء المكياج التـي يستضـيفه فيها دقائق ويقول وقد رسم هو تعبيرا غريبا: خد دي، طيب بلاش.. خد التعبير ده.، ثم يضحك ويقهقه ويقول لـه: هـل أخذت التعبير.

فتحي غانم يجلس في غرفة الرسامين فيرسمونه جميعا حتى تتألق لوحة رسمها له رجائي ونيس فتصبح معلقة على الجدار سنوات طويلة حتى خرج الرسم من الزجاج والإطار مع حركة فتح شباك الشرفة. تضيع اللوحـة المتحفيـة فقـد سقطت بفعل الهواء عندما تفتح الشـراعة وبقيـت سـنوات

أخرى ضائعة في ركن على الأرض وفي لحظات الانتقـال إلى المبنى الجديد بشارع القصر العيني فقدت مرة أخرى.

لم تعطه سنوات الكلية أية ثقافـة أدبيـة أو فلسـفية، استغراقه في الرسم والتشكيل أغرقه في حيرة البحـث عـن أسلوب وخصوصية. حتى «تاريخ الفن» أعاد الامتحان فيـه مرتين. رغم مساعدة صديقه صلاح عبـد الكـريم مراقـب اللجنة. رؤيته البصرية هي كل شيء أما ذاكرته الأدبية فتكاد تكون منعدمة. لم يبق له سوى ثقافة «إيـوارت» بالجامعـة الأمريكية التي واظب عليها وهو طالب بالثانوي. فقد أهـداه شقيقه جميل بطاقة دخول مجانية عندما كان طالبا بالجامعـة الأمريكية يدرس علم النفس ويتطوع مساء الثلاثاء بإرشـاد المشاهدين في الظلام بعد انتهاء الفيلم.. تابع فلتس شقيقه في الظلام كشبح رشيق هادئ يضئ بطاريته أمام المقعد الفارغ، ثم يعود إلى باب للدخول ليصحب ضيفًا آخر يروح ويغـدو كفراشة تشع الوهج كشمعة مضيئة للجلـوس فـي المقعـد الفاغر.

قالوا له في المجلة إن ثقافته من خلال السينما لا تكفي لا بد من القراءة.

يقول رجاء النقاش ناصحا: ابدأ بكتاب نهرو ورسـائله إلى ابنته أنديرا غاندي، إنه يصف العالم وبدايته في صفحات عديدة تصل إلى الألف صفحة وهو كتاب ضخم يسـتطيع أن يعطيك البداية من خلال شخصية عظيمة أضافت الكثير إلى تاريخ عصرنا الحالي، ثم الأدب الروسي بداية بديستوفسكي وتشيكوف وجوركي وجوجول.

يجد في أحد أدراج صلاح جـاهين مسـودات الليلـة الكبيرة وفي درج آخر «أنا قلبي كان مرجيحة أصبح جرس» وفي درج آخر شريط تسجيل لحـوارات، ويسـمع صـلاح عبد الصبور:

وجه حبيبي/ خيمة من نور/ شعر حبيبي/ حقل حنطة/ خدا حبيبي/ فلقتا رمان/ جيد حبيبي/ مقلع من الرخام/ نهـدا حبيبي/ طائران أزغبان.

يئن المكان ويمتلئ بالضوضاء وثرثرة الليل حتى نور الصباح. تضخ أسطوانة نحاسية الكلمات. الحرف يلتصق في الحرف. يتجاور يلتحم يتلاصق يندمج. يصبح كلمة. والكلمة تتعدد ما بين فعل وفاعل ومفعول ومستثنى فتصـبح جملـة تخرج من الأسطوانة وقد لاحقتها الأذرع المعدنية الصـغيرة

بالمئات، كل ذراع يكمل حرفـا والحـرف يحمـل تشـكيلا والهمزة تقف على ناصية الكلمات تهدئ من الضجيج.

الحبر الأسود يكتب الخبر الأبيض والخبـر الأسـود. الحبر الأسود يطبع الحب ويمحو البغض والظلم والفاشـية. الحبر الأسود لغة تنتقل إلى كل اللغات. يحمل رسائل الأقلام إلى القراء. الماكينة الكبرى يقف على قمتها العامـل محمـد إبراهيم والصبي قريبه ثابت ابن أم ثابت.

يحتفظ الرسام دياب بوقار النكتة فلا تضحك، ويبـدع رءوف عياد رسوما خفيفة الظل هفهافة، والنكتة تخرج مـن معطف حجازي، لها تميز روحي، ويتبعه محسـن ومحمـد حاكم وشعلان، وتظهر وجوه بأسلوب حفري لرسام الوجـوه المتميز شريف، وجمعة الذي علم نفسه الرسم يواظب علـى الأحداث السياسية ليلخصها في فكرة محددة. ورمسيس الذي اختاره حسن فؤاد ليكون نديمه في السـهرات يتجـه إلـى التليفزيون.

تشتط خطوط الرسام حاكم في جريدة المساء السياسية التي ينتقل إليها بهجت، وتلمع فجأة ريشه عملاقـة لرسـام

عملاق في الطول أيضا اسمه مصطفى حسين، يتابع الشعب المصري رسومه كل صباح مع حواديت الكاتب أحمد رجب.

ويبقى شاب نحيل في لمحته طيف وفي همسـه نغـم يكتب الخطوط مع أبو شنب خطاط المجلة، يعاتبه على طول الخط وينهره أحيانا. ينهي عمل المانشيتات وعناوين المجلـة وكوب الشاي الذي برد، لا يقترب منه، ولكنه أنـيس يحثـه على مثابرة العمل، الشاب محمد حمزة يسرق اللحظات بـين عنوان مقال واسم كاتب ليكتب أغنية يرددها الشـعب علـى لسان فايزة أحمد أو عبد الحليم حافظ.

صدى الصوت أكثر سحرا من الصوت ذاته، النظـرة الأولى للشخص في وجهه محاطا بخطوط عديدة وتفاصـيل كثيرة. لكنه عندما يختفي تبقى منه في عـين الرسـام أهـم عناصر هذا الوجه.

يتأمل الوجه في الصحيفة ينقله بسرعة خاطفـة علـى الورقة. إنه يختار الصوت الأول الذي يسمعه من الصـورة، ولكنه ينتظر بعد ذلك صدى الصوت عندما يخفي الصـورة. إنها نوع من اليوجا أو الرياضة يتدرب عليها كل يوم كأنـه

يضيف إلى ذراعه الهزيل عضلة تنمو مع زيـادة سـاعات التدريب.

الرسم السريع (الاسكتش) لحظة جاءت أو ضاعت إلى الأبد.. القبلة المفاجئة لحب جديد. في كل وجه تفاحة صغيرة على الخد.. ينتظر فلتس عندما يعثر عليهـا فـي الشـخص الماثل أمامه.. لذلك فهو يحرضه على الضحك لاكتشـافها.. خاطفة سريعة مثل ومضة برق تخطفها عينه، ثم يطلق السهم الأول من الخط المستدير كأنه يغرس السهم فـي منتصـف التفاحة ويصبح كاريكاتور الوجه ناجحا على التو.

في تطويره لرسم الأشخاص يبحث عن خصوصـيته وتميزه. لذلك تبارى الرسامون حوله فـي رسـم الوجـوه، رجائي ونيس يعرف اللعبة مثله بل إن رجائي يتفوق أحيانـا في سبر أغوار النفس واضعا المتلقي أمام صـاحب اللوحـة التي تدعو إلى الضحك.

لا يهم إذا كان الشخص جادا أو عابسا، يظـل فلـتس يحاوره حتى يسقطه في الابتسامة، ويصبح ضحيته.

وغير صحيح أن تفاحة آدم هي الحنجرة فهـي جافـة ومثلثة ومضلعة، فالتفاحة الحقيقية هي تفاحة الخد عندما تشتد

عضلات الأسنان والفك في بداية الشعور بالابتهاج والضحك لذلك فهي تتكون لحظة اشتداد خيوط الوجه المستدير فيبقـى منها كرة صغيرة وفي وسطها غمازة، يسميها فلتس تفاحـة الخد الضاحكة التي لا تظهر إلا معها.

يقول بيكاسو أبـو الرسـامين فـي تـاريخ الفنـون المعاصرة: إنه لا يليق للرسام وهو يرسم لوحاته أن يعتـذر عن أي خط ليغيره أو يبدله، ولكن عليه أن يعترف ويجـدده أو يجوده، ولكنه لا يمحو الرسم الأول ويبقي عليه لأنه تعبير عن لحظة التعارف الأولى للتعارف بينه وبين اللوحة التـي يشرع في رسمها، فمن واجبه أن يؤكد رؤيته الأخيرة فتصبح هي القرار الأخير وتبقى المحاولة الأولى بجانبها دليلا علـى البداية.

***

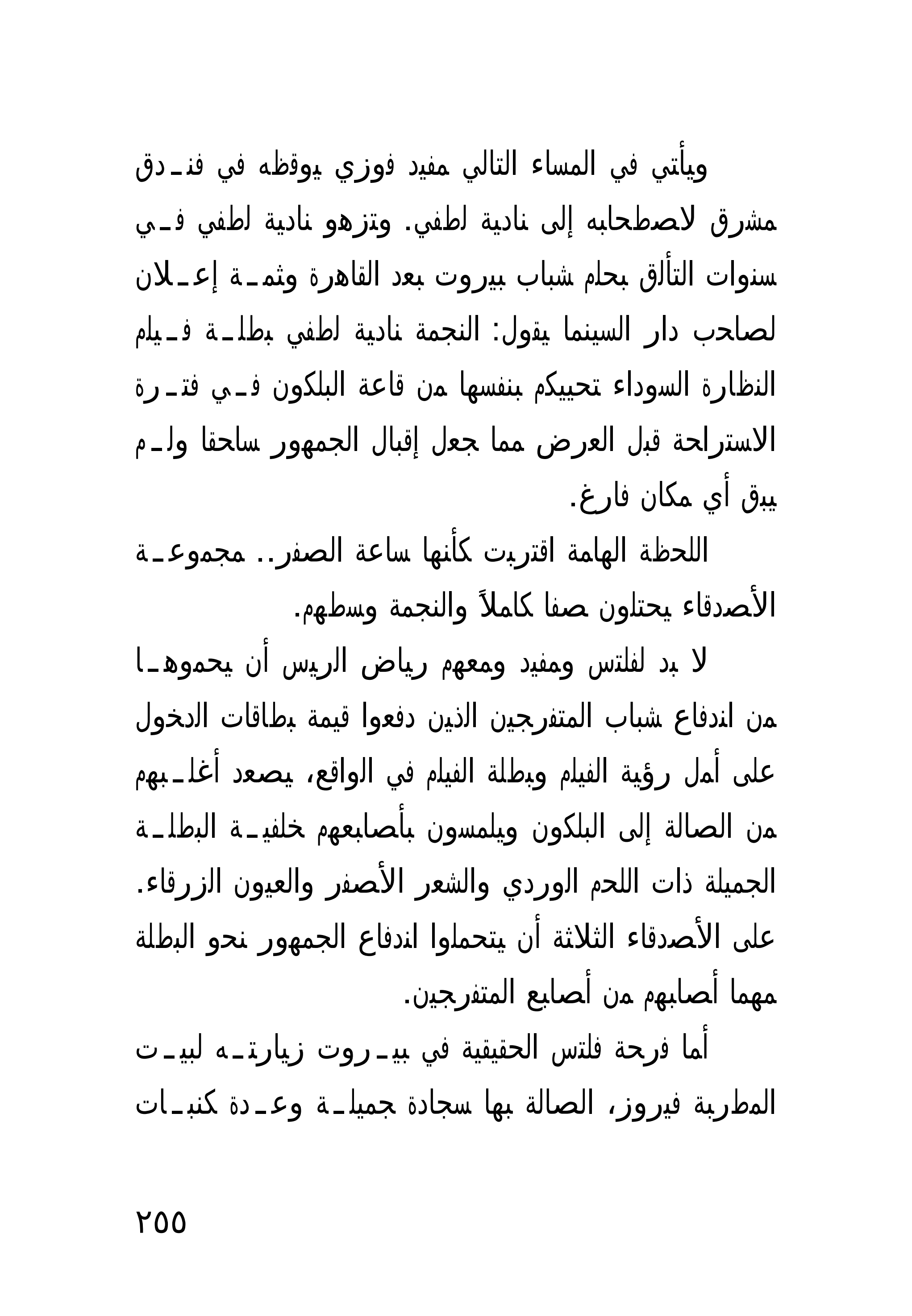
مفيد فوزي يعلمه السفر.. يأخذه إلى بيروت يرسم كل ما يراه في ساحة البرج ويختار سيدة فلسطينية ومعها طفلتها في ملابسهما المزدحمة.

ولكنه يرسم هذه الأيقونة الجديدة لأمومة وطن ممزق.

ويأتي إليه من الخلف صوت غليظ: إلـى المخفـر...
أنت ترسم المأساة في بيروت، إنها بلا مأساة. أنـت تشـوه سمعة بلادنا.. تعال معي إلى المخفر.

يصحو في الصباح على عطر الأولد سبايز يعطر بـه صديقه مفيد وجهه ويهتم أكثر بأنفه التي ربما كبـرت عـن الليلة السابقة ويضع المشط في خصلات شعره السوداء لتلمع وتمر أصابعه عشرات المرات وهو متطلع إلى المرآة يشـد أنفاس سيجارة أولى صباحية.

ولكن فلتس يهرب إلى سوق سرسق ليرسم حتى يمـل ويتعب فيجد سينما رخيصة بها أفلام رعـاة البقـر فيـدخل السينما بليرة واحدة. لا يجد مقعدا واحدا، ولكنه يتفرج واقفـا على الفيلم في سينما قديمة كل ما فيها محطم ومكسر.. وقفته بجوار نافذة الكاميرا التي يخرج منها الضوء الأصفر ورائحة المكان كما في صندوق قمامة. يخرج من الفيلم عائدا حـاملا كراسته ليجد ورقة في الفندق.. سنمر نأخذك انتظرنا. سيارة الصحفي هشام أبو ظهر ستحملنا إلى سهرة بألف ليلة وليلة. ونادية لطفي وغسان كنفاني ورياض الريس ونبيل أبو حمد. يتفرج الجميع على لوحات الروائي غسان كنفاني التشكيلية.



ويأتي في المساء التالي مفيد فوزي يوقظه في فنـدق مشرق لاصطحابه إلى نادية لطفي. وتزهو نادية لطفي فـي سنوات التألق بحلم شباب بيروت بعد القاهرة وثمـة إعـلان لصاحب دار السينما يقول: النجمة نادية لطفي بطلـة فـيلم النظارة السوداء تحييكم بنفسها من قاعة البلكون فـي فتـرة الاستراحة قبل العرض مما جعل إقبال الجمهور ساحقا ولـم يبق أي مكان فارغ.

اللحظة الهامة اقتربت كأنها ساعة الصفر.. مجموعـة الأصدقاء يحتلون صفا كاملاً والنجمة وسطهم.

لا بد لفلتس ومفيد ومعهم رياض الريس أن يحموهـا من اندفاع شباب المتفرجين الذين دفعوا قيمة بطاقات الدخول على أمل رؤية الفيلم وبطلة الفيلم في الواقع، يصعد أغلـبهم من الصالة إلى البلكون ويلمسون بأصابعهم خلفيـة البطلـة الجميلة ذات اللحم الوردي والشعر الأصفر والعيون الزرقاء. على الأصدقاء الثلاثة أن يتحملوا اندفاع الجمهور نحو البطلة مهما أصابهم من أصابع المتفرجين.

أما فرحة فلتس الحقيقية في بيـروت زيارتـه لبيـت المطربة فيروز، الصالة بها سجادة جميلـة وعـدة كنبـات

وأرائك وفوتيلات، والمطبخ في نهايتها تخرج منـه عطـور الشواء وقطع الكبيبات الساخنة، وفيروز تحمل الأكل بنفسها إلى الضيوف الكبار. تجلس فيروز على السـجادة وتسـتدير الجلسة أرضا ويهبط الكبار من مقاعدهم الـوثيرة لمشـاهدة الحلبة المشوقة النادرة، والأطباق والأكواب تتوزع في رشاقة وبينهم لوحة بيضاء. وريشة. رسام ومغنية والتجويـد فـي الظلال واستعادة تعاليم الأكاديمية وكلمات بيكار وتوجيهـات عبد العزيز درويش وسيريالية سمير رافع والجزار وصياغة كامل مصطفى وظلال حسن سليمان وقداسة التعبيـر عنـد صمويل الذي أصبح آدم. كل ذلك يمر بخاطره وهو يرسـم فيروز الهادئة أمامه وصوتها يعبر الأثير ويمر مـن نافـذة الحدائق الغناء، وريح الجبل زوبعة تدخل المكان فتحوله إلى حفل أكبر وليلة من ليالي العمر.

وتمر لحظات سعيدة يبربش بحاجبيه الثقيلين هشام أبو ظهر، وتتطرق كلمات الانبهار الأولى لزميله مفيـد فيـنجح الرسم وكأنه لا يرسمها، ولكنه يرسم النغم ويجيء الابن زياد على ركبة فلتس فرحا بلوحة الأم في يده.

في صباح جليدي فوق جبال لبنـان وأشـجار الأرز، تسحر عيني فلتس، سيدة فاضلة يراها لأول مرة، بها سـحر قديم في العينين وخيوط الشعر والبشرة الناعمة، ولكن كـل شيء يصبح ماضيا في حاضر خاطف تجلس بديعة مصابني وهي في السبعين أمام الرسام فلتس، يتذكر جليلـة وفاطمـة ونعيمة ورسمية وعطيـات وكـل مـوديلات الكليـة. الآن أصبحت هي الجالسة أمامه، ملكة الرقص الشرقي، تتحـدث كما إحدى نساء المسرح اليوناني، تقبل إحدى شفتيها بالشـفة الأخرى وتمصمص وتنفث دخان سـيجارة قصـيرة وتقـدم أطباق اللبنة والزعتر في حانوتها الجميل، تحت أقدام السيقان العالية وتحت جبل جبيل ونبع مـاء، كمـا بدايـة الخليقـة، وجسدها الشهير القديم يتجدد أمام فلتس وهو يرسمها ومفيـد يسألها ويكتب ويذكر لها حادثة مؤسفة لوفـاة ابـن صـديق عمرها بديع خيري الممثل الذي لمع فجأة، ثم انطفأ بسـرعة بعد أن اختطفه الموت المفاجئ عادل خيري. فتطرف منهـا دمعة على تجاعيد الخد.

ملكة غير متوجة أمامه في شعرها الفضي القصـير، وخدود تعبث، ولكنها ترتاح وسط عضلات الجمجمة الجميلة،

وحبتا خرز في العينين الزرقاوين وبقايا رموش وظلال حول إطار العين، وعوينات تنحيهما أحيانا فتزداد فـي حركتهـا جمالا وسحرا.

لا وسط، ولا تضاريس فـي النسـب، ولا انحنـاءات خطوط، ولا أقواس أرداف فالرداء الناعم يضم إطارا لكتلـة واحدة بداخلها نفس شـاعرة وروح فنانـة. تلـتقط بعينيهـا الساحرتين رغم مرور السنين خطوط واتجاه ريشـة فلـتس على الورق وكأنها تسمع لحنا من جوقتها، كل مـا حولهـا خميلة وكل ما بداخلها صفاء ودعة.

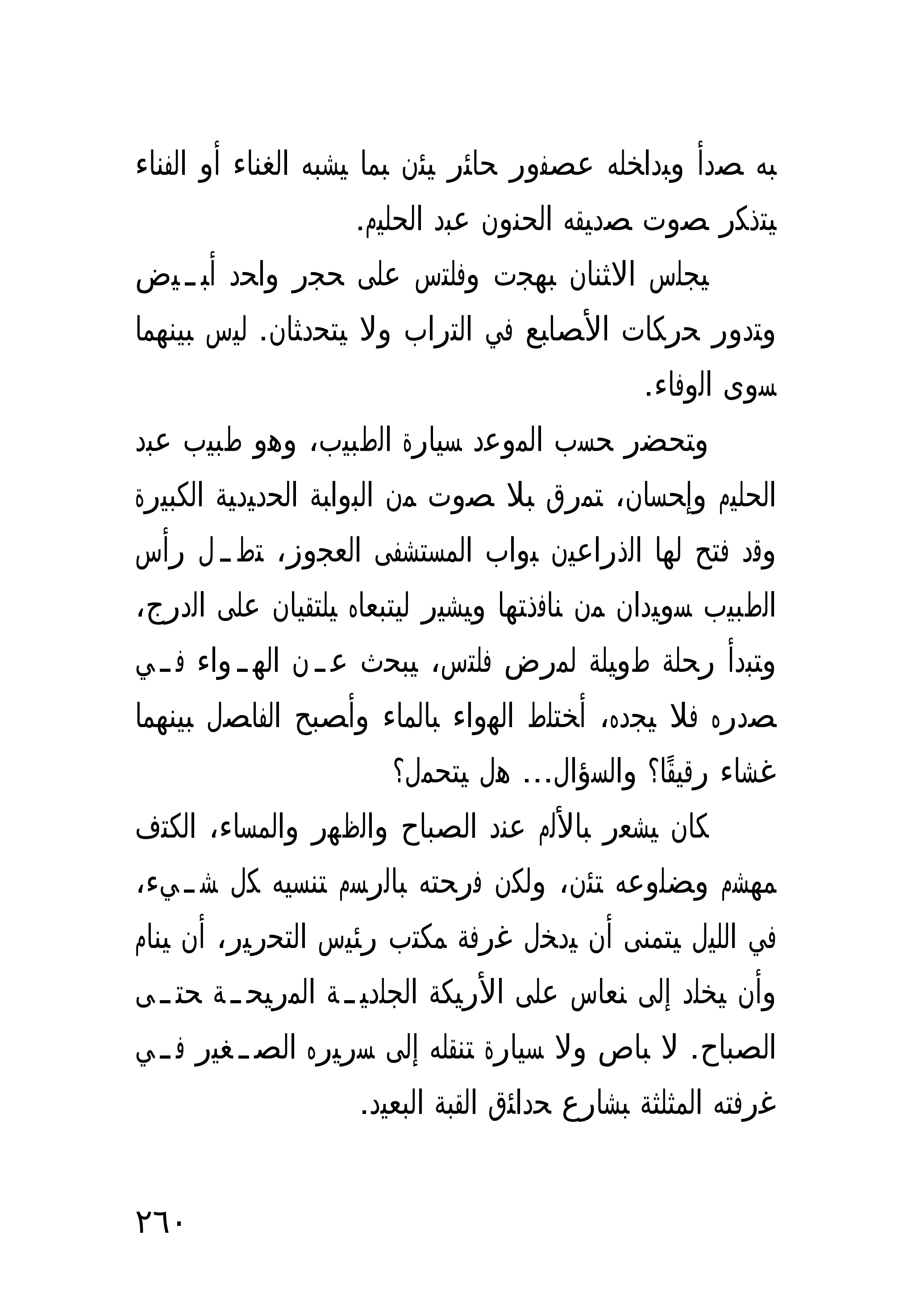
ودعتنا بحرارة كأنها جزء من مصر فقد شعرت مـن لهجتنا المصرية بأننا جئنا نحييها وهي في نهاية العمر.

الفصل السابع

ذات صباح شعر بألم في صدره. ينتظره صديق عمره الوفي جالسا على حجر أمام مستشفى كبيرة هائلة ذات معمار إسلامي وتحملها أعمدة هائلة من الخراسانة الحمـراء تطـل على النيل، على الجانب الآخر من الزمالك، الجزيرة التـي عرفت لقاء الصبا والشباب المبكر، هنا بدأت صداقتهما حول رسم لبهجت ودراسة فلتس لسمكة جافة مذهبة. البداية كانت على الجانب الآخر من النيل. جمعها حب الرسم الضاحك.

هذه المرة يجلس على حجر أمام مستشفى العجـوزة، يحرك بطرف جاف خطوطًا حزينة في التراب الرملي، لـم يضع منه الوقت ولم يتأخر، السابعة صباحا، مـع شـروق وصعود القرص الكبير الأصفر للصـباح، وكـأن الكـرتين تدوران في وقت واحد الكرة الأرضية وكرة الشمس، الكـرة الطينية الحجرية الجبلية المائية والكرة الهلامية النارية الدافئة الشمسية.

يقبل فلتس بلا وعي وبتلقائية وكأنه يريد أن ينسى أنين الليلة الماضية، وخز الإبر في ظهره ينشر الشوكات الطاعنة في رئتيه، والقفص الصدري حديد أخضر جف فجأة وأصبح


به صدأ وبداخله عصفور حائر يئن بما يشبه الغناء أو الفناء يتذكر صوت صديقه الحنون عبد الحليم.

يجلس الاثنان بهجت وفلتس على حجر واحد أبـيض وتدور حركات الأصابع في التراب ولا يتحدثان. ليس بينهما سوى الوفاء.

وتحضر حسب الموعد سيارة الطبيب، وهو طبيب عبد الحليم وإحسان، تمرق بلا صوت من البوابة الحديدية الكبيرة وقد فتح لها الذراعين بواب المستشفى العجوز، تطـل رأس الطبيب سويدان من نافذتها ويشير ليتبعاه يلتقيان على الدرج، وتبدأ رحلة طويلة لمرض فلتس، يبحث عـن الهـواء فـي صدره فلا يجده، أختلط الهواء بالماء وأصبح الفاصل بينهما غشاء رقيقًا؟ والسؤال... هل يتحمل؟

كان يشعر بالألم عند الصباح والظهر والمساء، الكتف مهشم وضلوعه تئن، ولكن فرحته بالرسم تنسيه كل شـيء، في الليل يتمنى أن يدخل غرفة مكتب رئيس التحرير، أن ينام وأن يخلد إلى نعاس على الأريكة الجلديـة المريحـة حتـى الصباح. لا باص ولا سيارة تنقله إلى سريره الصـغير فـي غرفته المثلثة بشارع حدائق القبة البعيد.

رئيس تحرير المجلة الجديدة ترك مفتاح مكتبه مع الساعي.

شخير الساعي يملأ الغرفة ضجيجا ولا يستطيع أن يوقظه. يعود ينكفئ على طاولة رسمه ويغلق الباب ويطفئ النور حتى مطلع النهار عندما يعثر عليه أبو العينين، فينتعش ويفيق على صينية القهوة التي جاء بها مبتسما عم سيد بوجهه المبطط وبشرته السمراء كما قفا رغيف الخبز اليومي وهو يتخيل الردة ذقنة النابتة بذرات الشعر الصغير التي لا يحلقها إلا نادرا.

وجه الطبيب المرح يتجهم فجأة وهو يلمس سماعته يستمع إلى آهات غريبة داخل الرئتين. النتيجة هي قراره بشفط هذه الكمية الكبيرة بأكبر إبرة رآها في حياته.

الماء أصفر في لون البول مرفوع في يد الطبيب سويدان داخل أنبوبة كبيرة في نهايتها إبرة اخترقت ظهره عند الرئة اليسرى من الخلف.

رشق الإبرة الطبيب النابغة الذي يعرف النقطة التي يدخل منها ليجذب الماء ويسحبه فلتس عاري الصدر نحيل ينحني قليلا، ومديحة سكرتيرة رئيس التحرير وصاحبة باب

«تحياتي إلى زوجك العزيز» تحكي عن أشياء أخرى حدثت في ذات اليوم المشمس. تنورتها الحمراء تزينها ورود عند الأطراف الصفراء، عطرها يسبق جمالها وصوتها أعلى من أفكارها. تذكره بلحظات بعد الظهر الممتعة التي تجمعهم في منتصف العمل اليومي في المجلة.

راهبتان، ملاكان يحضران في الصباح المبكر، الدائرة وسط الرأس، وبالعين بريق الروح وبصيص الأمل، وجهان من عصر النهضة، في ملابسهما خليط الأبيض الطاهر والأسود الكهنوتي، تحملان الأوعية المعدنية ووسطها أسطونات زجاجية صغيرة، تنخر في جلده وتصل إلى شرايين دمه، تحمل إكسير الحياة، تتكرر اللمسات كإكليل الشوك ثلاثمائة مرة من عقار الكورتيزون.

تدب الحياة في الجسد المسجى، ويمر الهواء إلى منمنمات الرئتين فتتنفسان من جديد.

يطل الليل كل مساء وينفض الأصدقاء.. تصبح وسادته هي الحنين وتحتها بقايا الكلمات الطيبة وابتسامات أعز الأهل والإخوة والأحباء.

يئن صدره بالعودة للرسم ويئن الجسم من وخز الإبر، تتخلل الوريد والشريان نفثات العقاقير، ويرقد فـي سـريره الصغير وحوله باقة من زهور بشرية، وباقات من الزهـور والورود، وتحيطه ستائر من نعاس طويل مدته ثلاثة شـهور بدون حركة.

ينتفض الإبداع لحظة عندما تخفـت وخـزات الألـم. وعندما يعجز عن الرسم يبكي في ظلام غرفته وحيدا ونهـر النيل شاهده.

تجف خطوط الكف وتصبح متوازيـة مـع الأصـابع ومطابقة للعظام النحيلة كأنها اليأس.. وتضيع معالم أيقونـة الأم والطفل.

يدخل صديقه الحنون الذي لم تنسه شـهرته صـديقه فلتس، حاملا معه علبة ضخمة من الفواكه الجلاسـيه مـن جروبي، يحنو عليه ويتمنى له الصحة وهو نفسه يعاني مـن مرض أشد خطورة، يجلس في صمت، وهو الـذي يسـمعه الملايين.

يقول له جميل ناصحا في حب: الآن تركك المـرض، ولكنه ربما يعود إليك مرة أخرى، أرجوك أن تعدني بعـدم

العودة إلى حياة السهر والرسم ليلا ونهارا بدون تغذية، لا بد أن تستقر عائليا، تزوج من أول فتاة تروق لك وتلتقي بها!.. لا بد لك من امرأة تعتني بك وهذا لن يتناقض مع إبداعك..

يخرج فلتس المريض المعافى من المستشفى بعد ثلاثة أشهر، زاد وزنه وأصبح بدينا بسبب الرعاية الطبية وكثـرة الحقن التي بلغ عددها أكثر من مئة كل شهر.

خرج فاقدا عقله الخاص به وأصبح عقل شـقيقه هـو الذي يسيطر عليه، وفاقدا عمله الصحفي فـي المجلـة إلـى حين، ولكن في يده علبة الفاكهة المسكرة هدية صديقه الوفي عبد الحليم.

***

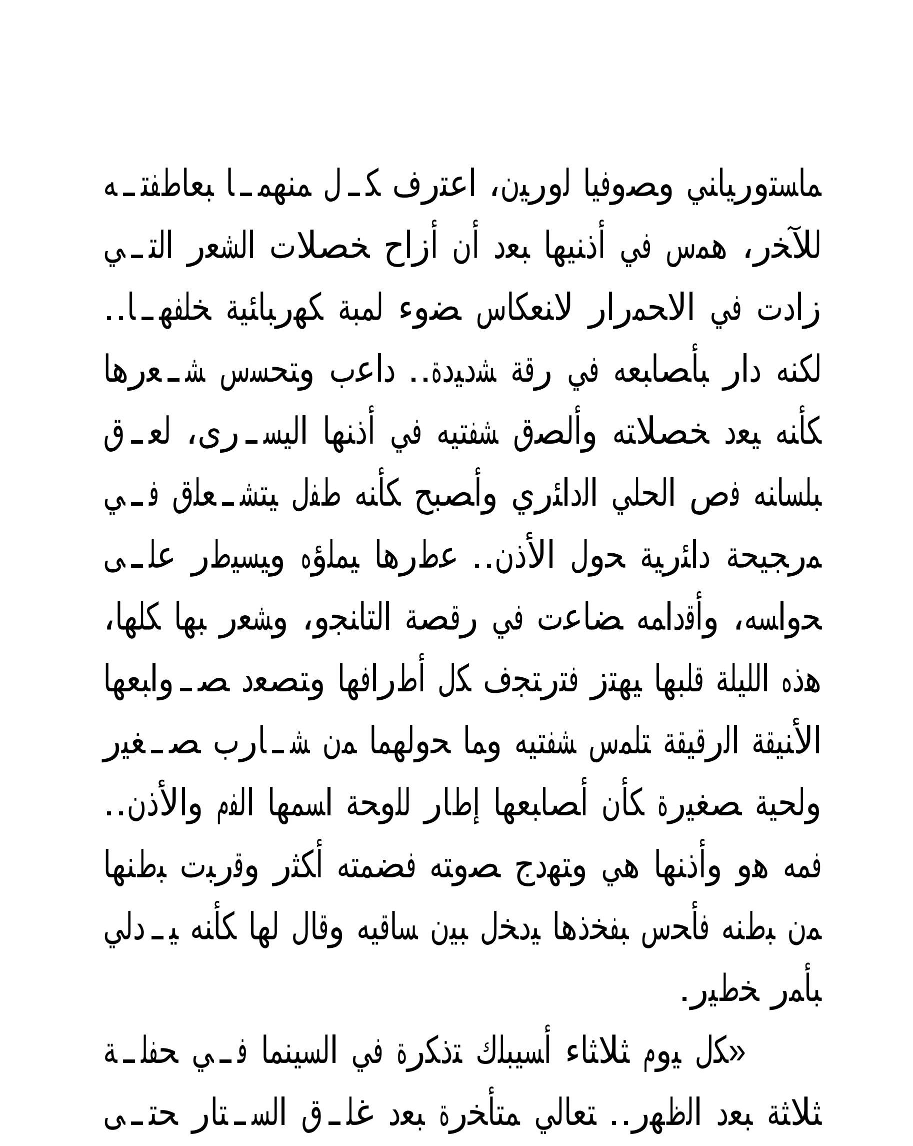
كأفروديت تسير كأنها تقفز، يطير رداؤها حول خصر نحيل، وتخرج من فتحته عنق زرافة صغيرة فـي نهايتهـا رأس مثل حبة الكرز، مستدير ليس بها سوى شفاه صـغيرة تستدير حول أسنان ناصعة في حركة دائرية تتسـع أحيانـا للنشوة في لحظة صفاء، ولكنها تبقى في هذه الحالة وشفتاها البارزتان تستندان على قوس أسنانها اللامعة مبللة باللعاب.

أحبت فلتس في صمت ولم تبح له بشـيء إلا عنـدما رقص معها في عيد الميلاد في منزل حنا الزوج السعيد مـع نبيلة بنت القس.

دارت أسطوانات الموسيقى الحديثة الفـوكس تـروت «الآن أو أبدا»... «ريلاكس ريلاكس ريلاكس» ..، ثم تانجو سيناترا «غرباء وسط الليل» ضغط علـى العنـق الرفيـق الرشيق فالتوت في استسلام فعانقها أكثر فبكت بدموع بللـت قميصه عند الكتف. توقفت الرقصة وسكتت الموسيقى وهجم الجميع على تورتة العيد واختفت أفروديت، راح يبحث عنها، وجد الحمام مغلقًا فوقف أمامه يترقب.

خرجت تجفف دموعها وتنظم خصلات شعرها الـذي يبرق بلون العسل، أرادت أن تختفي منه في حجـرة النـوم فأسرع إليها، واقترب منها وبداخله حمـى اللقـاء والـتحم جسداهما وأصبحت الشفاه الأربعة وكأنها شفة واحـدة وفـم واحد.

وأفلتت منه فعاد يلحق بها باحثا عن موسيقى رقـص جديدة لمحمد عبد الوهاب «القمح الليلة الليلـة يـوم عيـده، يا رب وتبارك وتزيده»، ثم رقصة هادئة تحتاج إلى اثنـين،



ماستورياني وصوفيا لورين، اعترف كل منهما بعاطفته للآخر، همس في أذنيها بعد أن أزاح خصلات الشعر التي زادت في الاحمرار لانعكاس ضوء لمبة كهربائية خلفها.. لكنه دار بأصابعه في رقة شديدة.. داعب وتحسس شعرها كأنه يعد خصلاته وألصق شفتيه في أذنها اليسرى، لعق بلسانه فص الحلي الدائري وأصبح كأنه طفل يتشعلق في مرجيحة دائرية حول الأذن.. عطرها يملؤه ويسيطر على حواسه، وأقدامه ضاعت في رقصة التانجو، وشعر بها كلها، هذه الليلة قلبها يهتز فترتجف كل أطرافها وتصعد صوابعها الأنيقة الرقيقة تلمس شفتيه وما حولهما من شارب صغير ولحية صغيرة كأن أصابعها إطار للوحة اسمها الفم والأذن.. فمه هو وأذنها هي وتهدج صوته فضمته أكثر وقربت بطنها من بطنه فأحس بفخذها يدخل بين ساقيه وقال لها كأنه يدلي بأمر خطير.

«كل يوم ثلاثاء أسيبلك تذكرة في السينما في حفلة ثلاثة بعد الظهر.. تعالي متأخرة بعد غلق الستار حتى لا يراك أحد سيأخذك منظم القاعة إلى مكانك بجواري وسنعيش لحظة جميلة في ظلام الفيلم.. لا يهم أي فيلم».

عندما تدور تنورتها مع موسيقى الروك والرول تصبح حلما في ليلة صيف ويصغر رأسها ويصبح كـرة صـغيرة على قمة قوام رشيق أسمر وساقين نهاوند وكـأن حركـات قدميها تحت أقواس التنورة تمهد وتتنبأ بأنغام البيتاز والرولنج ستونز القادمة.

الحب الأول في بريق عينيها يلتحم بالأيدي والأصابع قبل الحديث لأن الحديث غير كائن، فلا يوجـد مـا يقـال، ولا يقال ما يأتي على البال، والقلب مشحون، ولكنه مختبـئ كما في صالة السينما، النور خارج السينما، الشمس تسـتطع وتحرق الجبهة منذ لحظة الفراق على الباب، والخوف عيون تراقب.

لا يعرف كيف يرسمها فهو لا يراهـا أبـدا. ثـلاث سنوات لا يعرف شكلها، لم يتأمل جمالها، يراه بأصابعه فـي صالة السينما المظلمة بعد الاستراحة، وأحيانا بعد بداية الفيلم وهي على أية حال تشبه نهايته، لا فرق ولا يهم أن يسـقط البطل مضرجا في دمائه المزيفة ولا أن تنتحر البطلة ولا أن ينتصر جاري كوبر على الأشرار، لأن كل من فـي الفـيلم أشرار يزعجون الحب الأول.

كيف ستأتي هذا المساء. أي رداء سترتديه وأية تسريحة. هل ستحمل السوتيان هذه المرة تحت البلوزة الديكولتيه. هل عدلت من وضع عظمة الترقوة بعد العنق الطويل ليريح فلتس عليها رأسه.

جاء عش الحب في بداية ربيع العمر، لكنه عش له قمر مربع وأحيانا سكوب، قمر ملون بشتى الألوان الجذابة وظهور شخصيات محبوبة لهن خدود الورد وأعناق الغزلان وأرداف الزراف.. قمر يتحول في أحيان أخرى إلى نصف بدر مع فيلم متوسط وإلى هلال مع فيلم جاد وإلى محاق مع رعاة البقر.

الحصان يصيح على هضاب هملايا كاليفورنيا والبقر يضيع وهو يجري وسط الجبال والجبال. والسيقان العملاقة مغلفة بأكياس من جلود الحيوانات وبارود المسدسات تحت أذرع الرجال والطلقات تهوي في كل تجاه وهو راقد. فلتس ينام في عشه اللذيذ يزغرد له الكاوبوي برصاصه الطائش، فينام في عسل كما في قريته التي اشتهرت بعيدان قصب السكر الذي يتحول إلى عسل.

ثديان مفتوحان لشفتيه، التجويف بينهما هائل كأنهمـا كرتان من البالون الممتلئ وبينهما حفرة لها تضاريس عظام صدر هش وعلى شفاها نتـوءات صـغيرة يعرفهـا جيـدا وعلامات ونقاط صغيرة من النمش الأحمـر وبقـع بلـون العسل.

هذا هو حاله في عش الحب داخل قاعة السـينما مـن ثلاثة إلى ستة. وهو لا يصدق ما يحدث ولا يرى ما لا يرى وليس هناك أي برهان على الحـب سـوى القمـر المربـع أو المستطيل أو السكوب.

يتخيل نفسه بعد عامين من لقاءات الظلام، لو شـاءت الصدفة أن يلقاها في الطريق سيرتبك كأنه لا يعرفها.

العش على شجرة في ليـل دامـس أزرق، رغـم أن الساعة هي الثالثة والنصف بعد الظهر، والموقع هو أعلـى أطراف البلكون. الساق والفخذ لا يعرفهما، الكنيسـة تتابعـه كأنه محظور. في عقله قيود تربيته القديمة. بين فخذيها سـر لا يعترف به إلا بموافقة الكنيسة، وبركة القـس، لا يفـرق الماء بينكما.. التصق بها حتى الموت.

في حنينها فيض لا ينضب ولا يتوقف، وعلى ثوبهـا خط واحد يصنع نسيجه، وبين نهديها مكـان واحـد لـرأس الحبيب، وفوق شعرها ريح رقيقة تهفهف معلنة ثورة الحـب والجسد.

بشرتها لها صوت يتكلم مع بشرته وأنامله الصـغيرة التي يرسم بها.. تقول له: عنـدما تلمسـني أشـعر بأنـك ترسمني.. يرسم اتجاه كل شريان ووريد تحت هذه البشرة.

يشعل الضوء فجأة شيطان رهيب في شـكل حـارس (ريفولي) يضرب الصخب بالصخب والملمس بعنق الضوء، يصرخ فيهما وينقض عليهما بوحشية ويضع إصبعه داخـل العين الحالمة ويفتح عين فلتس الناعسة.

خرجا من الصالة وقد هرب الدم من الشرايين، وافترقا عند الباب في مواجهة شمس قبل الغروب ولم يعـد بينهمـا حديث ولا حوار ولا لحظة وداع بل فراق على أسى. فـراق على انتظار.

تنتهي القصة وتصبح بقعتي ضوء وسط ظلام السينما.

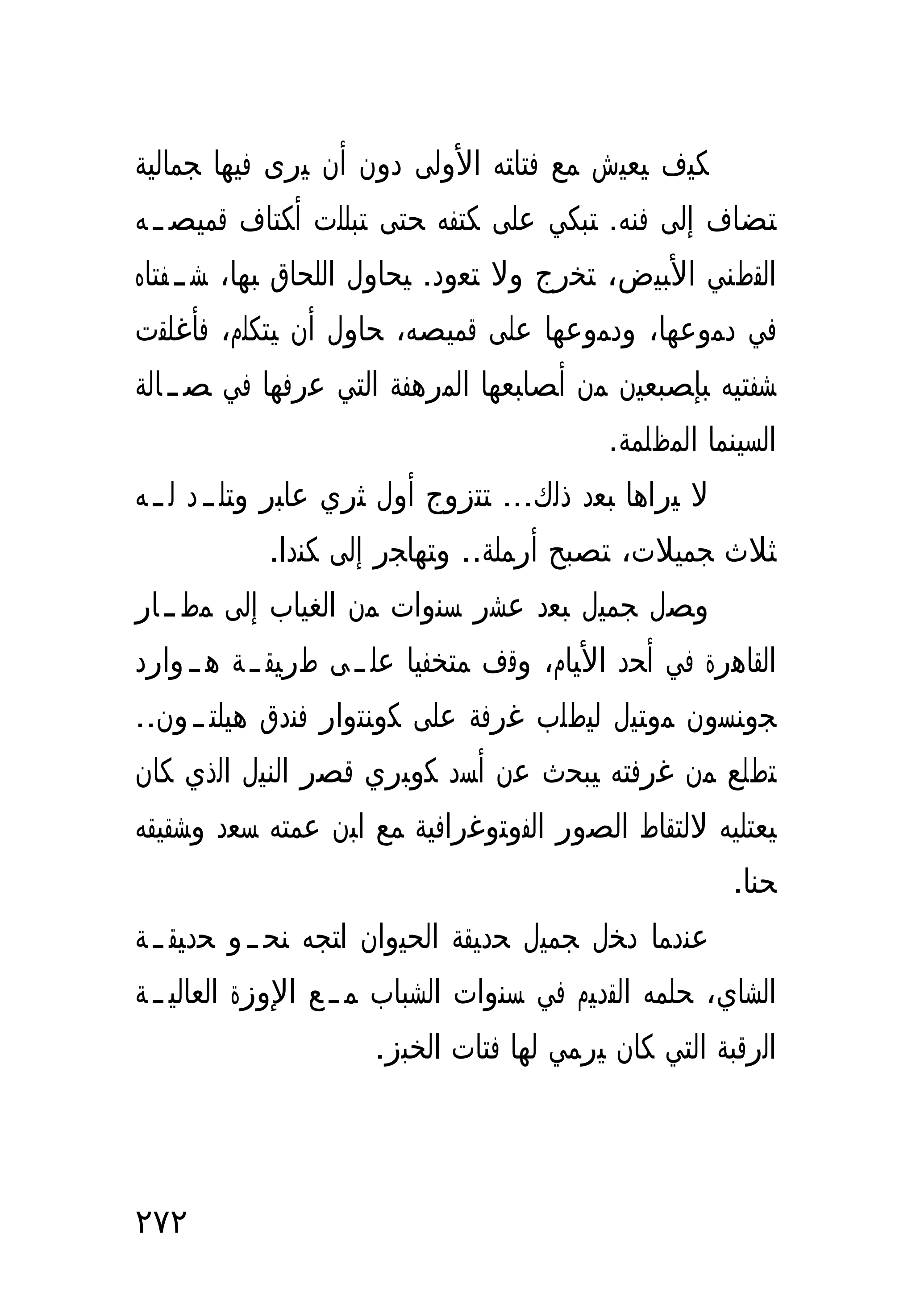
فلتس يحتار أمام هذا الوجه الأسمر المائل إلى البرونز لفتاة صغيرة القد ممتلئة تضحك كثيرا فيسقط من بـين لثـة

أسنانها بعض الرذاذ وأحيانا يختلط اللعاب فيما بين الأسـنان الناصعة البياض. ولفت نظره أكثر انحناءة الأنف إلى أعلـى كان لها طرفا غريبا قبل انسداله مع أرنبتي الأنـف.. فـي صوتها نوع من رنة فتيات الجيشا لا تعرف النكتة، ولكنهـا تبتسم دائما كأنها تشرح وتعرض صفي الأسنان، فالشـفتين تنحسر عنهما في كل مرة تفتحهما، والخطان الأسودان تحت العينين كأنهما ذيلا فهد أسود كما في الرسوم الفرعونية.

لقد انتقل من إلهة الحب عند اليونان أفروديـت إلـى إيزيس أو نيتوكريس إلهة الفراعنة. كيف يرسمها؟ إنها تحمل سر خطوط التراث المصري القديم، فالبروفيـل هـو نفسـه الواجهة! في العينين وتركيب الخدين، وتميز الخط الرأسـي الذي يقسم الوجه إلى نصفين، صعب الوصول إليه.

أفروديت لا تلهمه. لم يتطلع إليها خلال ثلاث سـنوات من اللقاء.

أما مع نيتوكريس فقد سبقته خطوط الرسـم: عيناهـا وحواجبها وأسود الشعر وارتفاع طـرف الأنـف والشـفاه المحددة بتأكيد غير عادي.



كيف يعيش مع فتاته الأولى دون أن يرى فيها جمالية تضاف إلى فنه. تبكي على كتفه حتى تبللت أكتاف قميصـه القطني الأبيض، تخرج ولا تعود. يحاول اللحاق بها، شـفتاه في دموعها، ودموعها على قميصه، حاول أن يتكلم، فأغلقت شفتيه بإصبعين من أصابعها المرهفة التي عرفها في صـالة السينما المظلمة.

لا يراها بعد ذلك... تتزوج أول ثري عابر وتلـد لـه ثلاث جميلات، تصبح أرملة.. وتهاجر إلى كندا.

وصل جميل بعد عشر سنوات من الغياب إلى مطـار القاهرة في أحد الأيام، وقف متخفيا علـى طريقـة هـوارد جونسون موتيل ليطلب غرفة على كونتوار فندق هيلتـون.. تطلع من غرفته يبحث عن أسد كوبري قصر النيل الذي كان يعتليه لالتقاط الصور الفوتوغرافية مع ابن عمته سعد وشقيقه حنا.

عندما دخل جميل حديقة الحيوان اتجه نحـو حديقـة الشاي، حلمه القديم في سنوات الشباب مـع الإوزة العاليـة الرقبة التي كان يرمي لها فتات الخبز.

وجد حديقة الشاي وشرب الشاي ووجد الجزيرة، ولكنه لم يجد الإوزة وقال له نادل الشاي: إنها ماتت.

ولم ينتبه أنه يسير على أرض قاع البحيرة الجافة.

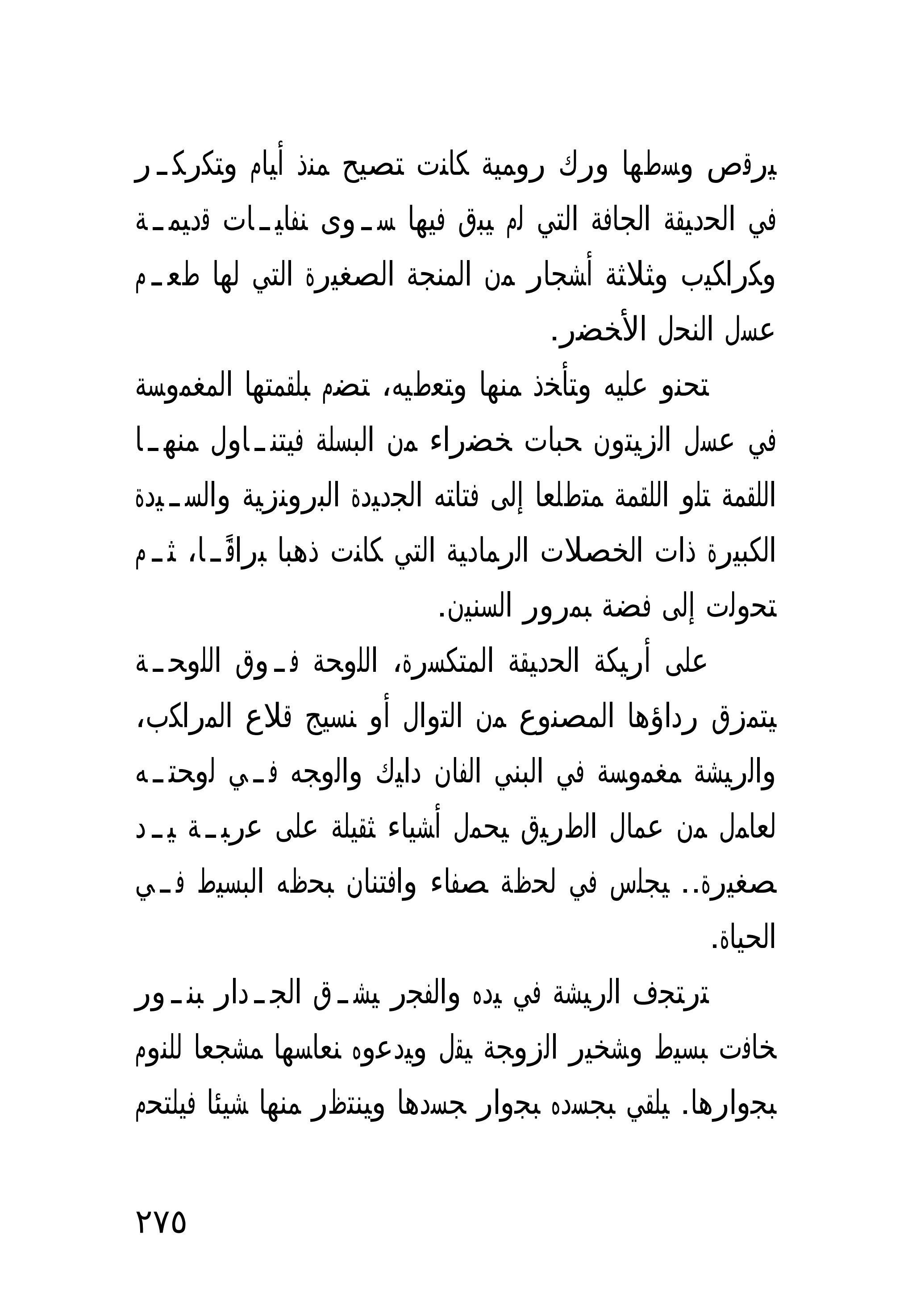
***

تتسمر أقدام فلتس عندما يراها للوهلة الأولى قادمة إلى فيلا الهرم حيث مرسم صمويل وممدوح وفي صحبتها اثنتان: الأولى فارعة الطول، هيفاء واسمها رجاء. في وجهها معرفة وفطنة غير عاديتين ورأسها قطعة من رخام (رودان) تمط الرقبة في أناقة وكبرياء ويستدير الكتفان العاريان بحرية الصيف، تود أن تلمسهما من شدة انسيابهما، لها عنق عند الرسغ حيث ترتدي ساعة صغيرة جدا، ويتعلق رداؤها بالكتفين وبعظمتي الترقوة البيضاوين كما لبن الحليب في ريف المنوفية، لا ارتفاع في الصدر، ولا نهدين بارزين، ولكن احتشام في الملبس ووقار، حتى تنورتها الواسعة تنتهي أطرافها قبل بطن الساق التي تفاجئ المشاهد بدوران واختلاف عن نسب الجسم ويصبح السر مجهولا كيف تتواصل سمنة الساقين مع نحول بقية الجسم.

والثانية، فاطمة التي تموء كقطة، صوتها دافئ وشفتاها بارزتان، حينما تمطهما يبدو وجهها كقناع أفريقي، مصـري الملامح، أبيض اللون، تلوك الكلمات بنعومة تضفي عليهـا سحرا من نوع خاص وأنوثة غير عاديـة عنـدما تتحـدث تتهادى ابتسامتها وتعطيك معنى واحدا شاملا هـو الصـفاء فتضطر غالبا لمداعبتها بقفشة فتنكمش بشرة خدودها حـول العينين اللتين تضيعان تحت الحاجبين وتعود ضحكتها إلـى الاطمئنان ويفرح فلتس بنجاحه في مداعبتها.

وهي، نيتو كريس السمراء، تخرج معه لشراء مثلجات في حر قائظ فيشعران بتقارب وتشـابه فيتواعـدان لسـماع الموسيقى الكلاسيكية في مكتبة متحف الفن الحديث.

فلتس يبحث عن أمه التي فقدها مبكرا، إنه يراها الآن ومعها ابنتها نيتوكريس، تحمل ذات الملامح السمراء وتوهان العينين وسوادهما تحت الجفن، وحاجباها فوقهما في خطوط سوداء واضحة، إنه يستطيع أن يرسم أمه الجديدة وابنتهـا، يطلب أن تجلس أمامه كموديل، وهي مـا بـين مشـوارها القصير الممتع من أدغال المطبخ إلى شرفة الحديقة حاملة له طبقا من حبات البسلة السابحة في بحيرة الطماطم الذهبيـة،

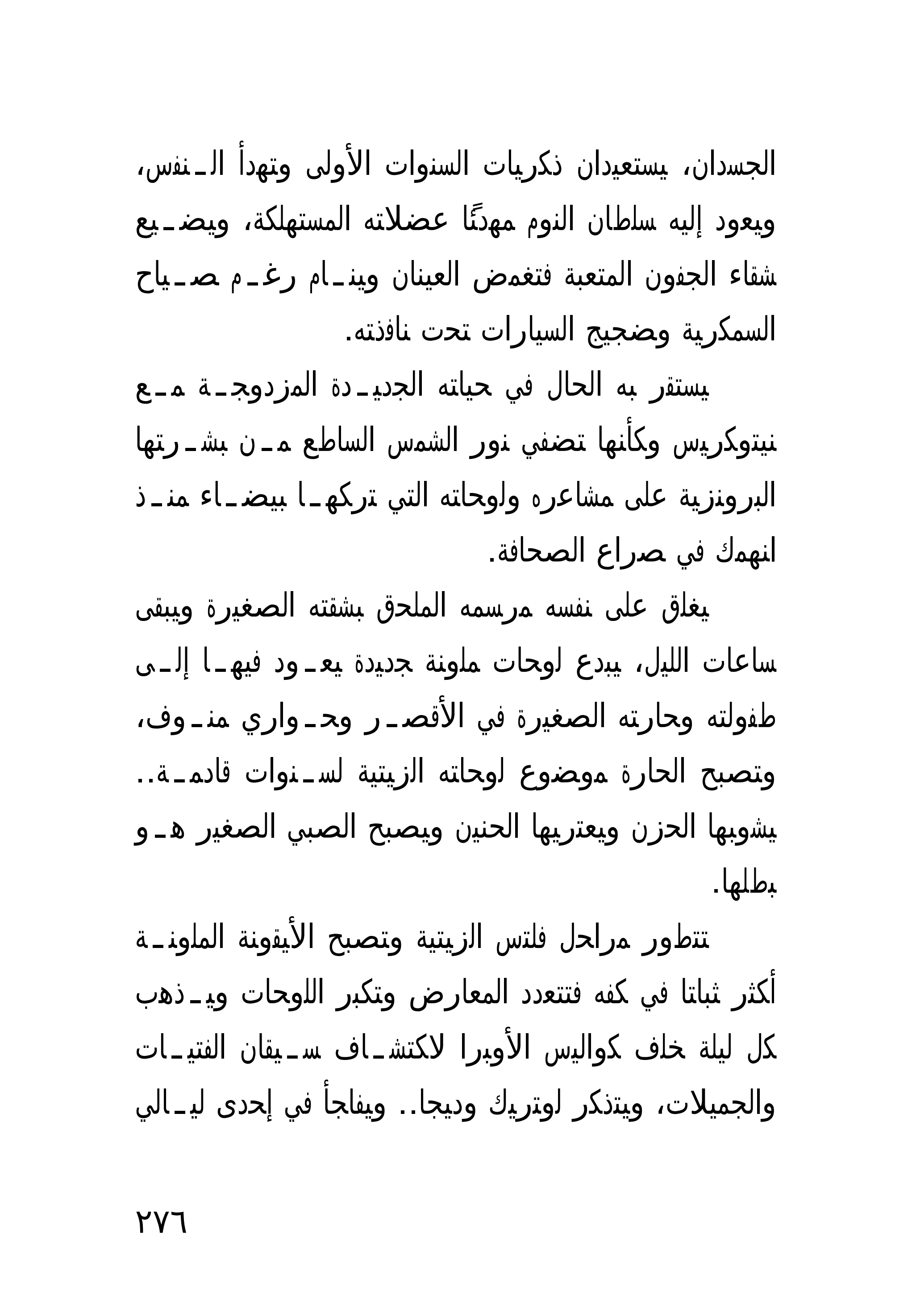


يرقص وسطها ورك رومية كانت تصيح منذ أيام وتكركـر في الحديقة الجافة التي لم يبق فيها سـوى نفايـات قديمـة وكراكيب وثلاثة أشجار من المنجة الصغيرة التي لها طعـم عسل النحل الأخضر.

تحنو عليه وتأخذ منها وتعطيه، تضم بلقمتها المغموسة في عسل الزيتون حبات خضراء من البسلة فيتنـاول منهـا اللقمة تلو اللقمة متطلعا إلى فتاته الجديدة البرونزية والسـيدة الكبيرة ذات الخصلات الرمادية التي كانت ذهبا براقًـا، ثـم تحولت إلى فضة بمرور السنين.

على أريكة الحديقة المتكسرة، اللوحة فـوق اللوحـة يتمزق رداؤها المصنوع من التوال أو نسيج قلاع المراكب، والريشة مغموسة في البني الفان دايك والوجه فـي لوحتـه لعامل من عمال الطريق يحمل أشياء ثقيلة على عربـة يـد صغيرة.. يجلس في لحظة صفاء وافتنان بحظه البسيط فـي الحياة.

ترتجف الريشة في يده والفجر يشـق الجـدار بنـور خافت بسيط وشخير الزوجة يقل ويدعوه نعاسها مشجعا للنوم بجوارها. يلقي بجسده بجوار جسدها وينتظر منها شيئا فيلتحم



الجسدان، يستعيدان ذكريات السنوات الأولى وتهدأ الـنفس، ويعود إليه سلطان النوم مهدئًا عضلاته المستهلكة، ويضـيع شقاء الجفون المتعبة فتغمض العينان وينـام رغـم صـياح السمكرية وضجيج السيارات تحت نافذته.

يستقر به الحال في حياته الجديـدة المزدوجـة مـع نيتوكريس وكأنها تضفي نور الشمس الساطع مـن بشـرتها البرونزية على مشاعره ولوحاته التي تركهـا بيضـاء منـذ انهمك في صراع الصحافة.

يغلق على نفسه مرسمه الملحق بشقته الصغيرة ويبقى ساعات الليل، يبدع لوحات ملونة جديدة يعـود فيهـا إلـى طفولته وحارته الصغيرة في الأقصـر وحـواري منـوف، وتصبح الحارة موضوع لوحاته الزيتية لسـنوات قادمـة.. يشوبها الحزن ويعتريها الحنين ويصبح الصبي الصغير هـو بطلها.

تتطور مراحل فلتس الزيتية وتصبح الأيقونة الملونـة أكثر ثباتا في كفه فتتعدد المعارض وتكبر اللوحات ويـذهب كل ليلة خلف كواليس الأوبرا لاكتشـاف سـيقان الفتيـات والجميلات، ويتذكر لوتريك وديجا.. ويفاجأ في إحدى ليـالي

كواليس الأوبرا بخبر وفاة أهم رسام اسكتش للباليـه، أدهـم وانلي السكندري، فيرسم أكثر وأكثر حتى نهاية الليل.

ويوقظ نيتوكريس عند عودته إلى البيت ومعه زكيبـة بها مئات الاسكتشات السريعة للبالية وهو يصـرخ.. شـايفة رسمت إيه!..

ويعرض له الفنان أحمد فؤاد سليم في أهم مركز ثقافي في ذلك الوقت، المركز الثقافي التشيكي، ويحضـر وزيـر الثقافة الافتتاح وتسطع الأضواء حوله ويرتاح باله.

الرسم الصحفي يحتاج إلى حفظ الملامـح وتكرارهـا وعدم الاهتمام بالخلفية لأنه يتبع إخـراج وشـكل الصـفحة المكتوبة حيث يشترك الخط المرسوم مع الخـط المكتـوب، اللوحة مع المقال. المطلوب ألا يضع لرسمه شكلاً كاملاً في إطار.. انعكس هذا التضاد على عمله في اللوحـة الزيتيـة فأصبح يرسم الأشخاص دون العناية بالخلفية، ثم بـدأ يفقـد عفويته الأولى وينسى السر الكائن داخل روح العمل بحكـم سرعة المطبعة وضجيجها والبحث عن الخبر اليومي الساخن وليس العمل الباقي.

يذهب فلتس إلى قاعات عرض فناني التفرغ في قصر المانسترلي ويصفق في قلبه لأعمالهم. ويفوز زميلـه حسـن سليمان بجائزة مسابقة لوحات الريف وعبد الهادي الجـزار بجائزة الثورة.

يتطلع بطموح إلى أوروبا، لا بد أن يسـافر لمشـاهدة روائع الفن الأصلية، كتب إلى رئيس تحريره أحمـد بهـاء الدين (هل تسمح لي المجلة بالسفر لرؤية الأعمال الخالدة).. لقد تعب من رؤيتها على صفحات الكتب التي كان يستعيرها من المكتبة ويعيدها مهلهلة فيعاقبه أمينها.

*

يلتقي بأحد أقاربها الناقد الكاتب توفيق حنا ويضـرب معه موعدا في مقهى علي بابا بميدان التحرير، تهتز كلماتـه كمقدمة للحديث الهام. إنه قرار بطلب يـد شـقيقة زوجتـه، وأكثر ما يحلق في ذاكرته وهو يتحـدث عنهـا، ملامحهـا السمراء وخطوط وجهها الحادة وعيونها التائهة.

يذهب فلتس إلى أبيه عبد المسيح في شبرا ليصحبه إلى منزل الزيتون في طومانبوي ويحضر الأخ جميل من أمريكا ومعه قس بروتستني لإجراء الاحتفالات الرسـمية لسـهرة

الزفاف... ويأتي الشقيق حنا وزوجته نبيلة بنت القس الآخر الذي يحضر أيضا ويصلي الجميع صلاة مباركة.

يبدأ القس في تلاوة مراسم الزفاف، ثم يسـتغرق فـي التلاوة وينتقل من آية إلى أخرى فيتقدم إليه الشـقيق جميـل ويقول له بحزم وبأدب:

- كفاية كده.

فيتوقف.

تخرج العروس السمراء في أرديتهـا البيضـاء وقـد غسلوا سمرتها بالدقيق والأصباغ لتكون عروسا بيضاء كعادة أهل الريف. ينقبض قلب فلتس وكأنه لا يعرفها فهو اختارها لسمرتها ولبشرتها الطبيعية عندما تسطع أشعة الشمس علـى وجهها ورقبتها وذراعيها السمراوين فتصـبح كمـا تماثيـل المصري القديم المكسوة بالذهب.

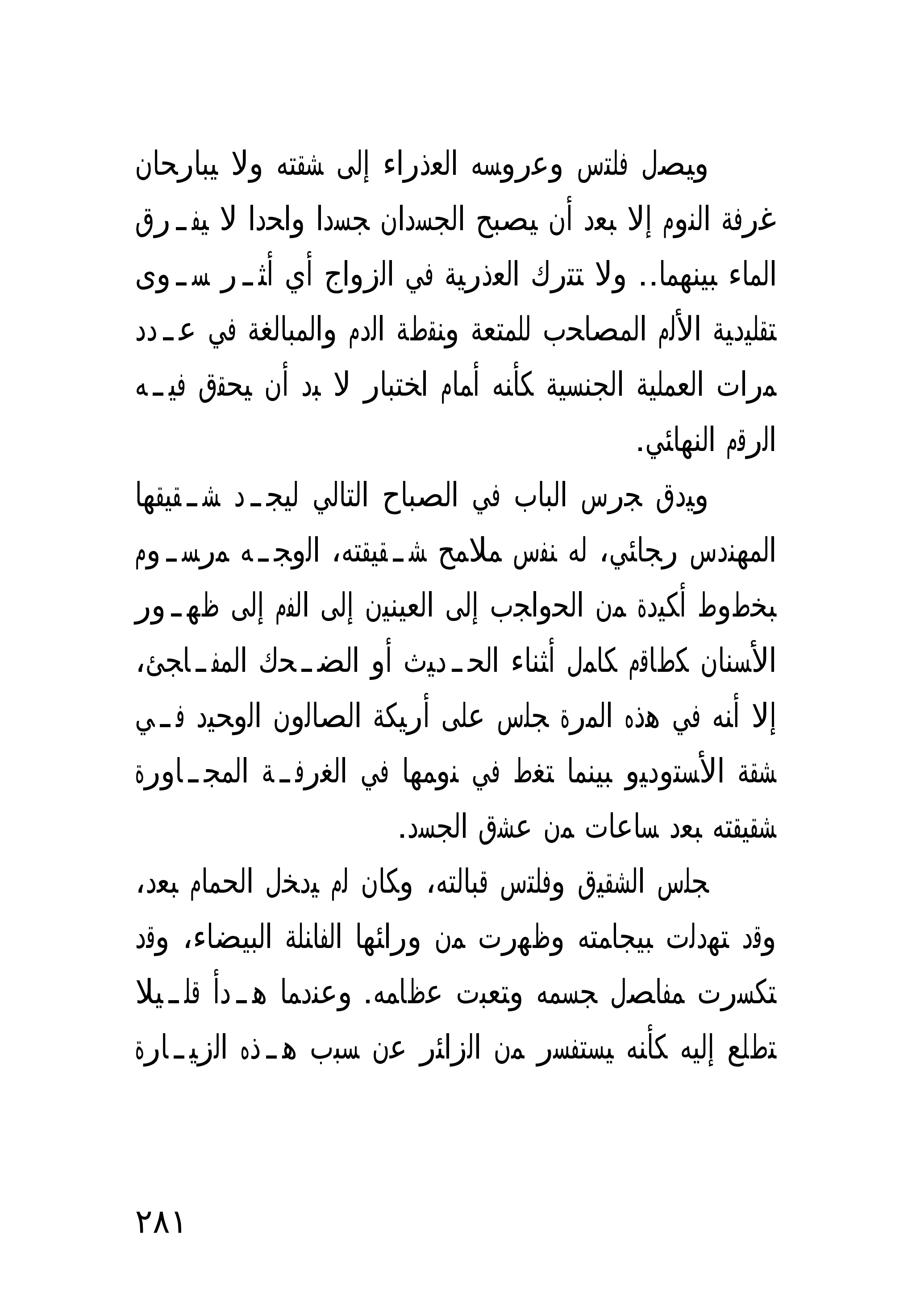
أزاح عبد المسيح عوينات زجاج نظارته وبحلق فـي وجهها وقد جاءته فرصة الجلوس بجوارها وسـط تهلـيلات العائلة.

يقول له والده عبد المسيح: أهم حاجة يا بني أن تكون صحتها عال.. وأسنانها بيضاء.

امتلأت الحديقة بالأقارب وبالساندويتشات الرخيصة وزجاجات الكحول في غرفة الصالون المغلقة طول العام. فلتس يرتدي ربطة عنق، ولكن قميصه الأبيض مفتعل، تخرج منه ياقته وتتخبط في ربطة العنق فيصلحها من حين إلى حين بلا فائدة. فينيس شقيقة العروس الأقرب سنا إليها عالمة في الكيمياء ترتدي كما العروس وتبتسم كثيرا ويصبح لها سحر مميز بغمزاتها ومداعباتها وكأنها النسخة المطابقة للعروس مع الفارق الوحيد وهو استبدال السمرة بالبشرة الوردية.

عبثت أصابع الشقيقات الثلاث على جهاز البيانو القديم الوحيد في غرفة الصالون، ولعبت إيزيس الأخت الكبرى ما يشبه لحنًا لشوبان.. فهمس الأب عبد المسيح في أذن ابنه العريس.. (مبروك يا ابني دول ناس طيبين وعندهم بيانو كمان).

ويخرج ليلتها العريس فلتس مع عروسه نيتوكريس إلى شقته الأستوديو في حي معروف، وتبكي الشقيقة الكبرى زوجة توفيق بدموع غزيرة، دموع الفرح والفراق لخروج شقيقها من بيت الأسرة.



ويصل فلتس وعروسه العذراء إلى شقته ولا يبارحان غرفة النوم إلا بعد أن يصبح الجسدان جسدا واحدا لا يفـرق الماء بينهما.. ولا تترك العذرية في الزواج أي أثـر سـوى تقليدية الألم المصاحب للمتعة ونقطة الدم والمبالغة في عـدد مرات العملية الجنسية كأنه أمام اختبار لا بد أن يحقق فيـه الرقم النهائي.

ويدق جرس الباب في الصباح التالي ليجـد شـقيقها المهندس رجائي، له نفس ملامح شـقيقته، الوجـه مرسـوم بخطوط أكيدة من الحواجب إلى العينين إلى الفم إلى ظهـور الأسنان كطاقم كامل أثناء الحـديث أو الضـحك المفـاجئ، إلا أنه في هذه المرة جلس على أريكة الصالون الوحيد فـي شقة الأستوديو بينما تغط في نومها في الغرفـة المجـاورة شقيقته بعد ساعات من عشق الجسد.

جلس الشقيق وفلتس قبالته، وكان لم يدخل الحمام بعد، وقد تهدلت بيجامته وظهرت من ورائها الفانلة البيضاء، وقد تكسرت مفاصل جسمه وتعبت عظامه. وعندما هـدأ قلـيلا تطلع إليه كأنه يستفسر من الزائر عن سبب هـذه الزيـارة

المفاجئة بدون ترتيب.. إلا أن الشقيق انحنى برأسه وأخـرج منديلا من جيبه وراح يبكي وهو يقول لفلتس.

- أختي بقت مراتك.. بس دي أختي كمـان.. ما أقدرش انفصل عنها.

احتار فلتس بعد المفاجأة وحاول أن يضحكه، ولكنـه لاحظ أنه يتكلم بطريقة درامية جديدة. فاكتفى بنكتة قالها في سره إن المجتمع المصري والقبطي بشكل خـاص يفـرض على المتزوج أن يتزوج شقيقها أيضا! ولكن المشكلة أنه هو وزوجته يجمعهما الفن، ولكن لا يوجـد أي شـيء يجمعـه بشقيق العروس.

مع تأملاته في حياته الزوجية الجديـدة وقـد أصـبح عضوا في أسرة مرتبطة بالتقاليد وبلقاءات دورية أسـبوعية وزيارات وولائم على الغداء حيث تلتقـي العائلـة الكبيـرة بكاملها على بطة محمرة، وقد كبر أفرادها وتعددت أجيالهـا حتى الجيل الثالث. إنه لا يستطيع أن يهرب من كـل ذلـك ولا بد له من مصاحبة الزوجة لزيارة أهلها كل جمعة أو أحد والذهاب إلى المنزل الكبير الذي أصبح ثلاثة طوابق، طـابق لكل فرد جديد يتزوج ويبدأ في تكوين أسرة.

فلتس يحمل كراسته في كل مرة ويسجل ملامح وجوه هذه الشخصيات المتوارثة منذ أجداد الفيوم المرسومة علـى غطاء الكفن. كما رسم من قبل وجوه العمة التي ربتـه بعـد فقدان الأم والابنة الكبيرة نرجس التي تعشق المسيح، يقبـع فلتس وسط أكواب الشاي الساخن في حديقة طومانباي ليرسم الأم فيكتوريا وبناتها إيزيس وصوفي وإقبال وفينس.

لفيف الأصدقاء يحتفلون في منـزل فلـتس بالحيـاة الزوجية الجديدة. تمضي السهرة على أحلى ما يكـون إلا أن الزوجة توجه سؤالا إلى فلتس بعد انصرافهم:

- بتتريق على مراتك قدام أصحابك.

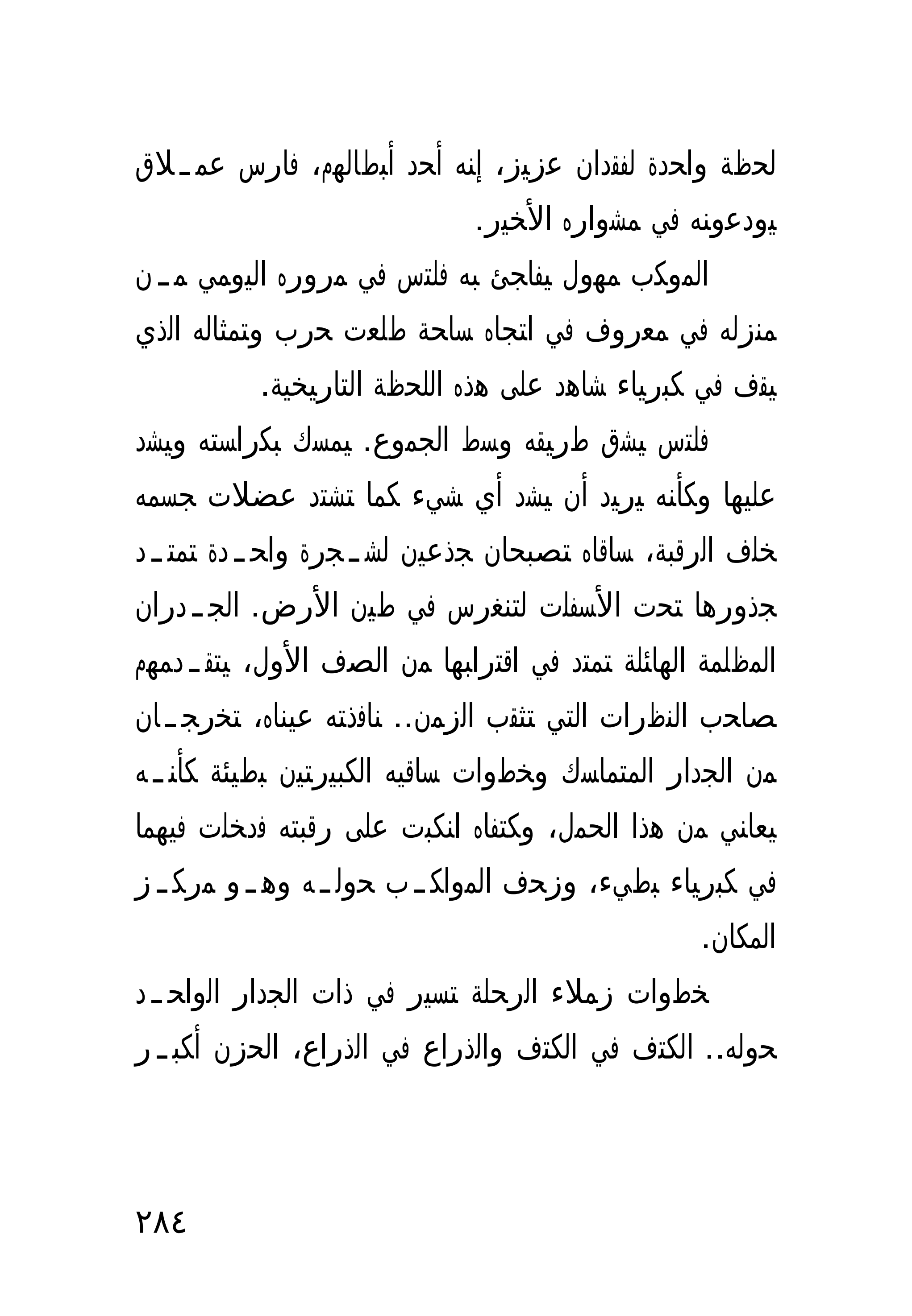
يسكت فلتس ويفقد الأيقونة في كفه.

وفي خياله نكتة لم يقلها ولا يرسمها.. أصبح له رقيبان رقيب في المجلة ورقيب في البيت.

يحاول تدريب يده اليسرى في حالة عجز اليمنى عـن الأداء.



زحفت الصفوف الأماميـة كأنهـا جـدران بشـرية متماسكة، تتحرك في نظام مرتب، الحزن مهندس جمعهم في



لحظة واحدة لفقدان عزيز، إنه أحد أبطالهم، فارس عملاق يودعونه في مشواره الأخير.

الموكب مهول يفاجئ به فلتس في مروره اليومي من منزله في معروف في اتجاه ساحة طلعت حرب وتمثاله الذي يقف في كبرياء شاهد على هذه اللحظة التاريخية.

فلتس يشق طريقه وسط الجموع. يمسك بكراسته ويشد عليها وكأنه يريد أن يشد أي شيء كما تشتد عضلات جسمه خلف الرقبة، ساقاه تصبحان جذعين لشجرة واحدة تمتد جذورها تحت الأسفلت لتنغرس في طين الأرض. الجدران المظلمة الهائلة تمتد في اقترابها من الصف الأول، يتقدمهم صاحب النظرات التي تثقب الزمن.. نافذته عيناه، تخرجان من الجدار المتماسك وخطوات ساقيه الكبيرتين بطيئة كأنه يعاني من هذا الحمل، وكتفاه انكبت على رقبته فدخلت فيهما في كبرياء بطيء، وزحف المواكب حوله وهو مركز المكان.

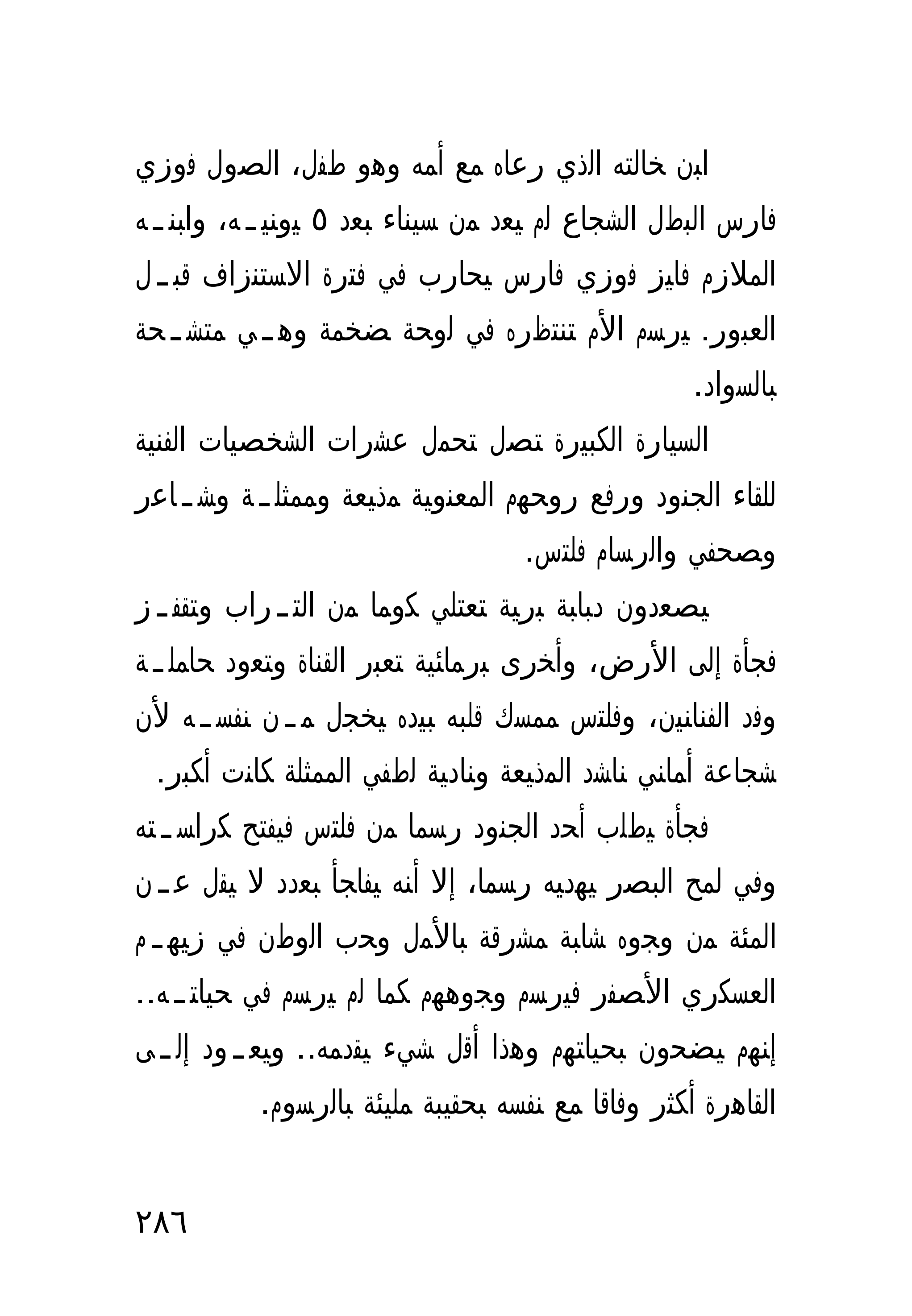
خطوات زملاء الرحلة تسير في ذات الجدار الواحد حوله.. الكتف في الكتف والذراع في الذراع، الحزن أكبر

من كل نزاع، الحزن الصادق عباءة هائلة تضم الجميع فـي لحظة وداع.

فلتس لا يزال منحشرا في موقعـه وسـط الجمهـور واللحظة أصبحت دهرا والموكب يمـر بصـعوبة أمامـه.. انفكت أحجار الجدران الأولى المتماسكة التي سارت خلـف المدفع وعليه نعش عبد الناصر وضربات العسكر على الطبل يشق القلب ويعصره، وينهار فلتس ويحتضن كراسته بشـدة تحت ذراعيه وينعطف في زقاق ضيق خلف شركة طيـران وينزوي في أحد المحلات ويسيطر عليه شعور مقبض فيخفي عينيه في دموع غزيرة.. يبكي كطفل تاه فـي مولـد وفقـد إحدى فردتي حذائه وضاع منه أبوه وأمه.



يتذكر الهزيمة العسكرية في ٦٧ التي أحدثت له صعقة برق في أعمال جديدة تمثل الشعب المصري وتكتله فيرسـم الجماهير كتلاً مكدسة في بلكونة ومعها راديو ترانزيسـتور تتطلع إلى أعلى أثناء العدوان.. وتتعدد لوحات الجموع فـي مرحلة كاملة.



ابن خالته الذي رعاه مع أمه وهو طفل، الصول فوزي فارس البطل الشجاع لم يعد من سيناء بعد ٥ يونيـه، وابنـه الملازم فايز فوزي فارس يحارب في فترة الاستنزاف قبـل العبور. يرسم الأم تنتظره في لوحة ضخمة وهـي متشـحة بالسواد.

السيارة الكبيرة تصل تحمل عشرات الشخصيات الفنية للقاء الجنود ورفع روحهم المعنوية مذيعة وممثلـة وشـاعر وصحفي والرسام فلتس.

يصعدون دبابة برية تعتلي كوما من التـراب وتقفـز فجأة إلى الأرض، وأخرى برمائية تعبر القناة وتعود حاملـة وفد الفنانين، وفلتس ممسك قلبه بيده يخجل مـن نفسـه لأن شجاعة أماني ناشد المذيعة ونادية لطفي الممثلة كانت أكبر.

فجأة يطلب أحد الجنود رسما من فلتس فيفتح كراسـته وفي لمح البصر يهديه رسما، إلا أنه يفاجأ بعدد لا يقل عـن المئة من وجوه شابة مشرقة بالأمل وحب الوطن في زيهـم العسكري الأصفر فيرسم وجوههم كما لم يرسم في حياتـه.. إنهم يضحون بحياتهم وهذا أقل شيء يقدمه.. ويعـود إلـى القاهرة أكثر وفاقا مع نفسه بحقيبة مليئة بالرسوم.

في الأسبوع الأخير قبل سفر فلتس تشاء الظروف أن يلتقي بأستاذه عز الدين حمودة. في منظور خان الخليلي.

يخرج من المنظور الأستاذ في قده الـدقيق وحجمـه الرقيق كورقة ذهبية دفعها الريح فتـدحرجت علـى بـلاط التاريخ. لم يتصور فلتس أن يرحب به أسـتاذه بكـل هـذه البشاشة، الشارب الرقيق الذي كثرت فيه الشعيرات البيضاء والشفاه التي تصيح باسم تلميذه والأذرع التـي تفـتح عـن آخرها للاحتضان وكلمات حلوة واعتراف بفنه من فم الأستاذ تهتز له عويناته الزجاجية المربعة والمكعبة.

أنساه لقاؤه المبهج جرحه القديم في بداية الطريق.



فلتس يحمل فرشاته ولوحاته ويصعد الطائرة، مودعا.

يشعر بكتفيه تنهشان جلده وبشرته تقشعر في رعشات متتالية تعطية لذة خاصة.. في نهاية الصفوف، بجوار المطبخ والتواليت ومقعد المضيفة، يدخن ويدخن وأمامـه الطيـور الجديدة المسافرة، ينام ويحلم أنـه يطيـر فـوق الأشـجار، وتتحول ذراعاه إلى جناحين، يطير، فوق الكـرة الأرضـية

ويكركر ويضحك، بجواره طيور النورس المهـاجرة إلـى الشمال.

عندما تقترب الطائرة من مطار باريس تتلون الأيقونة وتزداد في الكف لمعانًا وقوة.

يعود إلى رحم جديد ويصبح مع الحنين جنينا من نوع آخر..

